مَجلّة فصليّة محكّمة

تُعنى بعلوم كتاب نهج البلاغة
وبسيرة الإمام علي عليه السلام وفكره

تصدر عن

الأمانة العامّة للعتبة الحسينيّة المقدّسة

مؤسّسة علوم نهج البلاغة

مُجازَةٌ من وِزارَةِ التَّعْليمِ العالي والبَحْثِ العِلْميّ
مُعْتَمَدةٌ لأغراضِ التَّرْقِيَةِ العِلْمِيّة

السّنة الأولى – العدد الأول
١٤٣٧هـ – ٢٠١٦م

الترقيم الدولي ISSN: 2414 -1313

العنوان: العراق- كربلاء المقدسة- شارع السدرة: مجاور مقام علي الأكبر عليه السلام
مؤسسة علوم نهج البلاغة
للمعلومات والاتصال
07728243600
07815016633
الموقع الألكتروني: www.Inahj.org
البريد الالكتروني: Inahj@Imamhussain.org

بسم الله الرحمن الرحيم

وكل شيء أحصيناه في إمام مبين

(سورة يس، الآية: ١٢)

المشرف العام

سماحة الشيخ عبد المهدي الكربلائي

المتولي الشرعي للعتبة الحسينية المقدسة

رئيس التحرير

السيد نبيل قدوري حسن الحسني

رئيس مؤسسة علوم نهج البلاغة

مدير التحرير

د. لواء عبد الحسن عطية

المديرية العامة للتربية – كربلاء

سكرتير التحرير

علي حاسم محمد علي

بكالوريوس إدارة الأعمال – جامعة كربلاء

الهيأة الاستشارية

أ. د. صلاح مهدي الفرطوسي
جامعة الكوفة – العراق

أ. د. محمد جواد الطريحي
جامعة بغداد – العراق

أ. د. علي مهدي زيتون
الجامعة اللبنانية – لبنان

أ. د. عبد الهادي بن عمار غيلوفي
جامعة قفصة – تونس

أ. د. محمد حسنين النقوي
جامعة بهاء الدين زكريا – باكستان

أ. د. حسن منديل العكيلي
جامعة بغداد – العراق

أ. د. أياد عبد الحسين الخفاجي
جامعة كربلاء – العراق

أ. د. سامي حمود الحاج جاسم
الجامعة المستنصرية – العراق

أ. د. حاكم حبيب الكريطي
جامعة الكوفة – العراق

أ. د. نجاح فاهم العبيدي
جامعة كربلاء – العراق

أ. د. جواد كاظم النصر الله
جامعة البصرة – العراق

أ. م. د. علي عبد الفتاح الحاج فرهود
جامعة بابل – العراق

هيأة التحرير

أ . م . د . حسن حميد فياض
جامعة الكوفة – كلية التربية الأساسية

أ . م . د . مصطفى كاظم شغيدل
جامعة بغداد – كلية الآداب

أ . م . د . عدنان مارد جبر
جامعة كربلاء – كلية التربية للعلوم الإنسانية

أ . م . د . صالح كاظم عجيل الجبوري
جامعة بابل – كلية الآداب

أ . م . د . فليح خضير شني
جامعة واسط – كلية الآداب

أ . م . د . يوسف كاظم الشمري
جامعة بابل – كلية الآداب

أ . م . د . محمد عايد الحسيني
جامعة القادسية – كلية التربية

أ . م . د . حسين لفتة حافظ
جامعة الكوفة – مركز دراسات الكوفة

أ . م . د . عبد علي كاظم الفتلاوي
جامعة كربلاء – كلية السياحة الدينية

أ . م . د . فهد نعيمة مخيلف البيضاني
جامعة كربلاء – كلية التربية للعلوم الإنسانية

المراجعة اللغوية

أ . م . د . ليث قابل الوائلي
جامعة كربلاء – كلية التربية للعلوم الإنسانية

أ . م . د . مؤيد جاسم محمد حسين
جامعة كربلاء – كلية العلوم الإسلامية

الإدارة المالية

زمان جعفر كاظم علوان

بكالوريوس محاسبة – كلية بغداد للعلوم الاقتصادية

الموقع الإلكتروني

أحمد عباس مهدي عباس

بكالوريوس هندسة برمجيات – كلية الرافدين الجامعة

تدقيق اللغة الإنجليزية

أحمد طالب محمد خلف

بكالوريوس لغة إنجليزية – جامعة بغداد

المتابعة والتنسيق

علي افضيلة الشمري

وجدي فاضل زيدان

الإخراج والتصميم

مهدي رزاق صالح

شروط النشر في المجلة

ترحّب مؤسسة علوم نهج البلاغة بنشر البحوث والدراسات العلمية في مجلتها (المبين) وفقاً للشروط الآتية:

١. تنشر المجلة البحوث الأصيلة الملتزمة بمنهجية البحث العلمي وخطواته المتعارف عليها عالمياً، والمكتوبة بإحدى اللغتين العربية والإنجليزية.

٢. أن يكون البحث منسجماً مع هوية المجلة في نشر البحوث المختصة بعلوم كتاب نهج البلاغة وبسيرة الإمام علي عليه السلام وفكره في مجالات المعرفة كافة.

٣. يُقدّم الأصل مطبوعاً على ورق (A٤) بنسخة واحدة مع قرص مدمج (CD) بحدود (١٠,٠٠٠ - ١٥,٠٠٠) كلمة، بنظام (WORD ٢٠٠٧)، وتكون الكتابة بحجم خط (١٦) للعنوانات، و(١٤) للمتن، و(١٢) للهامش، والتباعد بين الاسطر (١سم)، ونوع الخط (Simplified Arabic) في البحوث العربية، و(Times New Roman) في البحوث الإنجليزية.

٤. يُقدّم ملخص للبحث باللغتين العربية والإنجليزية، كل منهما بحدود صفحة مستقلة على أن يتضمن عنوان البحث.

٥. يجب أن تتضمن الصفحة الأولى من البحث اسم الباحث ولقبه العلمي ومكان عمله (باللغتين العربية والإنجليزية)، ورقم هاتفه وبريده الإلكتروني، مع مراعاة عدم ذكر المعلومات المذكورة آنفاً في صلب البحث.

٦. يشار إلى المصادر جميعها بأرقام الهوامش التي تنشر في آخر البحث وتراعى الأصول العلمية المتعارف عليها في التوثيق.

٧. يزود البحث بقائمة المصادر منفصلة عن الهوامش، ويراعى في ترتيبها النظام الألفبائي لعنوانات الكتب أو أسماء المؤلفين، وفي حالة وجود مصادر أجنبية تُخَصّص لها قائمة منفصلة عن قائمة المصادر العربية.

٨. تطبع الجداول والصور واللوحات على أوراق مستقلة، ويُشار في أسفل الشكل إلى مصدره أو مصادره مع تحديد أماكن ظهورها في المتن.

٩. أن لا يكون البحث منشوراً أو مستلاً، وليس مقدّماً إلى أي وسيلة نشر أخرى، وينبغي أن يُشار إلى أن البحث غير مقدّم إلى مؤتمر أو ندوة، وإذا كان كذلك فيجب أن يكون غير منشور، وعلى الباحث تقديم تعهد مستقل بذلك كلّه.

١٠. إرفاق نسخة من السيرة العلمية إذا كان الباحث يتعاون مع المجلة للمرة الأولى.

١١. تعبّر جميع الافكار المنشورة في المجلة عن آراء كاتبيها ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر جهة الإصدار، ويخضع ترتيب الأبحاث المنشورة لموجهات فنية.

١٢. تخضع البحوث لتقويم سري لبيان صلاحياتها للنشر ولا تعاد البحوث إلى أصحابها سواء أقبِلت للنشر أم لم تقبل وعلى وفق الآلية الاتية:

أ: يُبلّغ الباحث بتسلّم المادة المُرسَلة للنشر.

ب: يخطر أصحاب البحوث المقبولة للنشر بموافقة هياة التحرير على نشرها وموعد نشرها المتوقع.

ج: البحوث التي يرى المقومون وجوب إجراء تعديلات أو إضافات عليها قبل نشرها تُعاد إلى أصحابها مع الملاحظات المحددة كي يعملوا على إعدادها نهائياً للنشر.

د: البحوث المرفوضة يُبلّغ أصحابها من دون ضرورة إبداء أسباب الرفض.

هـ: يمنح كل باحث نسخة واحدة من العدد الذي نشر فيه بحثه ومكافأة مالية.

١٣. يُراعى في أسبقية النشر:

أ: البحوث المشاركة في المؤتمرات التي تقيمها جهة الاصدار.

ب: تاريخ تسلّم رئيس التحرير للبحث.

ج: تنويع مجالات البحوث كل ما أمكن ذلك.

١٤. لا يجوز للباحث أن يطلب عدم نشر بحثه بعد عرضه على هيأة التحرير إلا لأسباب تقتنع بها هيأة التحرير، على أن يكون ذلك في مدة أُسبوعين من تاريخ تسلم بحثه.

١٥. يحق للمجلة ترجمة البحوث المنشورة في أعداد المجلة إلى اللغات الأخرى، من غير الرجوع إلى الباحث.

١٦. تُرسل البحوث إلى البريد الإلكتروني لمجلة المبين (inahj@imamhussain.org) أو تسلم مباشرة إلى مقر المجلة على العنوان الآتي:

العراق/ كربلاء المقدسة/ شارع السدرة/ قرب مقام علي الأكبر عليه السلام/ مؤسسة علوم نهج البلاغة.

Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Babylon
scientific office Assistant
Department of Research and Development
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بابل
مكتب المساعد العلمي
قسم البحث والتطوير

العدد : ١١٢٤٥
التاريخ: ٢٠١٦/٤/٢٨

Ref. No.:
Date: / /

الى / الامانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة / مؤسسة علوم نهج البلاغة
م / تحكيم مجلة علمية

١٢٠٠
٢٠١٦/٤/٢٨

تحية طيبة :

اشارة الى كتابكم المرقم بالعدد ٥٨ في ٢٠١٦/٣/٢٢ والحاقا بكتابنا المرقم بالعدد ١٠٢٣٧ في ٢٠١٦/٤/١٨ نود احاطتكم علما بالموافقة على اعتماد مجلتكم الموسومة (المبين) مجلة محكمة ومرصينة لاغراض نشر البحوث العلمية ومن قبل جامعتنا فقط مراجين لكم دوام الانرهار والتوفيق . . . . . مع الاحترام

أ.م.د . قحطان هادي الجبوري
مساعد رئيس الجامعة للشؤون العلمية
٢٠١٦/٤/٢٨

صورة منه إلى //
- مكتب السيد رئيس الجامعة . . . . . مع الاحترام .
- مكتب السيد مساعد رئيس الجامعة للشؤون العلمية . . للتفضل بالاطلاع مع الاحترام .
- كلية الدراسات القرانية . . . . . مع الاحترام .
- قسم البحث والتطوير /مع الاوليات .
- الصادرة .

Babylon_research@yahoo. com
babylon_research@uobabylon.edu.iq
Researchdep@gmail .com
Researchdep@uobabylon.edu.iq

كلمة الافتتاح

الحمد لله على ما أنعم وله الشكر بما ألهم والصلاة والسلام على خير النعم وأتمّها محمد وآله الأخيار الأطهار.

أمّا بعد:

فإنّ لكل أمة من الأمم حضارتها التي تفتخر بها على غيرها من الأمم، ولكل حضارة رجالها الذين بنوها بالفكر والعمل والجد والاجتهاد، ولكل حضارة شواهدها الشامخة وعلائمها القائمة وهي تحاكي الأجيال على كرور الأيام أنّ هاهنا كانت أمة.

ولكن ليس كل من رأى حضارة أمة تفكّر في حالها واعتبر بأخبارها وأُفول نجمها فلم يبق منها سوى مواضع الأطلال تصهرها أشعة شمس النهار وتغزوها الأمطار وتندب حالها الأطيار التي اتّخذتها أوكاراً لأعشاشها ومؤى لفراخها وكأنّ قدرها قد حتّم عليها أن لا يلحظها سوى فراخ هزيلة وزواحف دخيلة تجوب شقوق جدران هياكل الحضارة وهي تأز بأصواتها لتدعو الإنسان أنّ هاهنا كانت أمة.

ولكننا هنا في حضارة ليست كبقية الحضارات فشموخها قائمة في الأذهان وعلائمها حاضرة في القلوب وهياكلها تشدّ الأرواح لتهفو إليها أسيرة لأمرها ومنقادة لنهيها تغفو على المعنى هنا وترتشف الدلالة هناك وتنتشي العِبَرة هنالك، فضلاً عن حيرتها في نسق التعبير وجمالية المغزى وقوام الجملة، إننا في حضارة الكلمة، كلمة أمير المؤمنين الإمام علي بن ابي طالب (عليه الصلاة والسلام) تلك الحضارة التي عجزت عن محوها الأنداد من الأعراب والأعاجم فتكسرت على جدران حقائقها المعاول، وتقهقرت بساحات معارفها الفطاحل، ويأست عن بلوغ مغزاها الأعاظم.

لأنها حضارة الكلمة.. كلمة أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام) الذي لم يزل صدى دعوته مردداً «أن هاهنا علماً جماً لو أَصبت له من حملة».

من هنا: اتّخذت مؤسسة علوم نهج البلاغة منهجها في النهوض بهذا التراث المعرفي الذي اكتنزه كتاب نهج البلاغة فقامت بتأسيس مجلة علمية فصلية مُحَكَّمَة مُعْتَمَدة لأغراض الترقية العلمية في المجال الأكاديمي، تهدف إلى استنهاض الأقلام العلمية والفكرية للإرتشاف من معين علوم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وكتاب نهج البلاغة الذي يعد بوابة يلج منها أهل الفكر والبحث إلى حضارة الكلمة ، كلمة الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وقرآنه الناطق علي بن أبي طالب عليه السلام.

لذا:

تدعو أُسرة (مجلة المبين) المفكرين والباحثين في الجامعات والحوزات العلمية إلى الكتابة فيها والإسهام في رفدها بالأبحاث العلمية والدراسات المعمّقة؛ ليدلوا بدَلوِكم في رياض حضارة الكلمة الفياضة لتنتشي الأرواح وتقر العيون وتأنس النفوس وهي تجوب بين أروقة علومها العديدة وحقول معارفها الجمة.

ولا سيما أنّ (المبين) تعدّ أول مجلة علمية محكمة في العالم الاسلامي مختصة بعلوم كتاب نهج البلاغة وسيرة الإمام علي عليه السلام وفكره.

سائلين الله تعالى التوفيق والتسديد لإدامة هذا الصرح المعرفي، ونسأله بلطفه وسابق رحمته وخير نعمه وأتمها محمد وآله أن يديم علينا فضله وفضل رسوله الكريم وهو القائل وقوله حق ووعده صدق:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ﴾ الاسراء -٥٩-.

اللهم إنا إليك راغبون ولفضلك وفضل رسولك سائلون، والحمد لله رب العالمين...

رئيس التحرير

المحتويات

الصفحة	عنوان البحث	اسم الباحث
١٩	التشبيه البليغ بأسلوب المفعول المطلق في كتاب نهج البلاغة	أ.د. عبد الهادي خضير نيشان جامعة بغداد/ كلية التربية للبنات قسم اللغة العربية
٦٩	منهج أمير المؤمنين (عليه السلام) في معالجة الفساد المالي	أ. د. حسين علي الشرهاني جامعة ذي قار كلية التربية للعلوم الإنسانية قسم التاريخ
١٣٧	دلالة التشخيص في خطب نهج البلاغة	أ. م. د. أسيل متعب الجنابي جامعة واسط/كلية الآداب قسم اللغة العربية
١٦٣	الإمام علي (عليه السلام) في مجالس السيد المرتضى	أ. م. د. عباس علي الفحام جامعة الكوفة كلية التربية الأساسية قسم اللغة العربية

الصفحة	عنوان البحث	اسم الباحث
٢٠٣	**مفهوم علم التاريخ وأهميته في فكر الإمام علي (عليه السلام)**	أ. م. د. محمد حسين علي السويطي جامعة واسط/كلية الآداب قسم التاريخ
٢٢٧	**الأساليب البلاغية في خطب أصحاب الإمام علي (عليه السلام) في وقعة صفين**	م. د. عبد الهادي عبد الرحمن الشاوي جامعة الكوفة مركز دراسات الكوفة
٢٥٥	**وظائف النبوة دراسة في نهج البلاغة**	م. د. انتصار عدنان عبد الواحد جامعة البصرة / كلية الآداب قسم التاريخ
٢٨٧	**تربية الطفل في فكر الإمام علي (عليه السلام)**	م. م. عقيل رشيد عبد الشهيد الأسدي جامعة الكوفة كلية التربية الأساسية

قال أمير المؤمنين عليه السلام

قيمة كل امرئ ما يحسنه

مستدرك نهج البلاغة، الشيخ هادي كاشف الغطاء، ص ٢٦١

التّشبيه البليغ بأسلوب المفعول المطلق في كتاب نهج البلاغة

أ. د. عبد الهادي خضير نيشان

جامعة بغداد / كلية التربية للبنات

تظل بلاغة الإمام علي عليه السلام نبعاً لا ينضب مهما ازدحم حوله القُصّاد، وبحراً لا تنفد جواهره على كثرة الغائصين فيه، ممن يأسرهم جمال التعبير وبراعة الصورة. وكان لا بدّ لنا بما منّ الله علينا به من معرفة بلاغية من أن نحاول الدنو من عالم الإبداع والخلق المبتكر لهذا المبدع الذي خصه الله ببلاغة لا تدانيها بلاغة أحد من البشر، هي التي تمثلت في كتابه (نهج البلاغة).

المقدمة:

تظل بلاغة الإمام علي عليه السلام نبعاً لا ينضب مهما ازدحم حوله القُصّاد، وبحراً لا تنفد جواهره على كثرة الغائصين فيه، ممن يأسرهم جمال التعبير وبراعة الصورة.

وكان لا بدّ لنا بما منّ الله علينا به من معرفة بلاغية - من أن نحاول الدنو من عالم الإبداع والخلق المبتكر لهذا المبدع الذي خصه الله ببلاغة لا تدانيها بلاغة أحد من البشر، هي التي تمثلت في كتابه (نهج البلاغة)، كي نبحث في جانب من جوانب براعة الصورة فيه، ممثلة بالتّشبيه البليغ الذي وجدناه بضروبه المختلفة حاضراً حضوراً ملفتاً في النهج، ولأن وقفتنا ستكون متأنية عند هذا النوع من التّشبيه وبما لم نجده في دراسات بلاغية توافرت على النهج، آثرنا أن تأتي دراستنا لهذا التّشبيه على وفق ضروبه، حيث يأتي كل بحث مختصاً بواحد من هذه الضروب، مبتدئين - بإذنه تعالى - بالتّشبيه البليغ بأسلوب المفعول المطلق.

كلما قرأت كلاماً للإمام علي عليه السلام أو سمعت واحدة من حِكمه أو أقواله المأثورة التي يتداولها الناس في شؤون حياتهم اليومية المختلفة، تذكرت مقولة للإمام الرّمّاني وهو يفسر في رسالته المعروفة (النكت في إعجاز القرآن) لماذا توقف القرآن الكريم في تحديه للعرب - وهم أهل الفصاحة وأرباب البلاغة - عند حدود الآتيان بسورة من مثله، ولم ينزل إلى أدنى من ذلك، أي إلى الآية؟ فمعلوم أنّ القرآن الكريم تحدّى العرب أنْ يأتوا بمثله أولاً، فقال سبحانه وتعالى ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1].

فلما عجزوا عن أنْ يأتوا بمثله، نزل في تحديه لهم إلى عشر سور فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٢].

ولكنهم عجزوا أيضاً، فنزل في تحديه لهم إلى السورة الواحدة من دون تحديد لعدد آياتها كثُرت أم قلَّت، فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٣]، ثم كَرّر التحدّي بالسورة في موضع آخر من القرآن الكريم، فقال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٤].

فلما عجزوا عن المجيء ولو بسورة واحدة من مثله، حق عليهم إعجاز القرآن. وحين وقف الرّمّاني عند هذه القضية وحاول أنْ يفسر لماذا لم ينزل القرآن في تحديه للعرب إلى مستوى الآية؟ قال كلاماً في غاية الأهمية، خلاصته: أنّ في كلام بعض بلغاء العرب ما يمكن أنْ يرتفع في بلاغته إلى مستوى الآية القرآنية في حسنها وبلاغتها، واستشهد لذلك بقول الإمام علي عليه السلام: «قيمة كلّ أمرئ ما يحسن» فهذه المقولة للإمام بما فيها من إيجاز في المعنى وعذوبة في اللفظ تقارب الآية القرآنية في بلاغتها، يقول الإمام الرّمّاني «وظهور الإعجاز في الوجوه التي نبيّنها يكون باجتماع أمور يظهر للنفس أنّ الكلام من البلاغة في أعلى طبقة، وإنْ كان قد يلتبس فيما قلّ بما حسن جداً لإيجازه وحسن رونقه وعذوبة لفظه وصحة معناه كقول علي رضي الله عنه «قيمة كل امرئ ما يحسن» فهذا كلام عجيب يغني ظهور حسنه عن وصفه، فمثل هذه الشذرات لا يظهر بها حكم فإذا انتظم

الكلام حتى يكون كأقصر سورة أو أطول آية ظهر حكم الاعجاز، كما وقع التحدي في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ فبان الإعجاز عند ظهور مقدار السورة من القرآن»[٥].

فأيّ بلاغة هذه التي أراد لها الله سبحانه وتعالى، أنْ تكون دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوق - باستثناء نبيه عليه وعلى آله أفضل الصلوات والتّسليم - وكيف يتأتّى لنا نحن البشر أنْ نحيط بأقطار هذه البلاغة المعجزة أو أنْ نلمّ بأسرارها مهما أوتينا من العلم ومهما أجهدنا أنفسنا في الغوص بأعماق هذا البحر العميق بحثاً عن جواهره الفريدة.

وبذا فمهما تعددت مناحي القول في كلام الإمام علي عليه السلام ومهما تشعّبت سواء في جوانبها الأدبية أو الفكرية أو العقائدية أو الاجتماعية أو التشريعية أو النفسية، يبقى هذا الكنز الثمين معيناً لا ينضب، ويبقى القول في بلاغة الإمام عليه السلام، مهما أوتينا من العلم، فوق طاقاتنا وأكبر من أنْ نحيط بها، ولا عجب، فقد ألهمه ربُّه من العلم ما نعجز عن إدراكه فضلاً عن تحمّله، وهو ما صرّح به عليه السلام في قوله «بل اندمجتُ على مكنون علم لو بحتُ به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة»[٦].

ولكن يبقى هذا النص العظيم حافزاً للدراسة والإبداع، وتظل بلاغته كوكباً درّياً يستقطب أنظار المتلهفين للمعرفة والطامحين لأن يرووا ظمأهم من هذا المعين العذب، وهكذا، كان لابد لنا من أنْ نقف على جانب مهم من جوانب الإبداع في كلام الإمام علي عليه السلام متمثلاً بالصورة البلاغية في نهج البلاغة، وسعينا أنْ تكون دراستنا هذه متميزة من الدراسات التي سبقتنا في ذلك، وذلك بأنها ستكون - بأذنه تعالى - مفصّلة

أكثر ومتعمّقة بشكل أوسع في وقوفها عند الأنواع البلاغية لهذه الصورة، حيث سنبدؤها بنوع واحد من أنواع التّشبيه البليغ وهو التّشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق، على أنْ نسعى بعد ذلك إلى دراسات لاحقة لأنواع أخرى من التّشبيه في نهج البلاغة، مما لم يعرض لها من درس هذا الجانب في كتاب نهج البلاغة، أو لم يقف عليها وقفتنا المتأنية المعمقة إن شاء الله.

التّشبيه البليغ هو التّشبيه الذي حذفت منه أداة التّشبيه ووجه الشبه، وهو أوجز أنواع التّشبيه وأكثرها إثارة للذهن، لأنّ الاكتفاء من التّشبيه، بطرفيه (المشبه والمشبه به) فقط، فيه من المبالغة الشيء الكثير، ذلك لأنّه يرفع المشبه إلى مستوى المشبه به حتى يبدوا وكأنهما نظيران ولا تفاضل بينهما، وهي مبالغة كبيرة، ذلك لأنّ التّشبيه يقوم على قاعدة مؤدّاها أنّ المشبّه به أقوى من المشبّه في وجه الشّبه وأوضح منه، وإنّما يؤتى به لتوضيح المشبّه وترسيخه في الأذهان، ولو كان المشبّه هو المشبّه به – وهذا ما تقتضيه صيغة التّشبيه البليغ - لما قامت الحاجة إلى التّشبيه أصلاً، ولكن المبالغة في قوة الشّبه هي التي تستدعي هذه الصيغة من التّشبيه، فتعمل على تحفيز الخيال وترسيخ الصورة في الذهن.

تتباين درجة الخيال في التّشبيه البليغ بتباين تركيب أُسلوبه إذ يمكن للتشبيه البليغ أنْ يأتي بصيغ أسلوبية مختلفة[٧] استطعنا أنْ نرصد منها في نهج البلاغة الأنواع الآتية:

١. المشبّه والمشبّه به مبتدأ وخبر، أو ما أصله مبتدأ وخبر، فمن الأول قول الإمام عليه السلام في فضل أهل البيت عليهم السلام: «نحن الشِّعار والأصحاب، والخزنة والأبوابُ، ولا تؤتى البيوت إلاّ من أبوابها، فمن أتاها من غير أبوابها سُمِّيَ سارقاً»[٨].

فقد شبّه الإمام عليه السلام نفسه وأهل بيته بالشِّعار (وهو ما يلي البدن من الثياب) إشارة إلى أنّهم بطانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأقرب إليه نسباً ومعيشةً وعلماً، ثم شبّههم تشبيهاً بليغاً ثانياً بالخزنة والأبواب، فهم خزنة علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهم أبواب دخول مدينة علمه، فقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[٩].

وكيف يتأتى لكائنٍ من كان أنْ يلج هذه المدينة الفاضلة إن لم يمر على خزنتها ليتحصّل على موافقتهم ورضاهم، ثم يقومون هم بفتح الأبواب له، فإن لم يكن هذا طريقه، فهو سارق حتماً ويحق عليه القصاص.

جاء التّشبيه البليغ في العبارة بأُسلوب المبتدأ والخبر «نحن الشِّعار» ثم عطف على المشبّه به الأول مشبهين بهما آخرين «الخزنة والأبواب»، ويتوضح من خلال هذا التّشبيه جمال الصورة التي رسمها الإمام عليه السلام لعلاقة أهل البيت بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فضلاً عن هذا التأكيد المتأتي من صيغة المبتدأ وخبره، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام شيء واحد، لا انفصام بينهما ولا يتم أحدهما إلا بالآخر، شأن المبتدأ والخبر.

ومن هذا التّشبيه أيضاً قوله في وصف القرآن الكريم: «وكتاب الله بين أظهركم ناطقٌ لا يعيى لسانهُ، وبيتٌ لا تهدم أركانهُ، وعزٌّ لا تهدم أعوانُه»[١٠].

شبّه الإمام عليه السلام كتاب الله ثلاثة تشبيهات بليغة بأُسلوب المبتدأ والخبر فهو (ناطقٌ) و(بيتٌ) و(عزٌّ)، وكي يزيد المعنى قوةً ووضوحاً رشّح الإمام عليه السلام تشبيهاته الثلاثة، أي قوّاها، بذكر لازمة من لوازم المشبّه به بعد كل تشبيه، فحين شبّه القرآن بالإنسان الناطق، رشّحه بقوله «لا يعيى لسانه» وحين شبّهه

بالبيت، رشّحه بالقول «لا تهدم أركانه» وحين شبّهه ثالثة بالعزّ، رشّحه بعبارة «لا تهزم أعوانه»، وكل عبارة من هذه العبارات الثلاث أكّدت المعنى المراد من التّشبيه ورسّخته في ذهن السامع.

أما النوع الثاني وهو (ما أصله مبتدأ وخبر) فهو ما كان في أصل الكلام بأُسلوب المبتدأ والخبر، ولكن دخلت عليه واحدة من نواسخ الإبتداء فغيّرت من صيغته، ومن هذا قول الإمام عليه السلام في خطبته المشهورة في الحثّ على الجهاد وبيان فضله: «أما بعد، فإنَّ الجهادَ بابٌ من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه»[11] فأصل التّشبيه (الجهاد باب من أبواب الجنة) ولكن الرغبة في تأكيد المعنى وتقويته في نفوس سامعيه دعت الإمام عليه السلام إلى إدخال (إنَّ) المؤكّدة عليه، وهكذا اجتمعت ثلاثة أمور في هذه العبارة أعطت للمعنى الذي يريده الإمام عليه السلام في الحثّ على الجهاد والإقدام عليه، قوةً وتجسيداً تمثلتاً بدخول (إنَّ) المؤكّدة، وصيغة التّشبيه البليغ بما فيها من مبالغة وتأكيد، ثم ترشيح المشبّه به (باب) بأن جعله من أبواب الجنة، ثم أكّده كذلك بقوله (فتحه) ولذلك صار الجهاد باباً حقيقياً يأتمر بأمر الخالق سبحانه حيث لا يفتحه إلاّ لخاصة أوليائه.

ومن هذا الأسلوب في التّشبيه ما جاء في كلام للإمام عليه السلام وهو يصف حال المتقين الذين يدخلون الجنة، في معيشتهم الدنيوية، فيقول: «وكان ليلهم في دنياهم نهاراً تخشعاً واستغفاراً، وكان نهارهم ليلاً توحشاً وانقطاعاً»[12].

فهؤلاء المتقون الذين سيقوا إلى الجنة زمراً، ما فازوا بها إلاّ بأن اشتروا آخرتهم بدنياهم، فقد صار ليلهم في دنياهم نهاراً إذ يقضونه في الصلاة والتعبد خشية من الله واستغفاراً له مما قد يقعون فيه من ذنوب في شؤون حياتهم اليومية وبذا لم

يعد الليل وقتاً للنوم إنما للتخشع والاستغفار، أما نهارهم فقد صار ليلاً إذ انقطعوا عن الدنيا وملذاتها وانصرفوا عن مباهجها، مستوحشين نافرين خوف أنْ تؤدي بهم إلى المعاصي والآثام.

ويلاحظ دخول (كان) الناقصة على التّشبيه فصار المشبّه (ليلهم) و(نهارهم) اسماً لها، وصار المشبّه به (نهاراً) و(ليلاً) خبراً لها.

٢. المشبّه والمشبّه به في تركيب إضافي، نلمس فيه المشبه به مضافاً إلى المشبه، ولعلّ هذه الصيغة من التّشبيه البليغ أكثرها مبالغة وأشدها تأكيداً للتشبيه، ذلك أنّ قاعدة التّشبيه الراسخة هي أنّ المشبّه به هو الأتم في وجه الشبه، وهو (الأصل) فيه، ولكن يجري، بحسب صيغة التّشبيه البليغ بأُسلوب التركيب الإضافي، إضافة المشبّه به إلى المشبه، بما يبدو وكأنه جزء منه أو تابع له، وهذه هي الغاية في المبالغة، إذ لم تقف المبالغة عند حدود جعل المشبّه والمشبّه به نظيرين، كما مرّ في صيغة المبتدأ والخبر، وإنما تشتد المبالغة حدّ أنْ تجعل المشبّه به تابعاً للمشبّه وكأن وجه الشبه أرسخ وأقوى في المشبّه، منه في المشبّه به. وقد دار هذا اللون من التّشبيه البليغ على لسان الإمام عليه السلام كثيراً في نهج البلاغة ومن ذلك قوله في وصف بعض أهل زمانه: «قد خاضوا بحار الفتن، وأخذوا بالبدع دون السُّنَن»[١٣].

فقوله (بحار الفتن) تشبيه بليغ بأُسلوب التركيب الإضافي، فالأصل فيه تشبيه الفتن بالبحار بجامع العظمة والخطر المؤديان إلى الهلاك أي (الفتن بحار) ثم جرى إضافة المشبّه به (بحار) إلى المشبّه (الفتن) فصار التّشبيه (بحار الفتن) وفي هذا قوة للتشبيه وتعظيم للمعنى الذي أراده الإمام عليه السلام في التحذير من الفتن وما تؤديه باتباعها من الوقوع في الهلاك والموت بعد غرقهم فيها، وبذا

يـأتي التّشـبيه في غايـة الإيجـاز ولكنـه في الوقـت نفسـه في غايـة المبالغـة والتأكيـد، فلنـا أنْ نتصـور هـذه الفـتن الـتي تعصـف بالناس وقد استحالت بحاراً طامية يخوض فيها الجاهلون من دون علم ودراية حتى تغرقهم فيها فيستوون في قاعها حتى كأن لا وجود لهم ولا أثر، شأن البحار التي تبتلع السفن والناس فلا تُرى منهم بقية.

ومن هذا التّشبيه كذلك قوله عليه السلام وهو يصف إبليس (لعنه الله) في اعتراضه على الله سبحانه في خلقه لآدم ورفـض السـجود لـه «فعـدو الله إمـام المتعصـبين، وسـلف المسـتكبرين، الـذي وضـع اسـاس العصـبية، ونـازع الله رداء الجبرية، وادَّرع لباس التعزز، وخلع قناع التذلل»[١٤].

في العبـارة ثلاثـة تشـبيهات بليغـة، جـاءت كلـها بأسـلوب التركيـب الإضـافي هـي «رداء الجبريـة» و«لبـاس التعـزز» و«قنـاع التـذلل»، وفيهـا جميعـاً أضـيف المشبّه بـه إلى المشبّه، ففـي التّشـبيه الأول شـبهت الجبريـة بـالرداء وفي الثـاني شُـبّه التعـزز باللبـاس وفي الثالـث شُـبّه التـذلل بالقنـاع... وبلاغـة التّشـبيه في التّشـبيهين الأول والثـاني متأتّيـة مـن تشـبيه الجبريـة والتعـزّز بـالرداء واللبـاس الـذي يشـتمل الإنسان ويغطي غالـب جسـمه، وكـذلك هـو إبلـيس حـين خلـع رداء الرضـوخ لله سبحانه وتعـالى وتـردّى بـدلاً منـه التعـزّز لباسـاً، وإنَّـه كشـف عـن وجهـه الحقيقـي بعـدما تقنّـع قـبلاً بالتـذلل لله تعـالى والخضـوع لمشـيئته، ولكنـه لسـوء طويتـه وفساد نفسـه فشـل في أول امتحـان أجـراه الخالق له كـي يفضـحه أمـام نفسـه ويجـبره علـى أنْ يضـع عـن وجهـه قنـاع التـذلل ويكشـف عـن وجهـه الحقيقـي في قبحـه وكراهة منظره.

٣. المشبّه به مفعول به: كقول الإمام عليه السلام في واحدة من عظاته، وهو يصف المؤمن بصفات منها «كـابر هـواه،

وكذَّب مناه، جعل الصبر مطية نجاته، والتقوى عدة وفاته»[١٥].

ففي العبارة تشبيهان بليغان بطريقة المفعول به وهو قوله «جعل الصبر مطية نجاته» و«التقوى عدة وفاته» إذ المشبه في كل تشبيه منهما هو المفعول به الأول للفعل (جعل) وهما (الصبر) و(التقوى) والمشبّه به في كليهما هو المفعول به الثاني وهما (مطية نجاته) و(عدة وفاته).

ولا شك في أنَّ صورة التّشبيه الأول المتمثلة في تحوّل الصّبر إلى مطية يمتطيها الإنسان كي تبلغ به النجاة من النار صورة معبرة ومكتنزة بالمعاني الظاهرة والخفية منها.

فهي تعبّر عن قوة إيمان الإنسان وقدرته على تذليل الصّبر -على مرارته - حتى يستحيل ظهراً يمتطيه، فهو بدل أنْ يُذل بالإنقياد إلى شهواته أو الرضوح لمصاعب الحياة، يقلب الصورة ليقهر بأيمانه الصّبر، فكأن صراعه ليس مع الشهوات أو المصاعب أنّما مع الصّبر، فإذا غلبه صار له مطية ذليلة تنجيه من العذاب.

وكذلك هي الصورة في التّشبيه الثاني حيث تستحيل التقوى إلى عدّة وزاد يحملها عند وفاته حين يخرج خالياً ومفلساً من كل ما كان له في الحياة الدنيا، إلاّ التقوى فهي خير زاد له وعدّة، ومن هذا الباب قوله واعظاً أيضاً ومزهداً بالدنيا وبهرجها: «ولبئس المتجر ان ترى الدنيا لنفسك ثمنا، وممَّالكَ عند الله عوضاً»[١٦].

فالعبارة قائمة على التّشبيه البليغ بطريقة المفعول به، حيث صارت (الدنيا) مفعولاً به أول للفعل (ترى) وهي المشبّه، و(ثمناً) و(عوضاً) مفعولاً به ثانياً وهما مشبّهان بهما.

فأية تجارة خاسرة هذه التي يبيع الإنسان فيها نفسه كي يشتري حياة زائلة تقاس بالأيام والسنين ويترك حياة الخلد

في جنات النعيم، وأيّ عقل هذا الذي يعد ما يجده في حياته الدنيا عوضاً كافياً عما سيجازيه الله سبحانه في حياته الثانية إنّها بلا شك لبئس المتجر كما قال الإمام عليه السلام.

٤. المشبّه والمشبّه به مربوطان بحرف الجر، سواء تقدم المشبّه أو المشبّه به، وهو من الأنواع الكثيرة الاستعمال، الدائرة حتى في كلامنا الدارج، كما في قولنا (شعر من ذهب أو قلب من حجر)، ولكن قلّما يلتفت إلى هذا النوع من التّشبيه دارسو الصورة البلاغية.

وقد دار هذا التّشبيه على لسان الإمام عليه السلام كما توضح لنا من دراسة النهج، ومن ذلك قوله يصف أولئك الذين يتصدون للحكم أو الفتيا وهم ليسوا أهلاً لها فهم متشبهون بالعلماء وليسوا علماء.. يقول: «حتى اذا ارتوى من آجن، واكتنز من غير طائل، جلس بين الناس قاضيا ضامنا لتخليص ما التبس على غيره فإن نزلت به أحدى المبهمات هيأ لها حشواً من رأيه، ثم قطع به»[١٧].

فقد شبّه رأي هذا المتعالم، لفساده وقلة نفعه، بالحشو الذي لا فائدة منه وكي يؤكد ابتذال هذا الرأي وتفاهته وصفه بأنّه (رثٌّ) أي متهرئ ليس له من الحجة والمنطق ما يقويه أو يدفع الآخرين إلى التصديق به.

فالتّشبيه البليغ جاء في قوله: «حشواً رثاً من رأيه» أي أنّ رأيه كالحشو الرث، وبذلك نلاحظ الربط بين المشبّه (رأي) والمشبّه به (حشو رث) بحرف الجر (من) وبتقدم المشبّه به على المشبّه.

ومن هذا التّشبيه قول الإمام عليه السلام مخاطباً أنصاره وهو يحثهم على مقاتلة أصحاب معاوية في صفين: «فالموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين»[١٨].

فقد شبّه حياة المقهورين الأذلاء بالموت في قوله «فالموت في حياتكم مقهورين»، وشبّه كذلك موت القاهرين المنتصرين بالحياة في قوله «والحياة في موتكم قاهرين» حثاً لهم وتحفيزاً على رفض الظلم والقهر، والاستشهاد دفاعاً عن الكرامة التي هي الحياة الحقيقية، أمّا حياة الذل فإنّها موت ولكن أيُّ موت؟ إنّه موت الذل والمهانة.

وفي كلا التّشبيهين جرى ربط المشبّه به (الموت) والحياة) بالمشبّه (حياتكم مقهورين) و(موتكم قاهرين) بحرف الجر (في).

٥. المشبّه به حال من المشبّه، كقول الإمام عليه السلام في وصف الايمان: «إن الإيمان يبدو لُمْظَةً في القلب، كلما ازداد الايمان ازدادت اللُّمْظَة»[١٩].

فقد شبّه الإمام ولادة الإيمان في قلب الإنسان باللمظة أي القدحة، التي يشتد توهجها ويزداد نورها بزيادة الإيمان، أي أنّ الإنسان يستطيع أنْ يجعل قلبه عامراً بنور الإيمان ممتلئاً بالخير كلما ازداد تقوى وقرباً من الله سبحانه بزيادة الايمان الذي يولد لمظة ثم يزداد بعدها.

٦. المشبّه به مصدر مبين للنوع أي مفعول مطلق، وهذا اللون من التّشبيه هو الذي سندير عليه بحثنا هذا في كتاب نهج البلاغة.

تتمثل البنية التركيبية للتشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق بأن يكون المشبه فعلاً، يراد من التّشبيه إيضاح طبيعته أو مقداره أو بيان حاله أو تزيينه أو تقبيحه.

إلى غير ذلك من أغراض التّشبيه فيأتي المشبّه به بصيغة المصدر لذلك الفعل مبيناً نوعه (أي مفعولاً مطلقاً) كما في قولنا: (انتشر الفساد في هذه الأيام انتشار النار في الهشيم)، فالمشبّه الذي يراد إيضاح صورته وتقدير مقداره في نفوس السامعين هو (انتشار الفساد)، والمشبّه به، الأقوى في وجه الشبه، والأرسخ في

الأذهان لشيوعه ومعرفة الجميع به، الذي يمكن أنْ يكون مقياساً لإدراك المشبّه (كيفية انتشار الفساد ومقداره، هو (انتشار النار في الهشيم) تعبيراً وتجسيداً لانتشار الفساد السريع وإتيانه على كل شيء، كما تفعل النار في الهشيم اليابس، في سرعة الانتشار والقضاء عليه وتحويله إلى رماد لا قيمة له.

فالتّشبيه من حيث النوع تشبيه بليغ لحذف أداته ووجه الشبه، واقتصاره على طرفيه فحسب، المشبه وهو (انتشار الفساد) والمشبه به وهو (انتشار النار في الهشيم)، والعلاقة بين المشبه والمشبه به هي علاقة الفعل بمصدره (انتشر انتشار) وهو مفعول مطلق لأنّه جاء مبيناً لنوعه بعد إضافته إلى الحال التي أريد منها زيادة المشبّه وضوحاً وتوكيداً.

ورد هذا اللون من التّشبيه كثيراً، سواء في القرآن الكريم، أو في الشعر والنثر العربيين قديماً وحديثاً. فمما ورد منه في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾[٢٠].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾[٢١].

وقوله تعالى: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾[٢٢].

وقوله عزّ وجل: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾[٢٣].

كما كان حضوره في الشعر العربي قديماً، فها هو يرد في معلقة امرئ القيس وهو يصف صعوده إلى مخدع حبيبته، فيقول:

سموتُ إليها بعدما نام أهلُها

سموَ حَبابِ الماءِ حالاً على[٢٤]

فقد أدرك الشعراء ما في هذا اللون من التّشبيه من جمال وقدرة على تجسيد المعاني وتمثيلها للسامعين، سواء في هذا

التناغم الصوتي المتولد من التكرار الاشتقاقي في لفظ الفعل ومصدره.

أو من خلال التّشبيه الذي يصنعه خيال الشاعر وهو يلتقط مشبّها به قريبا منا حدّ الألفة ولكن لم يرد في أذهاننا أنْ نجعل منه تمثيلاً أو تجسيداً لحال أخرى.

وهكذا يجتمع في هذا التّشبيه أهم عنصرين من عناصر نجاحه، وهما المقاربة والمناسبة من جهة والغرابة والطرافة من جهة أخرى[٢٥].

وهو ما يمكن أنْ نتلمسه كذلك في قول المتنبي وهو يصف شعب بوان، حيث استثمر هذا اللون من التّشبيه في نقل صورة جميلة لصوت الماء وهو يرتطم بالحصى... فيقول:

وأمواهٍ تصل بأحصاها

صليلَ الحَلي في أيدي

[٢٦]

فنحن لم نزر شعب بوان، ولم نسمع خرير الماء فيه، ولكن الصورة التي صنعها خيال المتنبي من خلال تشبيه صليل الماء وهو يصطدم بالحصى، بالرنين العذب المنبعث من اصطدام الحلي في أيدي الفتيات الجميلات، جعلنا نتحسس جمال هذا الخرير، ثم نصاب بعدوى الشاعر وهو يعيش حالة الانتشاء واللذة بما يراه ويسمعه، فصرنا نشاركه طربه لهذه الموسيقى الجميلة التي حركت خياله.

وحين عُدنا إلى كتاب نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام وحاولنا الوقوف على وجوه الصورة البلاغية في هذا السفر العظيم ولا سيما التّشبيه منها استوقفنا هذا الاستعمال الكثير لهذا اللون من التّشبيه في خطب الإمام عليه السلام ورسائله، حتى استطعنا أنْ نرصد ما يزيد على أكثر من سبعين موضعاً جاء فيه التّشبيه البليغ، بأُسلوب المفعول المطلق، مما حفزنا على البدء به، في أول دراسة لنا في وجوه الصورة البلاغية في النهج. ولما كانت البنية التركيبية لهذا

اللـون مـن التّشـبيه البليـغ واحـدة وهـي صيغة الفعـل ومصـدره، آثرنـا أنْ تكـون دراستنا له على وفق الأغراض البلاغية الـتي خـرج اليهـا في كـلام الإمـام عليـه السلام، ولا سيما أنّ نهـج البلاغة بكـل أجناسه النثرية سـواء في خطبه أو رسـائله أو وصـاياه أو حكمـه، قـد غلـب عليـه طابع النصح والإرشاد لما كان يستشعره الإمام من حاجة أهل زمانه واللاحقين لهـم لمثـل ذلـك، وسـيكون ترتيـب هـذه الأغـراض علـى وفـق بروزهـا في الصـور التّشبيهية وكثرتها وهي:

١. بيـان مقـدار حـال المشبّه: وذلـك حين (يكـون المشبّه معروف الصفة، قبل التّشبيه، معرفة إجمالية، ولكـن الغـرض هـو تحديـد مقـدار هـذه الصـفة، قـوةً أو ضـعفاً، زيـادة أو نقصـاناً، وضـوحاً أو غموضاً)[٢٧].

ولا غرابـة بعـد ذلـك أنْ يكـون هـذا الغـرض هـو الأبـرز بـين أغـراض التّشبيه في نهـج البلاغـة، لأن الإمـام عليـه السـلام بحاجة إلى توضيح معانيه وتأكيدها في نفوس سـامعيه، حيـث لا تنفـع المعرفـة العامـة أو المجملة، بل لابد من تحديد الاشياء تحديداً دقيقـاً، وإكسـاء المعـاني رداء الحقيقـة حتـى تتجسـد أمـام سـامعيه فيعونهـا ويتـأثرون بهـا علّها تغير ما في نفوسهم لما يريد لهـم الإمـام عليه السلام من خير وصلاح.

ومـن ذلـك مـا جـاء في إحـدى خطبـه وهـو يقـرّع أصـحابه لتخـاذلهم في مقاتلـة معاويـة وأصـحابه، مستغرباً مـن تكالـب أهـل الباطـل في الـدفاع عنـه، وتخـاذل أنصـاره وهـم أهـل الحـق عـن نصـرته، يقـول: «صـاحبُكم يطيـع اللهَ وأنـتم تعصـونه، وصـاحبُ أهـل الشـام يعصـي الله وهـم يطيعونـه؟! لـودِدْتُ والله أن معاويـة صـارفني بكـم صـرف الـدينار بالـدرهم، فأخـذ مـني عشـرة مـنكم وأعطاني رجلاً منهم»[٢٨].

أيُّ مفارقة هذه التي آلمت الإمام عليه السلام هذا الألم حتى جعلته يرتضي هذه التجارة الخاسرة حين يستبدل الدرهم بالدينار، فيود لو أنّ معاوية قايضه بأصحابه فأعطى الإمام عشرة من أصحابه لقاء واحد من أصحاب معاوية، إنّ الإمام عليه السلام في غاية الألم والتحسر وهو يرى الحق بلا ناصر ولا معين، ويرى الباطل وقد كثر أنصاره ومعينوه بل استماتوا في القتال دونه، فهم يعرفون أن صاحبهم (معاوية) يعصي الله ولكنهم يطيعونه، وهو الإمام الحق ويطيع الله، ولكن أتباعه يعصونه، وكي يعبر الإمام عليه السلام عن زهده بهؤلاء الأتباع المتخاذلين واستصغاره لشأنهم، كان التّشبيه البليغ بأسلوب المفعول المطلق «صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم» كي يقرر لهم مقدار حالهم في أنفسهم أولاً، وفي نفس الإمام عليه السلام ثانياً.

وفي كلام له عليه السلام واصفاً نفسه، وما وهبه الله من علم رباني خصَّه به، إذ لا يقوى على حمله سواه من البشر، يقول: «والله لابن أبي طالب أنس بالموت من الطفل بثدي أمه، بل اندمجتُ على مكنون علم لو بحث به لاضطربتم اضطراب الأَرْشية في الطَّوِى البعيدة»[٢٩].

فالعبارة قائمة على التّشبيه سواء في جزئها الأول، وهو يقرر شجاعته، وعدم خشيته من الموت، إيماناً، وليس تهوراً، أو جهلاً، أو جزعاً من الحياة أو شقاء بها، ولكن لأنّه يعرف ما ينتظره من خير ونعيم في حياته الثانية، بعد أنْ رأى مكانه في الجنة بين الأنبياء والصديقين والشهداء، وهكذا فهو لا يجزع من الموت بل يأنس به أنس الطفل الرضيع بثدي أمه، فالجنة ملاذه ومكانه الآمن الذي يفزع إليه كما يفزع الطفل إلى صدر أمه حيث الأمان والراحة والزاد والشراب.

وكذا الحال في جزء العبارة الثاني الذي جاء متمماً لمعنى العبارة في جزئها الأول وقائماً على التّشبيه كذلك، ولكن كان التّشبيه هذه المرة بليغاً بأُسلوب المفعول المطلق، وهو يصف ما استودعه الله من علم وما خصه به من نور رباني، يجعله زاهداً بهذه الدنيا وما فيها، ولكنه لا يقوى على البوح به لهم، لأنّه يعرف ثقل هذه الأمانة التي حَمّلها الله إياها، بما ليس في مقدور أحد من البشر سواه تحملها، فما إنْ يسمعوا بما لديه من علم حتى تأخذهم رعدة شديدة ويضطربون اضطراب الحبل الطويل في البئر البعيدة الغور، وهو أنْ يبح لهم بشيء مما خُصّ به من علم إلهي، فسوف تأخذهم الرجفة وتضطرب حواسهم وأعضاؤهم فلا يقوون على تحمّل ما يسمعون... .

وكي يبيّن الإمام عليه السلام لسامعيه حالهم فيما لو باح لهم بعلمه، حرص على أنْ تكون عناصر المشبّه به من مفردات حياتهم اليومية كي يتجسد المعنى أمام أعينهم ويتبينوا مقدار اضطرابهم فكانت صورة الحبال الطويلة التي تضطرب في البئر البعيدة، تعبيراً عن قوة هذا الاضطراب وشدته، وهي صورة ألفوها واعتادوا رؤيتها كل يوم في حياتهم، بما يرسخ المعنى في نفوسهم.

وفي واحدة من خطبه الوعظية يستثمر الإمام عليه السلام هذا اللون من التّشبيه استثماراً واضحاً في تقرير معانيه في نفوس سامعيه، في إيراد أكثر من مشبّه به لبيان مقدار حال المشبّه وتوضيحه يقول: «فوالله لو حننتُم حنينَ الوُلَّهِ العجال، ودعوتم بهديل الحمام، وجأرتم جُؤارَ متبتل الرهبانِ، وخرجتم إلى الله من الأموال والأولاد التماس القربة إليه في ارتفاع درجةٍ عنده، أو غفران سيئة أحصتها كتبه، وحفظها رسله، لكان قليلاً فيما أرجو لكم من ثوابه، وأخاف عليكم من عقابه»[٣٠].

في العبارة تشبيهان بليغان جاءا بطريقة المفعول المطلق وهما (حننتم حنين الوله العجال) و(جأرتم جؤار متبتل الرهبان) تعبيراً عن شدة الاستغفار وعمق الدعاء إلى الله سبحانه وتعالى بأن يغفر لهم ذنوبهم التي وقعوا بها، فإنّ هذا كله ليس كافياً، بل هو قليل قياساً بما يريده لهم الإمام عليه السلام من ثواب عند الله ومن خوف عليهم من عقابهم على هذه الذنوب.

وبذا كان المشبّه به الأول (حنين الوله العجال) غاية في الحنين كما تمثل في حنين النوق التي (ولهت) أي فقدت ولدها وصارت تتعجل لقاءها بشوق ولهفة، وكذا المشبّه به الثاني (جأرتم جؤار متبتل الرهبان) فإنّه الغاية في التبتل إلى الله والدعاء له فالرهبان قد اعتزلوا الحياة وانقطعوا للعبادة والصلاة، حتى صاروا مثلاً في التبتل إلى الله والدعاء باسمه على امتداد الليل والنهار بعد أنْ وهبوا حياتهم لعبادة الله والتقرب إليه بالصلاة والدعاء، ولا شك في أنّ الإمام عليه السلام أراد أنْ يقول لسامعيه أنّكم لو بلغتم الغاية في الوله والتبتل فإن ذلك قليل قياساً بما أريده لكم أو أخافه عليكم، فكان التّشبيهان البليغان بطريقة المفعول المطلق وسيلته في بيان هذا الحال.

وفي خطبته التي تسمى (القاصعة) التي يذم بها إبليس اللعين في تكبره وعدم خضوعه لحكم خالقه، يحذّر الناس من سلوك طريقته والاقتداء بأفعاله، فيقول: «فالله الله في عاجل البغي، وآجل وخامة الظلم، وسوء عاقبة الكبر، فإنها مصيدة ابليس العظمى، ومكيدته الكبرى، التي تساور قلوب الرجال مساورة السموم القاتلة»[٣١].

فحين أراد الإمام عليه السلام استحضار مقدار الضرر الذي يصيب الناس حين يتخلقون بأخلاق إبليس، وكي يردعهم عن متابعته في سوء خلقه

لا سيما الكبر، لم يكتفِ بتشبيه هذا الكبر بالمصيدة العظمى والمكيدة الكبرى لإبليس تشبيهاً بليغاً بطريقةٍ ما أصله مبتدأ وخبر، بل استعان بالتّشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق، في تشبيه ثالث وصف فيه طريقة نفاذ هذه العادة السيئة العاقبة إلى قلوب الرجال ثم فتكها بها فتكاً يأتي عليها دون عجز أو خطأ، وذلك في قوله «تساور قلوب الرجال مساورة السموم القاتلة».

فجسد لهم ذلك بتشبيه (تساورها) أي انتشارها وعملها في القلوب بعمل السموم القاتلة التي تدخل الأجسام دون أنْ نشعر بها حتى إذا انتهت إلى القلوب فتكت بها وأدت بأصحابها إلى الموت السريع.

فما أراد الإمام عليه السلام تقريره في نفوس سامعيه هو أنّ الكبر سم قاتل يتسلل إلى قلوبنا دون أنْ نشعر به حتى إذا انتشر فيها خربها وأدى بها إلى الموت.

وفي موعظة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام يحثّ فيها الناس على الصلاة ويبين فضلها عند الله، وما تعود به من نفع عليهم يقول: «تعاهدوا أمر الصلاة، وحافظوا عليها، واستكثروا منها وتقربوا بها، فإنّها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً... وإنّها لتحتُّ الذنوبَ حتَّ الوَرَق وتطلقها اطلاقَ الرَّبْق»[٣٢].

فهو يستحضر في حديثه هذا عن فضل الصلاة تشبيه النبي محمد صلى الله عليه وآله الصلاة بالماء الجاري الذي يغتسل منه المسلم خمس مرات فلا يبقى بعدها من ذنوبه شيء، وتأتي الصورة التي رسمها الإمام عبر التّشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق مستمدة منها ومتممة لها، إذ إنّها تحتّ الذنوب (أي تقشرها) حتى يظهر جوهر المؤمن صافياً بريئاً من كل عيب كحتّنا للأوراق حتى يظهر عود الشجرة مستقيماً، ناعماً، أملساً، براقاً.

ولم يكتفِ بذلك حتى زاد هذا المعنى تأكيداً حين أردف تشبيهه السابق بتشبيه آخر لا يقل عنه طرافةً وجمالاً حين شبّه فضل الصلاة في إطلاق المرء من ذنوبه وتحريره من أدرانه بإطلاق (الربق) أي العروة من الحبل لتصبح حرة متخلصة من أسرها فكان التّشبيهان صورة نفسية رائعة لإحساس المؤمن بالرضا والسعادة وهو يتحرر من ذنوبه ومن الإحساس بأنّه أسيرها أو حتى عبدٌ لها. ولا سبيل إلى ذلك كله إلاّ بالصلاة.

ويخطب الإمام عليه السلام في الناس يستحثّهم على قتال معاوية وأصحابه، ولكنّه مدرك تماماً حقيقة أصحابه، وفساد دخليتهم، واختلاف أمرهم، وعصيانهم لأوامره، حتى بدا عاجزاً، ولا رأي له... يقول:

«غُلب والله المتخاذلون، وأيم الله إنّي لأظن بكم، أن لو حمسَ الوغى واستحر الموت قد انفرجتم عن ابن أبي طالب إنفراج الرأس»[٣٣].

فهو يدرك أنّ هؤلاء الناس حوله، ما داموا في أمن وسلام، فإذا اشتد أوار الحرب، واستشعروا دنو الموت منهم، انفضوا من حوله، وفارقوه فراقاً لا رجعة فيه، وحتى يوضح لهم مقدار يأسه من نصرتهم، ويقينه أنّهم خاذلوه، شبّه انفراجهم عنه ساعة اللقاء بانفراج الرأس عن الجسد تشبيهاً بليغاً بأسلوب المفعول المطلق.

وفي هذا التّشبيه ما فيه من دلالة على بشاعة فعلتهم وقباحة موقفهم، فالرأس حين ينفرج عن الجسد يعني الموت المحتّم، وبعدها لا تنفع إعادة الوضع إلى ما كان عليه، فالحياة لا تعود إلى الجسد بعودة الرأس إليه.

وكأنّي بالإمام عليه السلام يريد أنْ يقرر في نفوس أصحابه أنّ تخليهم عن نصرته، وعجزهم عن مقاتلة عدوهم، وتركه يلاقي عدوه وحده، نجاة بأنفسهم، ليس هلاكاً له وحده فحسب،

بل هو هلاك لهم أيضاً فما نفع الجسد بلا رأس، وماذا يمكن أنْ تفعلوا إذا وقع المحظور وغزاكم عدوكم، وأدركتم صواب كلامي بعد فوات الأوان، هل تراه يعيد الحياة اليكم؟ وما نفع الندم ساعة إذ، وبذا كان التّشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق أداة الإمام عليه السلام في استحضار كل هذه المعاني وتقريرها في نفوس أصحابه، فالتّشبيه لم يقتصر على بيان حال المشبّه (الناس في تخاذلهم وتهربهم من قتال عدوهم)، وقت الكلام فحسب وإنّما تعدى ذلك إلى قابل الأيام وما سيحل بهم إنْ لم يأخذوا بكلام إمامهم.

ويلاحظ على بنية الخطاب أنّ الإمام عليه السلام أشار إلى نفسه بالكنية (ابن أبي طالب) وكأنّه بذلك يريد أنْ يذكّر الناس من هو؟ وما صلته ببيت النبوة وما قدّمه أهل بيته من فضل للناس أجمعين إذ أخرجوهم من الظلمات إلى النور حين شرفهم الله بأن بعث الله نبيه إليهم من هذا البيت الطاهر الشريف، فهل بعد ذلك من شك في أنّ الحق مع علي، وعلي مع الحق؟

ومن التّشبيهات البليغة بأُسلوب المفعول المطلق التي جاءت على لسان الإمام علي عليه السلام لبيان مقدار المشبه قوله:

١. «يردونه وردَ الأنعام، ويألهون إليه ولَهَ الحمام»[٣٤].

٢. «فأبيتم عليَّ إباءَ المخالفين المنابذين»[٣٥].

٣. «فعطف إليها عطفَ الضروس، وفرش الأرض بالرؤوس»[٣٦].

٤. «فلا تنفروا من الحق نفارَ الصحيح من الأجرب، والبارئ من ذي السقم»[٣٧].

٥. «فكأنكم بالساعة تحدوكم حدوَ الزاجر بشوله»[٣٨].

٦. «وأتوكل على الله توكل الإنابة إليه»[٣٩].

٧. «يفضي كافضاء الديكة، ويؤر بملاقحة أرَّ الفحول المغتلمة في الضراب»[٤٠].

٨. «قوضوا من الدنيا تقويضَ الراحل، وطووها طيَّ المنازل»[٤١].

٩. «وقامت النية مقامَ إصلاتِهِ لسيفه»[٤٢].

١٠. «واعلموا أنّ دار الهجرة قد أقلعت بأهلها، وقلعوا بها، وجاشت جيشَ المرجل»[٤٣].

١١. «ولا تدنُ من القوم دنوَ من يريد أنْ ينشب الحرب، ولا تباعد منهم تباعدَ من يهاب البأس»[٤٤].

١٢. «والفرصة تمر مرَّ السحاب فانتهزوا فرص الخير»[٤٥].

١٣. «فيعيش في الدنيا عيشَ الفقراء، ويحاسب في الآخرة حسابَ الأغنياء»[٤٦].

٢. تقبيح المشبّه والتنفير منه: وذلك حين يراد الذم، أو التحقير لصرف السامع عن أمر عليه اجتنابه، لأنّ في الإقدام عليه أو الإتصاف به ضرراً أو مذمة له.

وهذا الغرض بارز في خطب الإمام علي عليه السلام ووصاياه ورسائله ولا سيما في التحذير من الدنيا ومفاتنها ودعوته للإنصراف عنها، بتقبيح ملذاتها ومغرياتها، أو في تحذيره للناس من التكاسل في أمر من أمور الدنيا والدين، كمقاتلة العدو، أو الإنجرار إلى الفتن أو عصيان أولي الأمر، ساعياً من ذلك كله إلى حثّ الناس على التمسك بدينهم، ونبذ خلافاتهم، والتخلق بخلق الإسلام.

ومن خطبه التي يحذر فيها الناس من الركون إلى الدنيا والارتهان إلى ملاذها والإغترار بنعيمها قوله: «ألا وإنّ هذه الدنيا تتمنونها وترغبون فيها، وأصبحت تغضبكم وترضيكم... وهي وإنْ غرتكم

منها فقد حذّرتكم شرها، فدعوا غرورها لتحذيرها، واطماعها لتخويفها، وسابقوا فيها إلى الدار التي دعيتم لها، وانصرفوا بقلوبكم عنها ولا يختن أحدكم خنينَ الأَمَةِ على ما زُوي عنه منها»[٤٧].

يحاول الإمام عليه السلام قدر ما يستطيع أنْ يقنع الناس أنّ هذه الدنيا فانية، وأنّ ملذاتها زائلة، وإنّما جعلها الله داراً مؤقتة نتزود منها للدار الدائمة حيث الجنة بنعيمها الذي لا يفنى ولا يزول، وهو يدرك جيداً أنّ مهمته صعبة جداً، فالدنيا، بمفاتنها، والحياة، بملذاتها، توقظان غرائز الإنسان وتحفزانه للتمتع بهما، وليس يسيراً أن تطلب من أهلها ترك هذا كله، والقبول بالقليل القليل منها، ولذا نجده يحاول استثمار طاقات اللغة في بلاغة عالية تتمكن من القلوب كي ترسخ فيها هذه المعاني، فكانت الصورة التّشبيهية التي رسمها للمتباكين على الدنيا وقلة حظوظهم منها، ممثلة بالأَمَة التي تبكي فتخن أي تصدر صوت أنينها من أنفها، في صورة قبيحة ومنفرة لهذا البكاء المزعج، ولا شك في أنّ اختيار الإمام للأمة مشبّهاً به دون سواها من النساء يأتي موافقا لا لغرض تقبيح الصورة فحسب، بل لتصوير هؤلاء المتباكين على الدنيا وملذاتها بصورة الأمة، فهم ليسوا عبيداً للذاتهم، رجالاً، وانما أمات، وبذلك نزع منهم أبرز ما يعتز به العربي من صفاته وهي (الرجولة) فهو يريد القول لهم أنّ مقياس الرجولة هو مغالبة النفس وأهوائها، والصبر على الحرمان من الدنيا ومغرياتها، وإلاّ فإن أحدكم إذا ما تباكى على الدنيا وما فاته منها كان كالأمة التي تخنُّ على ما حرمت منه.

كما يلاحظ على العبارة دقة التعبير في قول الإمام (وانصرفوا بقلوبكم عنها) فهو يدرك جيداً أنّ الإنصراف الحقيقي

عن الدنيا وملاذها لا يكون بإشاحة الوجه عنها أو تجاهلها، وإنّما بنزع ذلك من أعماق النفس الإنسانية، أي من القلوب، لأنّها متى تحررت من هواها وأهوائها، تحرر أصحابها من أَسْر الدنيا، وسعوا إلى الآخرة.

ومن هذا ايضاً قوله مخاطباً اتباعه، بعد أنْ عصوا أمره ورضوا بالتحكيم في صفين، مخدوعين بحيلة معاوية وأتباعه، ولم يستمعوا إلى نصيحته وتحذيره، «فأن معصية الناصح الشفيق، العالم المجرب، تورث الحيرة وتعقب الندامة، وقد كنت أمرتُكم في هذه الحكومة أمري ونخلتُ لكم مخزون رأيي، لو كان يطاع لقصير أمر، فأبيتم عليَّ أباء المخالفين الجناةِ، والمنابذين العصاةِ»[٤٨].

فعلى الرغم من علم الإمام عليه السلام بهذه الخديعة التي لجأ إليها معاوية وأصحابه بعد أن تيقنوا من هزيمتهم في صفين، حين رفعوا المصاحف على الرماح طلباً للتحكيم، وعلى الرغم من تحذيره أتباعه من الوقوع في هذا الفخ، إلّا أنّه اضطر إلى أن ينصاع لرأي أتباعه، بعد أنْ رأى منهم مخالفتهم لرأيه وإباءهم الأخذ بمشورته، فكان خروجهم على رأيه خروج العاصي المتمرد، والجاني المتهرب، بما آلم الإمام ألماً عميقاً وهو يرى هذا التمرد وهذا العصيان ممن يفترض بهم طاعته والامتثال لأمره، فأراد أنْ يقول لهم إنّ إباءهم لم يكن مجرد خلاف في الرأي أو تباين في وجهات النظر، وإنّما كان إباء المخالفين الجناة، والمنابذين العصاة، تقبيحاً لهذه المخالفة واستبشاعاً لهذه المنابذة، فكان التّشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق خير وسيلة في ابلاغ معاني الإمام وأحاسيسه إلى من يفترض فيهم أنّهم أتباعه ومطيعوه.

ويلاحظ في كلام الإمام عليه السلام إشارته إلى قصة قصير وتحذيره لمولاه جذيمة الأبرش في عدم الأمن للزباء

ملكة الجزيرة وإجابتها لدعوتها إياه بالزواج منها، إذ قتلته بعد ذلك فذهب قوله «لا يطاع لقصير أمر» مثلاً استعان به الإمام عليه السلام كي يؤكد لأتباعه أنّهم سيندمون على قبولهم التحكيم ندماً كبيراً، ولكن بعد فوات الأوان، وهذا ما كان. ولعلنا لا نغالي إذا ما قلنا إنّ أغلب صور التقبيح التي جاءت على وفق هذا التّشبيه في كلام الإمام علي عليه السلام جاء في وصفه سلوك أصحابه معه في صراعه مع باطل معاوية وأتباعه، فقد خالفوه الرأي في التحكيم، وتقاعسوا عن قتال عدوهم، وصاروا يختلقون الحجج في التهرب من لقائه، ويفرون من دعوة الإمام لقتاله، حتى إنّنا لنحس هذا الألم الممض الذي كان يعانيه الإمام عليه السلام، وما استولى على نفسه من شعور باليأس من الظفر بعدوه، بعد أن خذله أصحابه، حتى بدا عاجزاً، وهو القوي المقتدر، وصوره أعداؤه خائفاً من اللقاء، وهو الشجاع الذي تشهد له سوح القتال بمواقف أقرب إلى الأساطير منها إلى الوقائع الحقيقية، وظهر وكأنه بلا رأي وهو الذي خصه الله بعلم لا يقوى أنْ يحمله سواه من البشر، وإنّما صار إلى ما صار إليه لضعف أتباعه وتفرقهم، وعدم امتثالهم لأوامره ونصائحه، فها هو يصف حال هؤلاء الأتباع في صوره غاية في القبح والكره، حين يدعوهم لقتال أتباع معاوية، ولكنهم يتهربون من اللقاء ويفرون مختبئين في بيوتهم، يقول: «كم أداريكم كما تدارى الكبارُ العُمَدة، والثيابُ المتداعية، كلما حيصت من جانب تهتكت من آخر؟ أكلَّما أطلَّ عليكم مَنْسرٌ من مناسر أهل الشام أغلق كل رجل منكم بابه، وانجحر انجحار الضَّبةِ في جُحرها، والضبع في وجارها»[٤٩].

فالعبارة معبّرة أحسن التعبير عن ألم الإمام عليه السلام مما يراه من أتباعه، فهم عاقون له، جاحدون لفضله عليهم، فبدل أنْ يطيعوه ويداروه، صار هو الذي يداريهم ويرأف بهم، كما يُراعى الجملُ الذي أصيب سنامه من الركوب، ثم يرسم لهم صورة في غاية الدقة لما هم عليه من ضعف وخور، حين شبّههم بالثياب المتهرئة، التي كلما خيطت من جانب تهتكت من جانب آخر، ثم عاد ليرسم لهم صورة في غاية القباحة وهم يتهربون من مقاتلة عدوهم، متخاذلين عن نصرة إمامهم، بل هم متقاعسون حتى عن الدفاع عن أنفسهم وحُرمهم وديارهم، فلا يملك إلا أنْ يقرعهم تقريعاً شديداً، ويستحضر في أذهانهم قباحة فعلهم، وهم يفرون من المواجهة ويسارعون بالاختباء في بيوتهم، وكأنّ في ذلك أمنهم وسلامتهم، وهم في ذلك إنّما يفعلون فعل الضبة حين يطلبها صائدها فتنجحر في جحرها هرباً منه، وفعل الضبع حين تختبئ في وجارها طمعاً في السلامة، وهم يعرفون جيداً لماذا اختار الإمام عليه السلام هذين الحيوانين مشبّها به لفعلتهما هذه، وذلك إنّهما من أنتن الحيوانات وأقذرها، كما أنّ فعلهما هذا لا ينجيهما من صائدهما على الرغم من اختبائهما، لأنّه لا يزال يطلبهما حتى يظفر بهما فيقتلهما، وهكذا هم هؤلاء المتخاذلون، يرون أنّ سلامتهم في الهرب من القتال والاختباء في منازلهم، ولكن الموت ملاقيهم، وشتّان بين الموت يأتي بعز وكرامة في ساحة القتال، وموت يذل به صاحبه ويلحق به وبأهله العار والشنار لأنّه قُتل وهو مختبئ في داره.

وفي واحدة من أجرأ الصور وأشدها دلالة على القبح يحاول الإمام عليه السلام أنْ يبدي لأتباعه المتخاذلين عن نصرته، الفارين من قتال عدوهم، مقدار

ابتذالهم وانحطاط هممهم، في محاولة أخيرة لهزّ هؤلاء الأتباع هزّاً عنيفاً علّه يوقظ في نفوسهم بقية من حمية أو عرقاً من رجولة يقول: «يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها، كلما جُمِعَتْ من جانب تفرقتْ من جانب آخر، والله لكأني بكم فيما إخالُ أن لو حمس الوغى، وحمي الضراب، وقد انفرجتم عن ابن أبي طالب أنفراجَ المرأة عن قُبلها»(٥٠).

فلا شك في أنّ الصورة التي رسمها التّشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق لأنفراج هؤلاء عن الإمام عليه السلام وتخاذلهم أمام عدوهم بقوله (انفرجتم عن ابن أبي طالب أنفراج المرأة عن قُبُلها) صورة في غاية الكراهة والقبح، ولكنها صادقة في التعبير عن دناءة أهل الكوفة وعجزهم عن ملاقاة عدوهم، فهم ليسوا رجالاً يفعلون فعلهم، ولا هم نساء حرائر صائنات لعرضهن وشرفهن، إنّما هم نساء عاهرات لا تملك أحداهن حين يداهمها خطر إلا أنْ تقدم عرضها وشرفها ثمناً لبقائها حية أو سلامتها من الأذى. إنّها صورة معبرة عن ابتلاء الإمام عليه السلام بمن ينصره ويلتف حوله في السلم، فإذا حانت ساعة اللقاء أو اشتدت حمى الوغى تفرقوا عنه، وأباحوا حرماتهم لعدوهم نجاة بأنفسهم.

ويصرح الإمام علي عليه السلام باستقباحه هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني، وكان قد ابتاع سبي بني ناجية من عامل أمير المؤمنين وأعتقه، فلما طالبه بالمال هرب إلى معاوية في الشام، فيقول: «قبّح الله مصقلة فَعَلَ فِعْلَ السادات، وفرَّ فرارَ العبيد، فما أنطق مادحه حتى أسكته، ولا صدَّق واصفه حتى بكّته»(٥١).

فالتّشبيه البليغ بأسلوب المفعول المطلق جاء تعبيراً عن مفارقة كبيرة لفعلين يصدران عن شخص واحد، أحدهما

يدل على نُبل وكرم وهو افتداؤه الأسرى بشرائهم وعتقهم، والآخر يدل على ضعةٍ ودناءةٍ وهو الهرب إلى معسكر الأعداء تهرباً من دفع ما بذمته من مال، ففي الأولى فعلَ فعل السادات وفي الثانية فرّ فرار العبيد، فما كاد مادحه ينطق إشادة به، حتى ألقمه حجراً بهربه المذل، فاستحق من الإمام عليه السلام هذا الاستقباح وهذه الكراهة.

وفي صورة تشبيهية معبرة للإمام عليه السلام يقبّح فيها فعل بني أميةِ، وهم يريدون سرقة تراث النبي صلى الله عليه وآله ويساومون الإمام عليه، يؤكد صلابته في دينه، وثباته على إيمانه، إذ يثور غاضباً لله ولدينه فيقول: «إن بني أمية ليفوّقنني تراثَ محمد صلى الله عليه وآله تفويقا، لانفضنهم نفضَ اللّحامِ الوذامَ التَّربةَ»(٥٢).

والوذام جمع وذمة وهي القطعة من الكرش أو الكبد تقع في التراب فتنفض، ولا شك في أنّ تشبيه بني أمية بقطعة الكرش أو الكبد المرغة بالتراب فيه ما فيه من تقبيح لهم واستهانة بقدرهم، وفيه كذلك تعبير عن الشدة في الأخذ، وقدرة عظيمة من الإمام على نفضهم وهزهم هزاً عنيفاً، كما ينفض القصاب هذه القطعة من اللحم كي ينظفها مما علق بها من تراب، وهكذا سيكون فعل الإمام بهم إذا ما تمادوا في غيهم وظلوا على ضلالتهم.

ومن هذا الباب قوله مخاطباً عمرو بن العاص مقبحاً فعله في متابعته معاوية ومناصرته إياه طمعاً في غنائم تافهة ومكاسب دنيئة، فخسر دنياه وآخرته، يقول: «فإنك قد جعلت دينك تبعاً لدنيا امرئ ظاهرٌ غيُّه، مهتوكٌ سِتْرُهُ، يشين الكريمَ بمجلسه ويسفّه الحليم بخلطته، فاتبعت أثره وطلبت فضله اتباعَ الكلب للضرغام، يلوذ إلى مخالبه، وينتظر ما

يلقي إليه من فضل فريسته فأذهبت دنياك وآخرتك»[٥٣].

ويقيناً أنّ هذه الصورة الرائعة لذل عمرو بن العاص ودناءته في متابعته لمعاوية، قد جسّدت قباحة فعله وخور عزيمته حين ارتضى لنفسه أنْ يأكل ما يفضل من طعام غيره، شأن الكلب الذي لا يقوى على الافتراس فيتابع الأسد متابعة الذليل، كي يلتقط ما فضل من فريسته، يسدّ به رمقه.

وهذه الصورة المعبّرة لا تؤخذ بجزئياتها وإنّما في تشبيهها حالةُ بحالةٍ، فإذا أراد الإمام عليه السلام تشبيه عمرو بن العاص بالكلب وهو مستحق لهذا الوصف، لا يريد تشبيه معاوية بالأسد، لأن أفعاله لا ترقى إلى مكانة هذا الحيوان الذي صار رمزاً للشجاعة والمهابة والعز، أو لعل المراد منه هنا هو قدرته على الافتراس فحسب، وهكذا هو معاوية لا تكاد تلوح غنيمة أو منفعة إلا وأجهز عليها، حلالاً كانت أم حراماً.

إن الصورة التي رسمها التّشبيه البليغ بأسلوب المفعول المطلق «فأتبعت أثره وطلبت فضله إتباع الكلب للضرغام، يلوذ إلى مخالبه، وينتظر ما يلقى إليه من فضل فريسته» أظهرت عمرو بن العاص في أقبح أحواله وقد ارتضى لنفسه.

وقد عجز عن أنْ يكون هو المبادر أو القائد، أنْ يكون تابعاً ذليلاً، نهّازاً للفرص، لا يفعل ما يريد، وإنّما ينتظر من الآخرين أن يفعلوا كي يعتاش على فضلاتهم، فهو (يلوذ بمخالبهم) لأنّه أعجز من أنْ يكون له فعل، فخسر بذلك دنياه وآخرته.

أما دنياه فلأنه لم يحقق ما تمناه أو أراده وإنّما قنع بالقليل الذي يلقيه إليه معاوية، فعاش ذليلاً تابعاً، وأما آخرته فلأنه عرف الحق وانحرف عنه متابعة

للباطل، فلم يحظ بخير الدنيا ولا أمل له في خير الآخرة.

ومن تشبيهات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام البليغة الأخرى التي خرجت لهذا الغرض:

١. «لا يدري أصاب أم أخطأ..... لم يعض على العلم بضرس قاطع، يذري الروايات إذراءَ الريح الهشيم»(٥٤).

٢. «فما يُدرك بكم ثار، ولا يبلغ بكم مرام، دعوتكم إلى نصر أخوانكم فجرجرتم جرجرةَ الجملِ الأسَرِّ، وتثاقلتم تثاقلَ النضوِ الأدبر»(٥٥).

٣. «وكأني أنظر إليكم تكشُّونَ كشيشَ الضِّباب، لا تأخذون حقاً، ولا تمنعون ضيماً»(٥٦).

٤. «أيّها الناس، لو لم تتخاذلوا عن نصر الحق، ولم تهنوا عن توهين الباطل، لم يطمع فيكم من ليس مثلكم، ولم يقو من قوي عليكم، لكنكم تهتم متاهَ بني اسرائيل»(٥٧).

٥. «سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضعَ البرء والسقم وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب»(٥٨).

٦. «فوالله لقد ظهر الحق فكنتَ فيه ضئيلاً شخصك، خفياً صوتك، حتى إذا نعر الباطل نجمتَ نجومَ قرن الماعز»(٥٩).

٧. «أسرعت الكرة، وعاجلت الوثبة، واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم اختطافَ الذئبِ داميةَ المعزى الكسيرة»(٦٠).

٨. «ومَنْ زاغ ساءت عنده الحسنة، وحسنت عنده السيئة، وسكَرَ سُكر الضلالة»(٦١).

٣. بيان حال المشبّه: ويعني هذا أنْ حال المشبّه غير معلومة، أو إنّه غير محدد الصفة، فيأتي التّشبيه لبيان هذا الحال أو تحديد صفته، من خلال المشبّه به لكون صفته أو حاله معلومتين لدى المخاطب،

ولا سيما أنّ المشبّه به في هذا اللون من التّشبيه (المفعول المطلق) يكاد يكون حالاً من فاعل الفعل الذي يمثل المشبّه. ومثال ذلك قول الإمام علي عليه السلام وهو يتكلم على خلق الله سبحانه للسموات والأرض وموجوداتهما أول التكوين: «ثم أنشأ سبحانه ريحاً اعتقَمَ مهبَّها وأدامُ مربَّها، وأعصف مجراها، وأبعد منشأها، فأمرها بتصفيق الماء الزخار، وإثارة موج البحار، فمخضته مخضَ السّقاء، وعصفت به عصفَها بالفضاء»(٦٢).

فقد أراد الإمام أنْ يبيّن لسامعيه حال الكون في أول الخلق، وهو حال نجهله جهلاً تاماً، فكان لابد له من التماس مشبّه به معروف عند سامعيه ألفوا حاله وعرفوا صفته، فصور أمر الله سبحانه للريح كي تصفق الماء وتثير الموج كي تمخضه وتعصف به ليخرج زبده، كي تكون منه سماواته السبع، فشبّه مخضَ الريح لماء البحار بمخض السقاء بما فيه من لبن كي تخرج زبدته، وعصفها به بعصفها بالفضاء الذي لا أجسام فيه، وبذلك تكون في أشد حالات عصفها لعدم وجود مانع يمنعها، أو يحد من سرعتها.

وبذا كان التّشبيهان البليغان بطريقة المفعول المطلق (فمخضته مخض السقاء) و(عصفت به عصفها بالفضاء) خير وسيلة لبيان حال المشبّه المجهول عند السامعين بعد أنْ استحضر في أذهانهم مخض السقاء، وعصف الريح بالفضاء ومقايسة ذلك بعصف الريح بالماء امتثالاً لأمر الله كي يبدع الكون.

ومن كلام له عليه السلام يصف فيه فرح الناس بخلافته، وتزاحمهم على مبايعته زحاماً شديداً، إذ يقول «فتداكّوا عليَّ تداك الأبل الهيم يوم ورودها، قد أرسلها راعيها، وخلعت مثانيها، حتى ظننت انهم قاتلي أو بعضهم قاتلي بعض لديَّ»(٦٣).

فقد أراد الإمام أنْ يذكّر الناس بكيفية مبايعتهم له، وتقاتلهم لتناول يده الشريفة عهداً على الوفاء والمتابعة، ولكنّهم اليوم يخرجون عن طاعته ولا يمتثلون لكلامه في كل ما يأمرهم به، فكان التّشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق (فتداكوا علي تداك الابل يوم ورودها) وسيلته في تذكيرهم بتزاحمهم زحاماً شديداً كما تتزاحم الإبل العطاش يوم ورودها على الماء، وحتى يعظّم هذا التزاحم في شدته وكثرته قال (قد أرسلها راعيها) أي إنّها انطلقت بلا راع يردعها أو يهش عليها، وتأكيداً لهذا المعنى قال (وخلعت مثانيها) أي فكت معاقلها، فلا شيء يحول بينها وبين الماء، فاندفعت، لعطشها الشديد، متزاحمة يدفع بعضها بعضاً كي تصل قبل غيرها إلى الماء وهكذا كان هؤلاء الأتباع في تدافعهم وتكالبهم على المبايعة، حتى ظنّ الإمام أنّهم قاتلوه بتكالبهم وتزاحمهم، أو أنّ بعضهم يقتل بعضاً في حضرته؛ وفي كل ذلك إنّما يعّرض الإمام بأتباعه، ويذكرهم بما كانوا عليه أول البيعة وما أصبحوا عليه اليوم.

وفي حال مشابهة لما تقدم يذكّر الإمام عليه السلام في خطبة له سامعيه، بما كان عليه المسلمون في عهد النبي صلى الله عليه وآله حيث يلتفون حوله يقاتلون آباءهم وأبناءهم وأخوانهم وأعمامهم، دفاعاً عن دينهم ونبيهم، على ما كانوا يشعرون به من ألم وما كانوا يحسونه من غصّة، ولكن ذلك لم يزدهم إلا إيماناً وصبراً على القتال طمعاً بالنصر أو الشهادة حيث يقول واصفاً حال أولئك الأبطال:

«ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان تصاولَ الفحلين، يتخالسان انفسهما أيّهما يسقي صاحبه كأس المنون»[٦٤].

فهذا التّشبيه، شأن كل التّشبيهات السابقة، منتزع من البيئة العربية وموجوداتها، فحين يدبّ العراك بين فحلين من الجمال، وتحتدّ المنازلة ويشتدّ العراك، يبدأ كل فحل بالدوران حول صاحبه يحد النظر إليه ثم يهجم عليه بكل ما أوتي من قوة وعنف، فهذه الصورة التي ألفها السامع العربي، صارت وسيلته لمعرفة حال الفارسين المتقاتلين أحدهما مسلم يدافع عن دينه ونبيه، والآخر مشرك يدافع عن نفسه ومعتقده، يحد أحدهما النظر إلى الآخر كي ينزل الرعب في قلبه فيبادر إلى قتله قبل أنْ يعاجله خصمه بذلك. لقد أسهم التّشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق في بيان حال المسلمين الأوائل في قتالهم الصادق، الشديد الخالص لوجه الله، فكان نصرهم بمشيئته ومباركته، بعد أنْ رأى صدقهم في ذلك، وهو ما أكده الإمام عليه السلام بقوله: «فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت وأنزل علينا النصر».

ويحذر الإمام أتباعه من الفتنة التي دبّت بين المسلمين، وجعلتهم فرقاً، بعد وحدتهم، وأضعفتهم بعد قوتهم، ولذا سماها (ضلالة) فقال: «رأيت ضلالة قد قامت على قطبها، وتفرقت بشُعبها... تعرككم عركَ الأديم، وتدوسكم دوسَ الحصيد، وتستخلص المؤمن من بينكم استخلاصَ الحبةِ البطينة من بين هزيل الحب»[٦٥].

قامت الصورة في هذا المقطع من خطبة الإمام علي تشبيهات بليغة ثلاثة، جاءت كلها بأُسلوب المفعول المطلق (تعرككم عركَ الأديم) و(تدوسكم دوسَ الحصيد) و(تستخلص المؤمن من بينكم استخلاص الحبة البطينة من بين هزيل الحب) وغرضها جميعاً واحد هو بيان حال المشبّه؛ فإذا أراد الإمام من سامعيه أنْ يستشعروا الخطر القادم إليهم ويشركهم

فيما كان يخافه من عواقب هذه الفتنة المضلة للجميع، وكي يجسد في أعينهم ما ستفعله بهم إذ ستفركهم بشدّة وتدوسهم، ثم تطحنهم جميعاً، اختار هذه التّشبيهات الثلاثة المعبرة عما يخشاه الإمام عليه السلام على أمته من عواقب الفتن التي ستحكمهم حتى يعفوا عفاء الجلد المتهرئ، وتدوسهم كما يداس الحصيد كي تتكسر العودان وتزال القشور فيظهر جوهركم، حينها تنبذ الحبة الضعيفة والمصابة وسواها من هزيل الحب، ولا يبقى إلا المؤمن الصادق الإيمان، ولكن هل ينجو هذا بنفسه؟ كلا، فإنّ هذه الفتنة ستستخلص هذه الحبة البطينة لنفسها كي تطحنها برحاها، وبذلك فلا خلاص لأحد من هذه الفتنة القاتلة التي لا تترك أحداً، فالجميع سيقعون صرعى في رحاها التي لا ترحم وبذا كانت الصورة التي رسمها الإمام عليه السلام عِبر تشبيهاته الثلاثة تجسيداً لما سيؤول إليه حال المسلمين، إنْ لم يتنبهوا على الفتنة ودعاتها، ويستمعوا للحق وأهله من الربانيين العارفين بالله وحقه، وهم أهل بيت النبوة عليهم السلام.

وفي خطبته (القاصعة) الطويلة، يتحدث في جانب منها عن أخلاق النبي محمد صلى الله عليه وآله وكيف رباه خالقه فأحسن تربيته، مذكّراً الناس بموضعه هو من رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنه تربى في حجره، يضمه إلى صدره، ويكنفه في فراشه، ويمضغ الشيء ثم يلقمه فمه، ويزيد قائلاً: «ولقد كنت أتبعه إتّباعَ الفصيل أثَرَ أمِّهِ، ليرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به»[٦٦].

وبذا كان الإمام عليه السلام تربية الخالق جلَّ وعلا، فإذ ربى سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله فأحسن تربيته، ربى النبي علياً، فأحسن تربيته،

فكان ربانياً في خَلْقه وخُلُقه، وسيرته شاهدة بذلك.

كان التّشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق، خالق هذه الصورة التي التقطها الإمام عليه السلام من مفردات حياة العرب اليومية، كي يجسد لهم حاله وهو يقتدي برسول الله صلى الله عليه وآله ويتابعه متابعة الظل، وهي صورة (الفصيل) وهو ولد الناقة في متابعة أمّه حيث تسير كي يتعلم منها شؤون حياته اليومية ويسايرها فيما تفعله، وهكذا كان الإمام عليه السلام في اقتدائه برسول الله صلى الله عليه وآله ومتابعته في كل ما يقوله ويفعله، متابعة أرادها الله كي يتشرَّبها الإمام علي ثم تتسرب في بنيه من بعده، فيبقى الدين عزيزاً وعظيماً، كما أنزله الله على نبيه.

وفي كلام للإمام عليه السلام يتحدث فيه عن حادثته المشهورة مع أخيه عقيل، حين شكى له سوء حال عياله، وكان الإمام عليه السلام قد رأى ذلك بنفسه، فاستماحه صاعاً من القمح كي يطعمهم، نجد هذا الموقف الثابت للإمام في خشية الله سبحانه، وعدم التفريط بأموال المسلمين، حتى لأقرب الناس إليه وهو يرى حاجاتهم وعوزهم، يقول: «والله لقد رأيت عقيلاً، وقد أملق حتى استماحني منْ بُرِّكم صاعاً... فأصغيت إليه سمعي فظن أني ابيعه ديني، واتَّبع قياده، مفارقاً طريقتي، فأحميت له حديدة، ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها، فضجَّ ضجيجَ ذي دَنَفٍ من ألمها، وكاد أن يحترق من ميسمها. فقلت له: ثكلتك الثواكلُ يا عقيل، أتئن من حديدة أحماها إنسانها لِلَعِبه، وتجّرني إلى نارٍ سجرها جبارُها لغضبه»[٦٧].

أيُّ إيمان هذا، يملأ القلب حتى لا يدع فيه مجالاً لأدنى الأدناء، وأيّه خشية هذه، تكتنف العقل فتجعله مرتهنا لله سبحانه في كل خطوة يخطوها، إنّه الإمام

علي وحده الذي استولى عليه حب الله، وباع روحه وحياته ثمناً لرضاه، ولا قيمة لزعل الخلق وانفضاضهم عنه لما يفعل ما دام ما يفعله حقاً من حقوق الله، وفي القيام به رضاه عنه.

لقد رقَّ الإمام عليه السلام لكلام أخيه، وهو صادق فيما قاله عن عياله، فقد رأى الإمام عليه السلام ذلك بنفسه، وربما كان لعقيل وعياله حقّ فيما سألوا الإمام، ولكن خشية الله أحق، وكي يوقع الإمام هذه الخشية في نفس أخيه قام ما قام به، فكانت ردة فعل عقيل أنْ (ضج ضجيجَ ذي دنف) أي صاح صيحة المريض الذي اشتدّ به الألم، والحديدة المحمية لم تلامس جسده بعد، وإنّما دنت منه فحسب، فكان سؤال الإمام الرائع المفحم لعقيل، ولكل من يعرف هذا الخبر: هذا رد فعلك لنار بسيطة أشعلها بشر للهوه، فكيف بنار الخالق العظيمة التي أوقدها لغضبه؟ ومن التّشبيهات البليغة بأُسلوب المفعول المطلق التي جاءت بياناً لحال المشبّه في كتاب نهج البلاغة قول الإمام:

١. «انظروا إلى الدنيا نظرَ الزاهدين فيها، والصادفين عنها»[٦٨].

٢. «فلقد فلق لكم الأمر فلقَ الخرزة، وقرفه قرف الصمغة»[٦٩].

٣. «وصال الدهر صيالَ السبع العقور»[٧٠].

٤. «وهامت دوابُنا وتحيرت في مرابطها، وعجت عجيج الثكالى على أولادها»[٧١].

٥. «ثم أخرجُ في كتيبة أتبع أخرى، أتقلقل تَقَلْقُلَ القِدحِ في الجفير الفارغ»[٧٢].

٦. «فأقبلتم إقبال العوذ المطافيل على أولادها، تقولون: البيعة البيعة»[٧٣].

٧. «وانتظرنا الغيرَ انتظارَ المجدبِ المطرَ»[٧٤].

٨. «يمشي مشيَ المرح المختال»[٧٥].

٩. «ونستعين به استعانةَ راجٍ لفضله... مؤمل لنفعه»[٧٦].

١٠. «ثم تداككتم عليَّ تداكَ الأبل على حياضها يوم ورودها»[٧٧].

١١. «واختار من خلقه سُمّاعاً أجابو إليه دعوته، وصدقوا كلمته، ووقفوا مواقفَ انبيائه»[٧٨].

٤. تقرير حال المشبّه، وتمكينه في ذهن السامع، وذلك بإبراز المشبّه في صورة أقوى وأوضح من خلال مشبّه به قريب إلى نفس السامع ومما أحسه وعرف حاله، فيزيد المشبّه بذلك وضوحاً ورسوخاً في النفس. وفي هذا الغرض كان التّشبيه في قوله مخاطباً أصحابه الذين أتعبوه في تمردهم على طاعته وعصيانهم لأوامره، حتى بدا عاجزاً وهو القوي، وساكتاً وهو الحق، فيما صار معاوية مقتدراً، وهو الضعيف، وصائلاً وهو الباطل، لا لشيء، سوى طاعة اتباع هذا له طاعة عمياء، وتوحدهم حوله، واختلاف أتباع الإمام، وخروجهم عن أوامره... يقول: «أيتها النفوس المختلفة، والقلوب المشتتة، الشاهدة أبدانهم، والغائبة عنهم عقولهم، أظأركم على الحق، وأنتم تنفرون عنه نفورَ المعزى من وعوعة الأسد، هيهات أن أطلع بكم سرار العدل، أو أقيم أعوجاج الحق»[٧٩].

واضح من كلام الإمام عليه السلام شقاؤه بأصحابه الذين خذلوه في كل ما كان يدعوهم إليه، حتى صار عاجزاً عن إقامة العدل، أو تقويم اعوجاج الحق، فهو كلّما (أظأرهم) أي عطفهم على الحق ودلّهم عليه، نفروا منه، ولكي يقرر في نفوسهم مقدار هذا النفور في شدته وسرعته، شبّهه تشبيهاً بليغاً بأُسلوب المفعول المطلق بنفور المعزى عند سماعها زئير الأسد، فهم فزعون من الحق، خائفون من دعوته، وكأنّ فيه هلاكهم، متيقنون من موتهم، يقين

المعزى بهلاكها حين ترى الأسد مائلاً أمامها يزمجر تهيؤاً لافتراسها، إنّها صورة مؤلمة بكل ما فيها ليس في هؤلاء الأتباع الذين عصوا الإمام فحسب، بل في غياب عقولهم حين يخافون الحق هذا الخوف، فلم يعد أحدهم رجلاً، بل صار معزة يطير قلبها لمجرد سماعها زئير الأسد، وبذا كانت صورة الإمام - على ما تحمله من سخرية وتقريع - مجسدة لفزع هؤلاء الأتباع ومقدار خشيتهم من نداء الحق، ولا غرابة فقد قال الخالق سبحانه: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾[٨٠].

وفي موقف مناقض لما تقدّم، يرسم لنا الإمام في خطبة له صورة للمتقين، الصادقين في إيمانهم، الذين اشتروا آخرتهم بدنياهم، ويصف حالهم في الليل، وهم يمضونه في الصلاة وتلاوة القرآن «وأما النهارُ فحلماء علماء ابرار أتقياء، قد براهم الخوفُ بريَ القداحِ، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، وما بالقوم من مرض»[٨١].

فهؤلاء المؤمنون يخشون الله خشية عظيمة، وهذه الخشية جعلتهم يهجرون الحياة وملذاتها، وينصرفون للعبادة والتقوى، وهكذا ضعفت أجسادهم، بعد أنْ براها خوف الله بري السهام التي تنحت بحجر الثقاف حتى تستوي ملساء، مستقيمة، نحيفة، رقيقة، إذا وقع عليهم نظر الناظر حسبهم مرضى، وما هم مرضى، ولكن زهدهم بحياتهم، واستكثارهم من التعبّد، جعلهم كذلك.

وبذا قرّر الإمام واحدة من صفات الأتقياء، الصادقين في إيمانهم، العاكفين على صلاتهم المكثرين من قراءة القرآن، وهي نحافة أجسامهم وبريها بري السهام الرقيقة، فكانت صورته التّشبيهية عبر التّشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق (قد براهم الخوف بري القداح) وسيلته البليغة في تقرير هذه الصفة في نفس الذي

سأله من أصحابه، أنْ يصف له المتقين حتى كأنه ينظر إليهم.

وفي موضوعه الأثير الذي كان الإمام دائم الكلام عليه، والوعظ به، وهو تحذير الناس من الاغترار بالدنيا، والانقياد لمباهجها، نجده يستعمل هذا اللون من التّشبيه لتقرير حال هذه الدنيا في تغيرها وتقلب أحوالها بأهلها.

فيشبهها بالسفينة التي تسير في عرض البحر والبحرُ هادئٌ رهوٌ، ومن عليها فرح مطمئن.

ولكن سرعان ما تهب الريح لتعصف بها فتميد بمن عليها، وتنقلب لتُغرق كل من فيها، يقول: «وأحذركم الدنيا، فإنها دار شخوص، ومحلة تنغيص، ساكنها ظاعن، وقاطنها بائن، تميدُ بأهلها ميدانَ السفينة تقصفها العواصف في لجج البحار، فمنهم الغَرِقُ الوبق، ومنهم الناجي على بطون الأمواج تحفزه الرياحُ بأذيالها، وتحمله على أهوالها، فما غرق منها فليس بمستدرك، وما نجا منها فإلى مهلك»[٨٢].

إنّها صورة مخيفة للدنيا، تجعلنا نحن السامعين نرى أنفسنا في لجة البحر وقد انقلبت بنا السفينة وتشتّت الناس بين غارق هالك، وناج يحاول أنْ يقاوم الموج كي يدرك الساحل، وآخر متشبث بما بقي من السفينة علّه ينجو، ولكن لا نجاة لأي منا فالموت محتوم وهو نهاية كل حي، ولعل سبب هذه القسوة في الوصف والرعب الذي تخلفه هذه الصورة فينا، هو أنّ الإمام يدرك جيداً أنّ الدنيا مغرية لأهلها بملذاتها، والنفس الإنسانية مجبولة على حب الراحة والدعة، وتميل إلى ما يسعدها ويبهجها، وبذا فإن مهمة الإمام ليست يسيرة وهو يحاول أن يصرف الناس عن هذا كله، ويقنعهم أنّه إلى زوال، وأنّ عليهم أنْ يصرفوا أنظارهم عنه، ويشخصوا بأبصارهم إلى آخرتهم، لأنها الدار

الدائمة، والمحلة الباقية، نعيمها خالد، وسعادتها لا تزول، وبذا لابد له من أنْ يستجمع بلاغته وخياله وما آتاه الله من علم، كي يقرر في نفوس سامعيه حال هذه الدنيا في تذبذبها وزوالها.

وهو ما تأتى له عبر التّشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق (تميد بأهلها ميدان السفينة تقصفها العواصف في لجج البحار) ثم يمضي بعد ذلك في رواية مصير هؤلاء الركاب وهلاكهم، وهو في حقيقة الأمر إنما يقرر في نفوس الناس حالهم في هذه الدنيا.

ويكرّر هذا المعنى في صورة تشبيهية أخرى لا تقل جمالاً وتأثيراً من سابقتها، فيقول: «وأحذركم الدنيا، فإنها منزلُ قلْعة، وليست بدار نُجْعَة، قد تزينت بغرورها، وغرّت بزينتها... خيرها زهيد، وشرُّها عتيد، وجَمْعُها يَنْفَد، ومُلْكُها يُسْلب، وعامرها يخَّرب، فما خير دار تُنْقضُ نقضَ البناء؟ وعُمُرٍ يفنى فيها فناءَ الزاد، ومدة تنقطع انقطاعَ السير»(٨٣).

فالتّشبيهات البليغة الثلاثة (تنقض نقضَ البناء) و(عمر يفنى فيها فناءَ الزاد) و(مدة تنقطع انقطاعَ السير) كلها جاءت بأُسلوب المفعول المطلق، كي تقرر معنى واحداً يريد الإمام أنْ يثبته في نفوس سامعيه، هو أنّ هذه الحياة الدنيا فانية، وإنّ حياتنا فيها مهما امتدت سنواتها فإنّها قصيرة، لا تكاد تذكر إذا ما قيست بالحياة الآخرة التي جعلها الله خالدة بكل نعيمها وملذاتها، أما هذه الدنيا فكل شيء فيها إلى زوال، وكي يُقنع الإمام الناس بما يقول صوّر لهم هذه الحياة بصورة البناء الجميل الرائع الذي يبهرنا ويخطف أبصارنا، ولكن سرعان ما ينقض ليعود ركاماً من أحجار وتراب، ولا جمال فيه، ولا قيمة له، وهذا العمر الذي نحياه مصيره إلى نفاد وانتهاء لأنّنا نأكل منه كل يوم شأن زاد المسافر الذي يتناقص يوماً

بعد يوم حتى ينتهي، وهذه المدة التي تمثل حياتنا، مصيرُها إلى انقطاع كالسير الذي ينقطع بك فجأة فلا تستطيع بعدها حراكاً، إنّها صور ثلاث متلاحقة يكمّل بعضها بعضاً كي يقرر للناس حال الدنيا بل حالهم هم فيها، علّهم يغفلون عنها وعن مغرياتها فهي ساس كل بلاء، والداء الذي ليس له دواء، سوى التذكير بسرعة فنائها وزوالها.

ويميز الإمام علي عليه السلام بفكره الثاقب، وعلمه العظيم، بين علم أهل بيت النبوة، وهم العلماء الحق، لأنّهم ربانيون في هذا العلم، وأدعياء العلم، ممن عرفوا منه شيئا وغابت عنهم أشياء، الذين حفظوا العلم ولكن لم يعقلوه، مشيراً إلى كثرة هؤلاء، وقلة أولئك، ولكن شتان ما بين الفريقين، يقول واصفا أهل بيت النبوة: «هم دعائم الاسلام، وولائج الاعتصام، بهم عاد الحق إلى نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه من منبته، عقلوا الدين عقلَ وعاية ورعاية، لا عقلَ سماعٍ ورواية، فإن رواة العلم كثيرٌ، ورعاته قليلٌ»[٨٤].

فهذا التمييز الدقيق الذي أقامه الإمام عليه السلام بين رعاة العلم ورواته، هي معضلة زماننا هذا، كما كانت معضلة زمن الإمام، ولعلّها سبب كل ما نعيش فيه من فوضى في كثير من جوانب حياتنا اليوم، هو هؤلاء الذين تصدّروا مجالس الوعظ والفتيا، وهم ليسوا أهلاً لذلك لأنّ حفظ الشرائع، وترديد الأحكام، لا يغني الحياة، ولا يجعل الدين مواكباً لمسيرة الإنسان، إنّما الطريق الصحيح هو تحكيم العقل، لوعي الدين وعياً حقيقياً، أي استخلاص جوهره، وتشذيبه من كل ما علق به من قشور زائفة حجبت هذا الجوهر المكنون، وهذا موقوف على أهل بيت النبوة، فهم رعاة هذا الدين ووعاته، فهموه حق فهمه، ورعوه حق رعايته، لذا

لا نجد عندهم اختلافاً فيه، ولا حياداً عنه، ظاهرهم كباطنهم، وصمتهم كنطقهم، منهم يؤخذ الدين الحق، وبهم يقتدى، فكل علم إليهم مرجعه.

لقد استطاع الإمام بكلام موجز، ومن خلال التّشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق، أنْ يقرر كل هذه المعاني بقوله: «عقلوا الدين عقلَ وعاية ورعاية، لا عقل سماع ورواية»، فكان كلاماً في غاية الإيجاز ولكنّه ضمّ بين دفتيه معاني كبيرة تؤلف فيها الكتب. ومن صور الإمام التّشبيهية الأخرى التي خرجت لتقرير حال المشبّه من خلال التّشبيه البليغ المفعول المطلق:

١. «والذي بعثه بالحق لَتبَلْبلنَ بلبلةً، ولتَغربَلُنَّ غربلةً ولتساطن سَوْطَ القِدْر، حتى يعودَ أسفلُكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم»[٨٥].

٢. «كأنّي بكِ يا كوفةُ تُمدِّين مَدَّ الأديم العاكاظي، تعركين بالنوازل، وتركبين بالزلازل، واني لأعلم أنّه ما أراد بك جبّار سوءاً إلا ابتلاه الله بشاغل، ورماه بقاتل»[٨٦].

٣. «فاتقوا الله تقيةَ ذي لبٍّ شغل التفكرُ قلبه، وأنصب الخوف بدنه»[٨٧].

٤. «ونؤمن به إيمان من عاين الغيوب، ووقف على الموعود»[٨٨].

٥. «بين أهل محلة مُوحِشين، وأهل فراغٍ متشاغلين، لا يستأنسون بالأوطان ولا يتواصلون تواصلَ الجيران»[٨٩].

٦. «فإنك مترفٌ قد أخذ الشيطانُ منك مأخذَه، وبلغ فيك أملَه، وجرى منك مجرى الروح والدم»[٩٠].

٧. «جعل الله ما كان من شكواك حَطّاً لسيئاتك، فإنّ المرض لا أجرَ فيه ولكنه يحط السيئات ويحتُّها حتَّ الأوراق»[٩١].

٨. «اعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقلَ رعايةٍ لا عقل رواية، فإن رواه العلم كثير، ورعاتُه قليل»[٩٢].

٥. تزيين المشبّه ومدحه، للترغيب فيه، وحثّ الناس على الاتصاف بصفاته، وذلك بذكر مشبّه به تستحسنه النفوس، أجمعت العقول على فضله، وعرف الناس محاسنه فرغبوا فيه، فتجرى موازنة ومقايسة بينهما، تميل بعدها النفوس إلى المشبّه، وترغب العقول بالتحلي بصفاته.

ولعل هذا الغرض من أغراض التّشبيه هو الأقل وروداً في كتاب نهج البلاغة، ذلك أنّه في جملته، هو كتاب في الوعظ والتزهيد في الحياة الدنيا والإعراض عن مفاتنها والتذكير بأنّها فانية ومباهجها زائلة، والتمسك بأهداب الدين للنجاة بالنفس مما قد ينتظرها من عذاب الآخرة، ولذا كان المدح والتزيين غرضاً قليل الظهور فيما أثر من خطب الإمام عليه السلام وكتبه ووصاياه.

ومن هذا الغرض قوله في وصف الحج، وتحبيبه إلى الناس، وحثّهم عليه «وفرض عليكم حج بيته الحرام، الذي جعله قبلة الأنام، يردونه وورودَ الأنعام، ويألهون إليه وُلُوهَ الحمام»(٩٣).

فقد أراد الإمام علي عليه السلام أنْ يزين الحج في نفوس سامعيه ويصور الناس وهم يقدمون إلى الكعبة، هاربين من الدنيا وشرورها إلى حيث بيت الله الحرام كي تستقر النفوس وتسكن، وتلقي بأعبائها في فنائه فتستريح، فهي عطشى لهذا اللقاء، تأتيه متلهفة ضامئة له، شأن الأنعام التي ترد مناهل الماء العذب كي تطفئ ظمأها منه؛ فالناس في كل زمان محتاجون للشعور بالأمان والسلام.

فهم يريدون أنْ يتحرروا من أسر هذه الدنيا والهرب من شرورها، وليس أبرَّ من بيت الله ملاذاً يلجأون إليه، فيجدون فيه راحتهم فهم (يألهون) أي يفزعون إليه ويلوذون به، كما تلوذ الحمائم إلى أعشاشها ومواطن سكنها.

وفي خطبة أخرى يستذكر الإمام عليه السلام الرعيل الأول من المسلمين، ويحبب لنا صورتهم، وهم يتهافتون إلى الموت تهافت الفراش على النور دفاعاً عن دينهم، وذباً عن نبيهم، بعد أنْ عرفوا الإسلام فوعوه، وقرأوا القرآن فأحكموه؛ فيقول في حسرة واضحة: «أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرأوا القرآن فأحكموه، وهيجوا إلى القتال فولهوا وَلَهَ اللقاحِ إلى أولادها، وسلبوا السيوف أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً وصفاً صفاً»[٩٤].

فالإمام يستذكر بألم تلك الثلّة من المسلمين الأوائل، وصدق إيمانهم حين ينطلقون للقتال فرحين مستبشرين، لا يبشرون بالأحياء ولا يعزون بالشهداء؛ لأنّ الشهادة كانت غايتهم ورضا الله مناهم، فيما يقارن حالهم بحال اتباعه من حوله الذين يستسهلون طريق الشيطان، فيحلون عقدة الإيمان، حتى صار أحدهم إذا دعي للقتال دفاعاً عن الحق أخذته الرجفة وحاصت عيناه بحثاً عن مهرب.

أما أولئك المسلمون الحق فها هي صورتهم حبيبة إلى النفوس، قريبة من القلوب، فهم لصدق إيمانهم وثبات عقيدتهم وحبهم لرسول الله صلى الله عليه وآله يفزعون إلى الموت فزع الناقة التي كانت قد فارقت أولادها وعادت اليهم مشتاقة ولهة.

فكان التّشبيه البليغ بأسلوب المفعول المطلق وسيلة ناجحة في رسم مثال جميل وصورة محببة لأولئك المسلمين الأوائل، علّ هؤلاء يقتدون بهم.

وفي واحدة من عظاته المأثورة التي توجه بها إلى صاحبه الأشعث بن قيس معزياً إياه بولد له، وحاثاً إياه على الصبر والسلو، يقول: «إن صبرتَ صبرتَ صبرَ الأكارم، وإلاّ سلوتَ سلوَ البهائم»[٩٥].

لقد جمع الإمام في وصيته هذه، غرضين أولهما التحبيب والتزيين وثانيهما التقبيح والتكريه، فهو يذكّر الأشعث أنّ المصيبة مهما عظمت لا بدّ لها من أنْ تخف بمرور الأيام، فيسلو الإنسان وتهدأ نفسه ولكن الفرق كبير بين من يحمل نفسه على الصبر احتساباً وإيماناً، ومن تجبره الأيام عليه، فيسلو سلو البهائم، فصبر الإنسان على قضاء الله وقدره من كريم الشيم، ولذا حثّ الإمام عليه، فيما حذّر من السلو الذي تأتي به الأيام لأنّ شأن الإنسان فيه شأن الحيوانات التي تتناسى ما يمر بها من مصائب أو آلام.

ونجد غرض التحبيب واضحاً في كلام للإمام وهو يصف لأصحابه ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله من بساطة في العيش وتواضع في السلوك، فيقول: «ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم، يأكل على الأرض، ويجلس جلسةَ العبد، ويخصف بيده نعلَهُ، ويرقع بيده ثوبَهُ، ويركب الحمارَ العاري، ويُرْدِفُ خَلْفَه... فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها من نفسه»[٩٦].

فهو صوّر ما كان عليه النبي صلى الله عليه وآله من تواضع، وما كان يتصرف به من شؤون حياته اليومية، كواحد من أبسط الناس، لا لشيء إلا لأنه طلق الدنيا وزينتها، وأمات ذكرها من قلبه، كي يعلمنا كيفية الاقتداء به والحذو حذوه، وبذا لم تكن صورة الإمام إلا صورة واقعية استمدت كل عناصرها من أحداث يومية عايشها كثير من الصحابة، ورأوها بأعينهم، وإنّما أوردها الإمام هنا للتذكير والدعوة للاقتداء بما كان عليه سيد الخلق من بساطة وتواضع، ولعلّ في قول الإمام عبر التّشبيه بأُسلوب المفعول المطلق (ويجلس جلسة العبد) ما يؤكد هذه المعاني فقد خصّ العبد دون سواه من

الناس، كي يستحضر معاني الخشوع والبساطة والتذلل لله، فإذا كان هذا حاله وهو سيد الخلق، ومن غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف تراها تكون جلستنا نحن المحمّلين بالذنوب، السائلين المغفرة، والساعين لرضا الله، أنها صورة تحثّ الجميع على الاقتداء بسلوك رسول الله وأسلوب حياته، كي نتقرب من الله، ونكسب عفوه وغفرانه بمحاولة الاقتداء بسنة رسوله صلى الله عليه وآله.

(١) الإسراء: ٨٨.
(٢) هود: ١٣.
(٣) البقرة: ٢٣.
(٤) يونس: ٣٨.
(٥) النكت في إعجاز القرآن/ ٧٢. وقال الجاحظ كلاماً قريباً من هذا وهو يقف عند مقولة الإمام هذه. ينظر البيان والتبيين: ٨٣/١.
(٦) نهج البلاغة: ٣٦/١.
(٧) ينظر كتابنا: ألوان من التّشبيه في الشعر العربي / ٥٩ -٦٢.
(٨) نهج البلاغة: ٥٨/٢.
(٩) المستدرك على الصحيحين: ١٣٧/٣.
(١٠) نهج البلاغة: ٢٢/٢.
(١١) م.ن: ٦٣/١.
(١٢) م.ن: ١٥٥/٢.
(١٣) م.ن: ٥٧/٢.
(١٤) م.ن: ١٦٢/٢.
(١٥) م.ن: ١٢٢/١.
(١٦) م.ن: ٧٣/١ -٧٤.
(١٧) م.ن: ٤٨/١.
(١٨) م.ن: ٩٦/١.
(١٩) م.ن: ٢١٣/٣.
(٢٠) النمل: ٨١.
(٢١) الواقعة: ٥٥.
(٢٢) محمد: ٢٠.
(٢٣) القمر: ٤٢.
(٢٤) شرح ديوان امرئ القيس/ ١٤٠.
(٢٥) ينظر كتابنا: النقد البلاغي عند العرب: ٣٦٤ -٣٨٩.
(٢٦) العرف الطيب/ ٦٠٠.
(٢٧) علم أساليب البيان/ ١٨٦.
(٢٨) نهج البلاغة: ١٨٩/١.
(٢٩) م.ن: ٣٦/١.
(٣٠) م.ن: ٩٧/١ -٩٨.

(٣١) م.ن : ١٧٣/٢.
(٣٢) م.ن : ٢٠٤/٢.
(٣٣) م.ن: ٧٩/١.
(٣٤) م.ن: ٢١/١.
(٣٥) م.ن: ٨٣/١.
(٣٦) م.ن: ٣٠/٢.
(٣٧) م.ن: ٤٣/٢.
(٣٨) م.ن: ٦٦/٢.
(٣٩) م.ن: ٧٨/٢.
(٤٠) م.ن: ٨٨/٢.
(٤١) م.ن: ١١٠/٢.
(٤٢) م.ن: ١٥٦/٢.
(٤٣) م.ن: ٣/٣.
(٤٤) م.ن: ١٥/٣.
(٤٥) م.ن: ١٥٥/٣.
(٤٦) م.ن: ١٨٠/٣.
(٤٧) م.ن : ١٠٦/٢.
(٤٨) م.ن : ٨١/١.
(٤٩) م.ن : ١١٣/١.
(٥٠) م.ن : ١٨٩/١.
(٥١) م.ن : ٩١/١.
(٥٢) م.ن : ١٢٣/١.
(٥٣) م.ن : ٧١/٣.
(٥٤) م.ن: ٤٩/١.
(٥٥) م.ن: ٨٦/١.
(٥٦) م.ن: ٤/٢.
(٥٧) م.ن: ٩٦/٢.
(٥٨) م.ن: ١١/٢.
(٥٩) م.ن: ١٣٧/٢.
(٦٠) م.ن: ١٥٨/٣.
(٦١) م.ن: ١٥٨/٣.
(٦٢) م.ن : ١١/١.
(٦٣) م.ن : ٩٩/١ وقد كرر الإمام عليه السلام وصف هذا الموقف في خطبة أخرى ينظر م.ن : ٢٤٩/٢.
(٦٤) م.ن : ١٠٠/١.
(٦٥) م.ن : ٢٠٧/١ - ٢٠٨.
(٦٦) م.ن : ١٨٢/٢.
(٦٧) م.ن : ٢٤٣/٢ - ٢٤٤.
(٦٨) م.ن: ١٩٧/١.
(٦٩) م.ن: ٢٠٨/١.
(٧٠) م.ن: ٢٠٨/١.
(٧١) م.ن: ٢٢٥/١.
(٧٢) م.ن: ٢٣١/١.
(٧٣) م.ن: ٢٨/٢.
(٧٤) م.ن: ٥٤/٢.

(٧٥) م.ن: ٢/ ٩٠.

(٧٦) م.ن: ٢/ ١٢٥.

(٧٧) م.ن: ٢/ ١٤٩.

(٧٨) م.ن: ١/ ٢١.

(٧٩) م.ن : ٢/ ١٨.

(٨٠) المؤمنون: ٧٠.

(٨١) م.ن : ٢/ ١٨٧.

(٨٢) م.ن : ٢/ ١٩٥ - ١٩٦.

(٨٣) م.ن : ١/ ٢٢٠ - ٢٢١.

(٨٤) م.ن : ٢/ ٢٦٠ وكرر هذا التّشبيه في موضع آخر من النهج ينظر: ٣/ ١٧٢.

(٨٥) م.ن: ١/ ٤٣.

(٨٦) م.ن: ١/ ٩٢ -٩٣.

(٨٧) م.ن: ١/ ١٣٨.

(٨٨) م.ن: ١/ ٢٢٢.

(٨٩) م.ن: ٢/ ٢٤٧.

(٩٠) م.ن: ٣/ ١٢.

(٩١) م.ن: ٣/ ١٦٢.

(٩٢) م.ن: ٣/ ١٧١.

(٩٣) م.ن : ١/ ٢١.

(٩٤) م.ن : ١/ ٢٣٤.

(٩٥) م.ن : ٣/ ٢٥٢.

(٩٦) م.ن : ٢/ ٧٤ - ٧٥.

المصادر والمراجع:

١ - القرآن الكريم

٢ - ألوان من التّشبيه في الشعر العربي / أ. د. عبد الهادي خضير نيشان، دار الفراهيدي للنشر والتوزيع بغداد، الطبعة الاولى ٢٠١٠.

٣ - البيان والتبيين/ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي - القاهرة الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

٤ - شرح ديوان امرئ القيس ومعه اخبار المراقسة واشعارهم، تأليف حسن السندوبي، مطبعة الاستقامة بالقاهرة.

٥ - العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب / الشيخ نصيف اليازجي، صوب نصوصه وضبطها وقدم له الدكتور عمر فاروق الطباع، شركة دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

٦ - علم اساليب البيان / الدكتور غازي يموت، دار الأصالة للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الاولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م بيروت.

٧ - المستدرك على الصحيحين / الحاكم النيسابوري، ابو عبد الله محمد بن عبد الله ، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٨ - النقد البلاغي عند العرب إلى نهاية القرن السابع للهجرة/أ. د. عبد الهادي خضير نيشان، دار الفراهيدي للنشر والتوزيع - بغداد الطبعة الاولى ٢٠١٣م.

٩ - النكت في اعجاز القرآن/ الرّمّاني، ضمن كتاب "ثلاث رسائل في اعجاز القرآن "حققها وعلق عليها محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول عبد السلام، دار المعارف بمصر.

١٠ - نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام شرح الإمام محمد عبده / تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة الاستقامة.

قال أمير المؤمنين عليه السلام

أأقنع من نفسي أن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر

نهج البلاغة- تحقيق صبحي الصالح : ص ٤١٨

منهج أمير المؤمنين عليه السلام
في معالجة الفساد المالي

أ. د. حسين علي الشرهاني

جامعة ذي قار/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

تعدُّ ظاهرة الفساد المالي إحدى المظاهر السلبية التي برزت في الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كنتيجة طبيعية لاتساع الدولة الإسلامية وتدفق كمية كبيرة من الأموال إلى خزائنها. وقد حاول عمر بن الخطاب إيجاد حل لهذه المشكلة لكن الحلول التي وضعها كانت منقوصة ولم تسهم في حلها بل زادت من تعقيدها، ثم ازداد الأمر سوءاً بعد أن تولى عثمان بن عفان الخلافة وشرع في تولية أفراد الأسرة الأموية على الولايات الإسلامية.

المقدمة

تعدُّ ظاهرة الفساد المالي إحدى المظاهر السلبية التي برزت في الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كنتيجة طبيعية لاتساع الدولة الإسلامية وتدفق كمية كبيرة من الأموال إلى خزائنها.

وقد حاول عمر بن الخطاب إيجاد حل لهذه المشكلة لكن الحلول التي وضعها كانت منقوصة ولم تسهم في حلها بل زادت من تعقيدها، ثم ازداد الأمر سوءاً بعد أن تولى عثمان بن عفان الخلافة وشرع في تولية أفراد الأسرة الأموية على الولايات الإسلامية، فبدأ هؤلاء بالتجاوز على المسلمين وعلى أموال الدولة الإسلامية ولم يستطع عثمان كبح جماحهم، بل تضامن معهم فانتهى الأمر بثورة عمّت الولايات الإسلامية الكبرى وانتهت بقتل عثمان بن عفان.

بعدها لجأ المسلمون إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام؛ ليضع حلولاً لما تعانيه الدولة الإسلامية من ظلم وتفاوت طبقي واستئثار بأموالها، فشرع في اليوم الأول لتسنمه الحكم في إيجاد حلول ناجعة للمشكلات التي تعاني منها الدولة الإسلامية، فألغى التفاوت الطبقي في العطاء وبعدها غيّر الكادر الإداري الذي يدير الولايات الإسلامية من أجل القضاء على ظاهرة الفساد المالي، واستند الإمام علي عليه السلام في سياسة التغيير التي انتهجها على إيجاد كادر إداري كفوء ولديه خبرة في الأعمال الإدارية والاقتصادية ملتزم بتعاليم الإسلام، كما اشترط أن ينماز الولاة والعمال بمجموعة من الصفات إلى جانب الخبرة والكفاءة حتى يسند إليهم العمل الإداري منها الحياء والورع والتقوى والانتساب إلى البيوتات الصالحة وغير ذلك من الصفات.

وعلى الرغم من دقة اختيار هؤلاء الولاة والعمال وثقته بهم، وضع نظام رقابي دقيق من أجل متابعة عمل هؤلاء الموظفين والحيلولة دون تجاوزهم على المسلمين أو أموال الدولة، وفي الحالات التي حدثت فيها تجاوزات فردية سرعان ما يجد لها الإمام عليه السلام حلاً سواء بعزل العامل أو معاقبته؛ فكانت نتيجة هذه الإصلاحات أن استطاع الإمام علي عليه السلام خلال المدة القليلة التي حكم فيها الدولة الإسلامية أن يقضي على ظاهرة الفساد المالي، ويضبط هذه الدولة المترامية الأطراف بوساطة نظام إداري متكامل قائم على حسن الاختيار والرقابة الشديدة.

برزت ظاهرة الفساد المالي بصورة واضحة في عهد عمر بن الخطاب الذي شهد عهده بداية الفتوحات الإسلامية في العراق والشام ومصر وغيرها من المناطق، ورافق هذه الفتوحات تدفّق الأموال إلى بيت مال المسلمين بصورة كبيرة لم يألفها المسلمون طيلة المدة السابقة؛ فتبع ذلك تجاوزات من بعض الموظفين على الأموال العامة؛ لذلك حاول عمر بن الخطاب إيجاد معالجات للقضاء على هذه الظاهرة الخطيرة، لكن معالجاته لم تكن بمستوى الظاهرة التي استمرت تضرب أُسس الدولة وتهدّد كيانها؛ فعندما بلغه أنّ عمال الخراج قد سرقوا أموال المسلمين، أرسل بطلبهم وقاسمهم الأموال التي يمتلكونها، وقاسم نفيع بن الحارث الثقفي أبا بكرة أيضاً مع أنّه لم يكن من هؤلاء العمال، لأنّه ادعى عليه أنّ أخاه زياد بن أبي أعطاه عشرة آلاف درهم ليتاجر بها، وكان زياد مسؤولاً عن بيت مال البصرة[1].

وهذا الإجراء الذي اتّخذه مع هؤلاء العمال لا يتناسب مع حجم الإساءة التي اقترفوها، وكان عليه مصادرة أموالهم كلها إن ثبتت عليهم السرقة،

أما إن لم تثبت عليهم ؛ فليس له الحق بأخذ نصف ما يمتلكون.

وإنّ عمر بن الخطاب عندما عزل خالد بن الوليد عن الجيش سأله عن كثرة ماله[٢]، فأجاب أنّ ماله جاء عن طريق الأنفال والسهمين التي حصل عليها في المعارك التي خاضها، إلا أنّ الحاكم لم يقتنع بالأمر فأخذ جزءً من ماله وأدخله في بيت المال[٣].

وهذا الأمر تكرّر مع ولاة آخرين فشاطر سعد بن أبي وقاص الوالي على الكوفة ماله[٤].

كذلك فعل مع يَعلى بن أمية واليه على اليمن، وضرب أبا هريرة واليه على البحرين بالدرة حتى أدمى وجهه لّما امتنع عن إعطاء نصف ماله[٥]، وتلاعب أبو موسى الأشعري بأموال المسلمين، وأخذ منها لنفسه وعياله ؛ فكتب له عمر بن الخطاب، ولّما لم يرتدع عَزلهُ عن ولاية البصرة وقاسمه أمواله[٦].

وأثرى عمرو بن العاص والي مصر من أموال المسلمين، فأرسل عمر إليه محمد بن مسلمة ليقاسمه ماله، وكان عمر بن الخطاب إذا أرسل أحد العمال إلى ولاية، يكتب ما يملكه من المال.

فإذا زاد ماله أرسل إليه من يقاسمه المال، فكتب إلى واليه على مصر: (إنّه قد فشت لك فاشية من متاعٍ ورقيق وآنيةٍ وحيوان لم تكن حين وليت مصر).

فردّ عليه عمرو أنّ أرض مصر أرض مزدرع ومتجر، والأموال تنمو في هذه المنطقة، إلا أنّ عمر بن الخطاب لم يقتنع بهذا الرأي وألزمه أن يدفع نصف ماله لمحمد بن مسلمة.

فكان هذا الأمر سبباً لغضب عمرو ؛ فقال: (إنّ الزمان الذي يعاملنا فيه ابن حنتمة - هي أم عمر بن الخطاب - هذه المعاملة زمان سوء) وهو يفتخر بأنّ أباه العاص بن وائل السهمي كان يلبس الحرير قبل الإسلام[٧].

وعلى الرغم من هذه المحاسبة التي كان يقوم بها عمر بن الخطاب تجاه عماله، لكن الأمر المستغرب أنّه كان يقاسم هؤلاء العمال أموالهم، ولا يعزلهم عن تلك الولايات بل استمروا في عملهم، على الرغم من أنّه يعتقد أنّهم سرقوا أموال المسلمين، كذلك فإنّه كان يجب أن يصادر كل الأموال، مادام يعتقد أنّها أموال المسلمين، وقد عبّر أبو بكرة نفيع بن الحارث الثقفي عن هذا المعنى، عندما امتنع أن يدفع نصف ماله لعمر بن الخطاب بالقول: (لئن كان المال لله فما يحل لك أن تأخذ بعضاً وتترك بعضاً، وإن كان المال لنا فما لك أخذه)[٨]. كذلك عبّر الإمام علي عليه السلام عن رفضه لهذا النهج بالقول: «لئن كان عماله خونة، وكان هذا المال في أيديهم خيانة، ما كان حلّ له تركه، وكان له أن يأخذه كله فإنه فيء للمسلمين، فماله أن يأخذ نصفه ويترك نصفه، ولئن كانوا غير خونة، فما حلّ له أن يأخذ أموالهم ولا شيئاً منه قليلاً ولا كثيراً، وأعجب من ذلك إعادته إياهم إلى أعمالهم لئن كانوا خونة، ما حلّ له أن يستعملهم، ولئن كانوا غير خونة ما حقت له أموالهم»[٩].

والأمر الأغرب أنّ عمر بن الخطاب لم يطبّق هذه الإجراءات مع والي الشام معاوية بن أبي سفيان، إذ تذكر الروايات إنّه سافر إلى الشام: (تلقّاه معاوية في موكب عظيم، فلما دنا منه قال عمر: أنت صاحب هذا الموكب العظيم، قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك، قال: مع ما بلغك من ذلك، قال: ولم تفعل هذا، قال: نحن بأرض جواسيس العدو بها كثيرة، فيجب أن نُظهر عزّ السلطان ما يرهبهم به، فإن أمرتني فعلت وإن نهيتني انتهيت، فقال عمر: يا معاوية ما أسألك عن شيء إلا تركتني في مثل

رواجب الضرس، لئن كان ما قلت حقاً إنّه لرأي أريب، ولئن كان باطلاً إنّه لخدعة أديب، قال: فمرني يا أمير المؤمنين، قال لا أمرك ولا أنهاك)[١٠].

وفي هذه الرواية يقول عمر لا أمرك ولا أنهاك، والذي يقرأ هذه الرواية يستنتج أن عمر بن الخطاب تركه يتصرف على هواه، وهذا الأمر مخالف لما عُرف عن عمر من شدة حتى على أبسط التصرفات، حتى أنه ضرب الصحابي تميم الداري[١١] بالدرة لأنّه صلى ركعتين بعد صلاة العصر مع العلم أنّ هذه الصلاة مستحبة صلّاها الصحابة مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لكن عمر بن الخطاب منع أن يصلّوها[١٢]، ونحن لا نستطيع أن نعرف على وجه الدقّة لماذا ترك الأمور لمعاوية هكذا، ومكّن له فعل أي شيء يريده، وهو يعلم حقيقة معاوية؛ فقال فيه مرّة أنّه (كسرى العرب)[١٣].

ثم ترك له عثمان بن عفان الحبل على الغارب، فكان مستقلاً في ولاية الشام لا يحاسبه أحد على أفعاله أو تصرفه بأموال المسلمين، وعندما قتل عثمان بن عفان كانت الفرصة مواتية له للمطالبة بالخلافة.

وقد حاول الإمام علي عليه السلام أن يعرض خبراته وما يمتلكه من خزين معرفي على الحُكّام الذين سبقوه حرصاً منه على الدولة الإسلامية، فطرح على عمر بن الخطاب مجموعة من الآراء تتعلق بكيفية التعامل مع أموال المسلمين، فأخذ الحاكم جزءاً منها وترك الجزء الآخر، وهذه الآراء كانت ترتكز على عنصرين رئيسيين هما التعامل مع الأرض والأموال من جهة، وضرورة اختيار أشخاص مناسبين للقيام على إدارة أموال المسلمين وصيانتها من جهة أخرى[١٤]، لكن العهد الذي سبق خلافته شهد مجموعة

من الأخطاء، سبّبت مشكلة سياسية ودينية مازال المسلمون يعانون من آثارها حتى هذا اليوم، وجزء كبير من هذه المشاكل كان سببه التعامل غير الصحيح مع الأموال، وعلى الرغم من أنّ عمر بن الخطاب كان شديداً مع الولاة وعمال الخراج والجزية بحيث لم يجرأ أحد على مخالفة أوامره، كذلك لم تظهر آثار التمايز في العطاء وغيرها من السياسات في عهده، لكن هذا الأمر لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما برزت الآثار السلبية لهذه السياسات في عهد عثمان بن عفان، وزادت المشكلة عندما بدأ عثمان بن عفان، بعزل ولاة عمر بن الخطاب الذين كانوا يحظون بقبول عامة المسلمين، ويولي بدلاً منهم أقرباءه من البيت الأموي، ممن لم تكن لهم سابقة في الإسلام، ولم يتمتعوا باحترام المسلمين نتيجة لسلوكهم السيئ، وحتى الآخرين الذين كانوا ولاة في عهد عمر بن الخطاب مثل معاوية، لم يكن أحدهم يجرأ على القيام بأي تصرف يخالف سياسة الخليفة، بينما في عهد عثمان بن عفان أصبح معاوية متفرداً بعمله وشبه مستقل في ولايته؛ لذلك كان إصلاح الإمام علي عليه السلام قائماً على معالجة الخلل الاقتصادي المبني على السياسة المالية الخاطئة، وتكوين جهاز إداري يقوم على صيانة أموال المسلمين.

لذلك عندما تولى الخلافة سعى لتطبيق هذه السياسة على أرض الواقع، بعد أن شخّص العلل وحاول أن يضع لها حلولاً، وكان رأيه أنّ إحدى الآفات الرئيسة التي سبّبت الأزمة السياسية والاقتصادية هي تعيين أشخاص غير مناسبين في المواقع الإدارية[١٥]، ولاسيما ما له مساس مباشر بأموال المسلمين، ولدينا أمثلة كثيرة على هذا الموضوع، إذ

أنّ الولاة السابقين كانت الولاية بالنسبة لهم وليمة يأخذون منها الذي يشاءون وكيفما يشاءون، من غير أن يعتبروا هذه الولاية ملكاً للمسلمين؛ لذلك أكّد الإمام عليه السلام لعماله أنّهم مجرد خدّام للرعية، والولاية ليست تشريفاً لهم بقدر ما كانت خدمة عامة يأخذون عليها أجراً، ويبتغون الفضل والثّواب من الله إذا أحسنوا عملهم؛ لذلك عندما أراد أن يولّي الزبير اليمامة والبحرين، ويولّي طلحة اليمن، قالا له: (وصلتك رحم).

لذلك استرد كتاب تعيينهم، وقال لهم: «إنّما وصلتكما بولاية أمور المسلمين»، واستردّ العهد منهما، فأغضبهما ذلك وقالا له: (آثرت علينا) فكان جواب الإمام عليه السلام واضحاً في هذا الأمر: «لولا ما ظهر من حرصكما لقد كان لي فيكما رأي»[١٦]، وهذا يعني أنّ العمال كانوا يريدون إسناد الوظائف الحكومية لهم من أجل الاستفادة القصوى منها وليس خدمة المسلمين، وهذا ما ألفوه سابقاً فأرادوا أن يحصلوا على ما حصل عليه من سبقهم، إذ تذكر الروايات أنّ عمر بن الخطاب بعد وفاة يزيد بن أبي سفيان أعطى ولايته لأخيه معاوية؛ فقال الأخير لعمر (وصلتك رحم)[١٧]؛ لأنّه يعد هذه الولاية له ومن حقه أن يتصرف بها كيف يشاء، وبالفعل حدث ذلك فأصبح معاوية والياً تابعاً للدولة الإسلامية بالاسم فقط، ثم جاءت صلة الرحم الثانية من عثمان بن عفان عندما عزل ولاة الشام وجمعها لمعاوية[١٨].

وبالرغم من استغلال معاوية منصبه في تعزيز استقلاله، فإنّه كان يخاف مخالفة الحاكم آنذاك عمر بن الخطاب، وبقي مجرد أحد الولاة الأقوياء في الدولة الإسلامية، بعد أن عيّنه الأخير والياً على دمشق والأردن[١٩]، لكن هذه الحال لم تستمر طويلاً لأنّ وفاة عمر بن الخطاب ومجيء

عثمان للخلافة، هيّأ له حكم الشام بصورة مطلقة[٢٠]، الأمر الذي مكنه من إحكام قبضته على تلك المنطقة الواسعة، لأنّ فيها جيشاً قوياً جداً أنفق عليه من أموال الدولة الإسلامية، من دون أن تكون عليه رقابة من أحد بحكم شبه الاستقلال الذي ناله في عهد عثمان، وأنّ مدة حكمه الطويلة جعلت أهل الشام يتعودون عليه، ولاسيما أنّهم لم يعرفوا الإسلام إلا منه ومن أخيه يزيد بن أبي سفيان الذي كان والياً قبله؛ لذلك تعلّقوا به أشدّ التعلّق لأنّه ـ وفقاً لعقيدتهم ـ ابن عم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وأسرته من بني أمية هم أهل البيت، وهم لا يعرفون من الإسلام إلا ما علّمهم إياه وما يريد أن يتعلموه، وبذلك يكون عثمان الذي أطلق يد معاوية في تلك المنطقة، قد مهّد لانتقال حكم المسلمين إلى البيت الأموي، الذي لم يستطع أن يواجه دعوة الإسلام وهو في الجانب المعارض لها، وخسر نفوذه السياسي والاجتماعي بعد قيام الدولة الإسلامية، لأنّ معاوية أستغل مقتل عثمان للوصول إلى هذا الهدف، فأعلن نفسه متمرداً على خلافة الإمام علي عليه السلام بذريعة الآخذ بدم عثمان[٢١]، فأصبحت بلاد الشام ملجأ للمتمردين على الخلافة من السراق والمجرمين، ثم جاءته الفرصة عندما اغتيل الإمام علي عليه السلام فأعلن نفسه حاكماً مطلقاً للمسلمين من دون أن يكون لهم أي رأي في اختياره أو تنصيبه، فأسّس لسياسة الاستيلاء على السلطة بالقوة، التي لازالت حتى هذا اليوم مستحكمة على الوضع السياسي في العالم الإسلامي والعربي.

لذلك كان أول إجراء أتخذه الإمام علي عليه السلام هو تغيير الكادر الإداري الذي تولى إدارة الدولة الإسلامية في عهد عثمان بن عفان، وهذا التغيير لم يكن من أجل التغيير فقط، بل من أجل معالجة

المشكلة السياسية والاقتصادية التي تعاني منها الدولة الإسلامية، وهذه المعالجة كانت ترتكز على إصلاح الإدارة المالية للدولة الإسلامية، وهذا الإصلاح يقوم على اختيار موظفين كفوئين قادرين على صيانة أموال المسلمين، وهؤلاء الموظفين هم الولاة وعمّال الخراج والجزية والصدقات، واختيارهم كان يعتمد على مجموعة من المعايير وضعها الإمام علي عليه السلام مع ارتباط هذا الاختيار للموظفين الكفوئين بنظام رقابي شديد طبّقه على ولايات الدولة الإسلامية.

وسنناقش في بداية الموضوع معايير اختيار الموظفين القائمين على الإدارة المالية التي وضعها الإمام من أجل معالجة الخلل، وهذه المعايير لخصها في كتاب تعيين مالك بن الحارث الأشتر، إذ كتب له: «أنظر في أمور عمالك الذين تستعملهم، فليكن استعمالك إياهم اختياراً، ولا يكن محاباةً ولا إيثاراً، فإنّ الأثرة بالأعمال والمحاباة بها جماع من شعب الجور والخيانة لله، وإدخال الضرر على الناس، وليست تصلح أمور الناس، ولا أمور الولاة إلا بصلاح من يستعينون به على أمورهم، ويختارونه لكفاية ما غاب عنهم، فأصطف لولاية أعمالك أهل الورع والفقه والعلم والسياسة، والصق بذوي التجربة والعقول والحياء من أهل البيوتات الصالحة وأهل الدين والورع، فإنّهم أكرم أخلاقاً وأشد لأنفسهم صوناً وإصلاحاً، وأقل في المطامع إسرافاً، وأحسن في عواقب الأمور نظراً من غيرهم، فليكونوا عمالك وأعوانك، ولا تستعمل إلا شيعتك منهم، ثم أسبغ عليهم العمالات، وأوسع عليهم الأرزاق، فإنّ ذلك يزيدهم قوةً على استصلاح أنفسهم، وغنى عن تناول ما تحت أيديهم، وهو مع ذلك حجة لك عليهم في شيء إن خالفوك في أمرك، وتناولوا من أمانتك، ثم لا تدع مع ذلك من القوة، واحذر أن تستعمل أهل

التكبّر والتجبّر والنخوة، ومن يحب الإطراء والثناء والذكر ويطلب شرف الدنيا، ولا شرف إلا بالتقوى»[٢٢].

من خلال القراءة المعمّقة لهذا النص نستطيع أن نتعرف على المعايير التي وضعها الإمام علي عليه السلام لاختيار ولاته وعمّاله، لأنّه مادام قد ألزم أحد ولاته باتباعها في ولايته، فهذا يعني أنّه طبّقها أيضاً في اختيار عمّاله، ويمكن أن نلخص هذه المعايير في اختيار الولاة بالنقاط التالية:

١. الدين والورع والفقه والحياء

عدّ الإمام علي عليه السلام الالتزام بالدين والورع عن الحرمات التي أوصى الإسلام باجتنابها، والعلم بالتشريعات الدينية التي أقرها الإسلام، من الشروط الأساسية التي ينبغي أن تتوفر في الوالي أو العامل الذي يتم اختياره، وذلك لأنّ الإنسان بطبعه يميل إلى التسلط على الآخرين، وهذا الميل نحو هذه الغريزة سببه القوة والهيبة والنفوذ، الذي يوفره له تولي منصب يتحكم بالناس، فتصبح هذه الغريزة سبباً في الإيذاء للآخرين إذا ما استغلت في غير موقعها، فاحتاط لهذا الأمر ووضع هذه الشروط من أجل تجنب الإساءة للرعية، لاسيما أنّ الولاة والعمّال هم واجهة الدولة أمام رعاياها، والمرآة التي ينظر بها الناس إلى طبيعة الحكم، فأوجب الإمام علي عليه السلام وجود مستوى أخلاقي راقٍ مرتبط بالتزام ديني يمنع صاحبه عن ظلم الناس[٢٣] من أجل تولي هذه الوظائف.

وعندما نطّلع على قائمة الأسماء التي أختارها الإمام علي عليه السلام لشغل هذه المناصب، نجد أنّ الكثير منهم تتوفر فيهم السابقة للدخول للإسلام، زيادة على تميزهم بالالتزام الديني والخلقي والمعرفة بالفقه، الذي يمنعهم من التجاوز على الأموال التي هم مؤتمنون عليها أو ظلم الرعية؛ وذلك

لأنّهم متدينون ورعون يخافون من الله سبحانه، وتمنعهم أخلاقهم عن القيام بهذه الأمور، لاسيما الحياء الذي هو من الصفات الأساسية التي اشترطها خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله في هؤلاء، وهذا الحياء ليس من الناس فقط، بل الحياء من النفس، والترفع عن الوقوع في الخيانة؛ لأنّ الناس لا تعرف كل شيء ولها ما تراه أمامها فقط، لكن الوالي أو العامل لا يستطيع إخفاء أيّ عمل سيء عن نفسه، فإذا كان يستحي منها، عصمه هذا الأمر من الوقوع في الخطأ.

والقائمة التي اختارها الإمام علي عليه السلام للعمل كولاة وعمّال خراج تتوفر فيها هذه الصفات، فقسم كبير من هؤلاء الذين اختارهم لهذ الوظائف هم من الصحابة الأوائل الذين سبقوا الناس في دخول الإسلام، وهم من أهل الورع والتقوى وعاشوا مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مدّة من الزمن تعلّموا من خلالها الفقه الإسلامي، ولم يؤشر عليهم سلبيات في المدة التي سبقت خلافة الإمام علي عليه السلام، لذلك فإنهم قادرون على تطبيق تعاليم الإسلام في الولايات والمدن التي تقع تحت سلطتهم، وهو أمر مهم في الإصلاح الاقتصادي الذي انتهجه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنّ هؤلاء يتحلون بصفات الإيمان والعلم بالأحكام الشرعية، والشجاعة والبذل والتضحية وهذه هي صفات المسلمين الأوائل[٢٤].

ومن هذه الأسماء عثمان بن حنيف الذي ولاّهُ خليفة رسول الله علي بن أبي طالب عليه السلام على ولاية البصرة، وهو أحد الصحابة من الأنصار أسلم عند هجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة، وأشترك في معركة أحد وجميع المعارك التي بعدها[٢٥]، وكذلك أخاه سهل بن حنيف الذي ولاّه الإمام علي عليه السلام على المدينة، كان من

خيار الصحابة الأوائل أسلم عند هجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهو من الصحابة الذين اشتركوا في معركة بدر الكبرى وجميع المعارك التي بعدها، ومن الذين ثبتوا يدافعون عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في معركة أُحد عندما حاصره المشركين وفرّ أغلب الصحابة، إذ بايعه على الموت في تلك المعركة[٢٦].

كما عين خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله أبا أيوب الأنصاري على المدينة، وهو من الصحابة الأوائل من الأنصار أسلم قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة وبايع بيعة العقبة الأولى في مكة، وبعد وصول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة سكن في بيته، واشترك أبو أيوب في معركة بدر وجميع المعارك التي بعدها[٢٧]، ومن الولاة الاخرين حذيفة بن اليمان الذي كان والياً على المدائن، وهو من الصحابة الأوائل من حلفاء الأنصار، اشترك في معركة أُحد وجميع المعارك التي بعدها، وكانت له مكانة كبيرة عند الرسول صلى الله عليه وآله وسلم[٢٨]، واشترك في الفتوحات الإسلامية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكان أحد قادة الجيوش الإسلامية في هذه الفتوحات[٢٩].

ومن الولاة الأخرين عبد الله بن عباس الذي ولاه الخليفة على البصرة، وهو من قدماء الصحابة، أسلم في مكة وهاجر مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة، وهو ابن عم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والإمام علي عليه السلام ومن المقربين من الخليفة وسيرته كانت محمودة في عهد الخلفاء وهو من الفقهاء المعروفين في عهدهم[٣٠].

وهناك مجموعة أخرى من الصحابة ولاّها الإمام علي عليه السلام على الولايات الإسلامية، مثل قيس بن سعد وأبو قتادة الأنصاري وقرظة بن كعب وعمر بن أبي سلمة ومخنف بن سليم

وسليمان بن صرد وقثم بن عباس وتمام بن عباس وجعدة بن هبيرة وسعيد بن وهب وغيرهم ، وهؤلاء جميعاً من الصحابة الأجلّاء الذين لم يكن في سيرتهم إلا الأعمال الصالحة ، والسّير على تعاليم الإسلام ، وسنحاول اختصار سيرتهم من أجل التعرف على مدى حرص الإمام عليه السلام على أموال المسلمين ، لذلك أعطى إدارة الدولة لهذه الشخصيات التي لم يسجل عليها التاريخ أيّة مساوئ ، سواء قبل تولي الوظائف أو عندما أصبحوا يعملون في الجهاز الإداري للدولة.

فكان قيس بن سعد بن عبادة والي مصر من قدماء الصحابة ، وهو ابن سعد بن عبادة أحد سادات الخزرج الذين بايعوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قبل هجرته إلى المدينة ، وأحد النقباء الاثني عشر الذين أختارهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليكونوا ممثلين عنه في المدينة[٣١] ، وقيس من شجعان العرب وكرمائهم المشهورين ، وذو رأي صائب ومن بيت سيادة ، وكان صاحب شرطة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٣٢].

وكان أبو قتادة الأنصاري ربعي بن الحارث والي المدينة من قدماء الصحابة ، اشترك في معركة أُحد وجميع معارك المسلمين ، وكان يسمى فارس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٣٣] ، وكان قرظة بن كعب الأنصاري من الصحابة الأوائل ، اشترك في معركة أُحد مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمعارك التي تلتها ، وكان أحد أبطال المسلمين في الفتوحات الإسلامية[٣٤].

ومن الولاة الآخرين الذين اعتمد عليهم الخليفة في إدارة الدولة الإسلامية عمر بن أبي سلمة الذي تولى على البحرين وفارس قبل معركة صفين ، وهو ابن الصحابي أبو سلمة بن عبد الأسد

المخزومي أول من هاجر إلى المدينة من المسلمين، ثم اشترك في معركة بدر وأُحد، فجرح في معركة أُحد ثم توفي بعد هذه المعركة متأثراً بهذا الجرح[٣٥]، وعندما استشهد تزوج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أمّه أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة، فكان عمر قد تربى في حجر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وكان يسمى ربيبه[٣٦]، وكان مخنف بن سليم والي الإمام عليه السلام على أصبهان من الصحابة أسلم في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وسكن الكوفة[٣٧]، وكذلك كان الصحابي سليمان بن صرد الخزاعي أحد عمّال الإمام على منطقة الجبل، وهو من الصحابة أسلم في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكان فاضلاً خيّراً له دين وعبادة سكن الكوفة بعد تأسيسها[٣٨]، وكان عبد الرحمن بن أبزي الذي ولاّه الخليفة على خراسان[٣٩] من الصحابة الأوائل وروى عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعض الأحاديث[٤٠].

وسنكتفي بهذا الإيجاز السريع عن سير الولاة والعمّال الذين اختارهم الإمام علي عليه السلام من أجل العمل في الولايات الإسلامية، وهؤلاء الذين ذكرناهم هم من الصحابة فقط، أما الأخرين فقد كانوا من التابعين الذين عاشوا مع الصحابة وتعلّموا منهم، والهدف من هذا الإيجاز التعرف على دقة اختيار الخليفة لعمّاله، والذي يعني معالجة للمشكلة الاقتصادية والمالية التي خلفتها المدة الماضية، فهؤلاء لم يكن من بينهم من أتهم بسرقة أموال المسلمين أو قصر في المهمة الموكلة إليه، إذ لم تسجل كتب التاريخ وغيرها أي تصرف سيء قام به هؤلاء الموظفين، سواء ما يتعلق بأموال المسلمين أو إدارة الدولة أو للرعايا الذين كانوا ولاة عليهم، ومن هنا يمكن القول إنّ الإمام عليه السلام عندما اشترط توفر

الدين والورع والأخلاق، في هؤلاء الموظفين أراد علاج أزمة الثقة، التي كانت سائدة بين الرعايا والجهاز الإداري للدولة، وبالفعل نجح في هذا الأمر إلى حدٍ كبير، في الحفاظ على أموال المسلمين وعدم التجاوز على غير المسلمين لأنّ هؤلاء كانوا من الأتقياء الذين يمنعهم دينهم عن السرقة والخيانة، وتردعهم أخلاقهم لاسيما الحياء من التجاوز على الأموال والأنفس.

٢. الانتساب إلى أسرة شريفة صالحة:

قد يتبادر إلى الذهن ونحن نتحدث عن اشتراط الإمام علي عليه السلام أن يكون الوالي أو العامل من الأُسر الشريفة الصالحة، إنّ في هذا تمييز وإرجاع المجتمع إلى طبقية أبناء زعماء القبائل، والأُسر الغنية المتنفذة، وإبعاد للبسطاء عن المشاركة في إدارة الدولة، إلا أنّ هذا التصور ليس صحيحاً، فهذه الميزة التي أرادها الخليفة ملازمة لعمّاله، ليس القصد منها تلك الأسر المترفة الغنية، بل أراد البيوتات الصالحة المتدينة العفيفة، ولم يكن معيار الغنى والفقر وارد في هذه الميزة، بل أنّه أراد أن تكون التربية العالية التي اكتسبها هؤلاء في أسر ترعى أبناءها وتربيهم على الفضيلة، سبباً في توليهم الإدارة؛ لتكون هذه التربية رادع لهم عن التجاوز على الرعية أو الأموال.

كذلك فإنّ تلك المدّة لم يكن فيها مدارس من أجل إعداد الموظفين الإداريين، لتعلّمهم الثقافة الإدارية والحفاظ على الأموال العامة، فيكون اختيارهم من هذه الأسر المحافظة على التقاليد سبباً في أمانتهم، لأنّهم كانوا قد تربّوا وفق طراز عال من التربية النموذجية[٤١]. كذلك كانت هذه الميزة مهمة في الإدارة في تلك المدة لأنّ هؤلاء الذين ينتمون إلى أسر شريفة يكونوا أكثر تأثيراً في أبناء قومهم لما يتمتعون به من

مكانة في نفوسهم، الأمر الذي يؤدي إلى تأمين الولاء للخليفة والهدوء في أنحاء الدولة، كما أنّهم يستطيعون حشد أبناء قبائلهم ومواليهم، إذا ما تعرّضت الدولة إلى أي خطر[٤٢]، وقد حدث هذا الامر بالفعل، وأسهم هؤلاء في تكوين جيش قوي موالي للخليفة والمنهج الإصلاحي الذي سار عليه.

ولا يمكن لنا أن نفصل هذه الميزة عن الميزات الأخرى من الورع والتقوى والحياء، والخبرة الإدارية والسياسة، والولاء للخليفة والمبادئ التي يعتنقها، لأنّها مجموعة واحدة متكاملة، يؤثر بعضها في البعض الأخر، فالإنسان الذي تربى تربية عالية يجب أن ترتبط تربيته هذه بدين وورع يمنعه عن الوقوع في المحرمات، لاسيما الظلم وخيانة الأمانة، كذلك لا يستطيع أن يدير ولايته بدون أن تكون له خبرة إدارية، ومعرفة بالسياسة تعطيه قدرة السيطرة على رعيته، وإذا كان مؤمناً بمبادئ الحكم الذي يمثله نجده يتفانى في تطبيق هذا المنهج، وقد راعى الخليفة في هذا الأمر كل هذه الميزات المتقدمة، ومن أجل التعرف على مدى تطبيقه لها على ولاته وعمّاله، ينبغي لنا أن نراجع الخلفيات الاجتماعية لهؤلاء الولاة والعمّال.

لقد كانت المجموعة التي اختارها الخليفة لإدارة الدولة، ليست بعيدة عن المعنى المتقدّم، فكان والي أذربيجان قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري، أبوه أحد زعماء قبيلة الخزرج التي ناصرت الدعوة الإسلامية، كذلك كان أحد النقباء الإثني عشر الذين أختارهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لتبليغ الدعوة في المدينة قبل الهجرة[٤٣] وكان يسمّى الكامل قبل البعثة[٤٤]، وهو من أسرة مسلمة مؤمنة دخلت الإسلام كلها، كما اشتهرت بالكرم وبذل الأموال للناس

في الجاهلية والإسلام[٤٥]، ومن الطبيعي أن تنعكس هذه الصفات الإيجابية على شخصيات أبناءها.

وكان عبد الله والي البصرة وعبيد الله والي اليمن وقثم والي مكة وتمام والي المدينة أبناء العباس بن عبد المطلب، ينتسبون إلى بني هاشم الأسرة التي ينتسب إليها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، والتي كانت سيدة قريش قبل الإسلام وبعده، كما كانت تحظى باحترام العرب وتقديرهم قبل الإسلام، لأنّهم كانوا الذين يُطعمون ويسقون الحجاج في تلك الحقبة الزمنية، وجد هذه الأسرة هاشم هو الذي سنّ أهم المعاهدات التجارية قبل الإسلام والتي سميت بالإيلاف، كما أنّ عبد المطلب كان أمير مكة وسيد البطحاء، حفر بئر زمزم الذي كان يعتمد عليه كل الحجاج القادمين إلى مكة، ولم يعرف عن هذه الأسرة في الجاهلية والإسلام إلا مكارم الأخلاق[٤٦]، وهذه الأسرة هي التي حمت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والدعوة الإسلامية من المشركين عندما كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في مكة[٤٧].

وهذه مجرد نماذج بسيطة من الموظفين والعمّال الذين اختارهم الخليفة لإدارة الدولة والإشراف على أموال المسلمين، وهو ينطبق على باقي الموظفين؛ لأنّه أراد هذا المستوى من التنشئة الاجتماعية، لكي يكون رادع لهم عن خيانة الأمانة، ويؤكد ذلك أنّ الخليفة عزل مجموعة من العمّال الذين تجاوزوا على أموال المسلمين، وفي كتب العزل التي وجّهها لهم أشار الإمام عليه السلام أنّ اختياره لهم كان بناءً على انتسابهم إلى أسر شريفة كريمة، فنجد في كتابه إلى المنذر بن الجارود العبدي عامل مدينة اصطخر، والذي تجاوز على أموال المسلمين المعنى الذي قدمناه: «أما بعد فإنّ صلاح أبيك غرني منك، وظننت أنك

تتبع هديه وتسلك سبيله»[٤٨]، وهذا الكتاب يؤكد أنّ الخليفة عندما اختاره للعمل، كان يظن أنه يحمل الصفات الإيجابية التي كان يتصف بها أبوه، لهذا اختاره لكي يكون عاملاً على هذه المدينة، وأبوه هو الجارود العبدي الذي كان من خيار الصحابة، إذ تذكر الروايات أنّه كان سيد قومه قبيلة عبد القيس وكان نصرانياً فوفد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأعلن إسلامه، أشترك في الفتوح الإسلامية واستشهد في منطقة فارس في خلافة عمر بن الخطاب[٤٩].

كذلك الحال مع النعمان بن عجلان الزرقي الأنصاري الذي ولاّه الخليفة على البحرين بعد عمر بن أبي سلمة، فبلغه أنّه أخذ من أموال المسلمين، فكتب له الخليفة: «فخف الله إنك من عشيرة ذات صلاح، فكن عند صالح الظن بك»[٥٠]، وهذا الجزء من الكتاب الذي ذكرناه، يبيّن أن الخليفة عندما أختاره، كان بناءً على انتسابه إلى عشيرة شريفة صالحة، فهو من الأنصار من بني زريق[٥١]، ولا يخفى أنّ عشائر الأنصار كانت من أفضل العشائر العربية، لاسيما أنّها وفّرت المأوى والملاذ الآمن للرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين، كما أنّ الأنصار قدموا للإسلام كل ما يملكون ودافعوا عنه بكل قوة؛ لذلك اختار الإمام الكثير من ولاته من الأنصار، ومنهم النعمان الذي كان من الصحابة الذين آمنوا بالإسلام والرسول صلى الله عليه وآله وسلم عندما هاجر إلى المدينة، كذلك فإنّه كان سيداً شريفاً في قومه[٥٢].

كما نستنتج من الكتاب المتقدم أنّ الإمام عليه السلام كان لا يركز في الاختيار على انتساب الولاة والعمّال إلى أسر وبيوت شريفة صالحة فقط، بل تعدى ذلك إلى القبائل والعشائر المعروفة

بالصلاح، واختيار الإمام عليه السلام مجموعة من هؤلاء الموظفين ممن ينتمون إلى قبائل معينة يؤكد هذا المعنى، فاختياره لسهل بن حنيف وعثمان بن حنيف وأبا قتادة الأنصاري وقرظة بن كعب وعقبة بن عمرو الأنصاري والنعمان بن عجلان وأبا أيوب الأنصاري من أجل تولي إدارة الولايات الإسلامية وأموال المسلمين.

وهم جميعاً ينتمون إلى قبائل الأنصار، يعني أنّه يعتقد بجدارة المنتسبين إلى هاتين القبيلتين في الحفاظ على المسلمين وأموالهم، وبالفعل كانوا بهذا المستوى من الاختيار، فحافظوا على أموال المسلمين ولم تصدر منهم أيّ خيانة سوى ما قدّمنا في الكتاب الذي وجّهه إلى النعمان بن عجلان.

كما أنّ هناك قبائل أخرى اعتمد عليها الإمام عليه السلام في الإدارة كبني أرحب وهم بطن من قبيلة همدان[٥٣]، التي كان ينتمي إليها عدد من الولاة مثل يزيد بن قيس الأرحبي والي المدائن وغيرها من الولايات الإسلامية[٥٤]، وكذلك مالك بن كعب الأرحبي عامل عين التمر التابعة للمدائن[٥٥] وعمرو بن سلمة الأرحبي الذي كان والياً على همدان[٥٦].

والسبب في اختيار الإمام عليه السلام لهؤلاء هو صلاح هذه القبيلة ومواقفها المساندة للإسلام، كذلك مساندتها لبرنامجه الإصلاحي، كما لم تؤشر عليهم أية سلبيات تسيء إلى سيرتهم[٥٧]، منذ أن دخلوا الإسلام على يد الإمام علي عليه السلام في عهد الرسول صلى الله عليه وآله[٥٨].

٣. الخبرة الإدارية والسياسية:

تعدّ الخبرة الإدارية والمعرفة بالسياسة من الأمور المهمة التي أشترطها الإمام علي عليه السلام في عمّاله؛ لأنّ الدولة كانت بحاجة إلى من يمتلكون هذه الخبرة لإدارة الولايات، لاسيما أنّهم كانوا يتعاملون مع

الاقتصاد والإدارة في تلك الولايات، كما أنّ كل واحد منهم كان يقع تحت حكمه مجموعة من الناس، فيحتاج إلى معرفة بالسياسة حتى يستطيع توفير الاستقرار للمنطقة التي يحكمها، لذلك نرى من خلال متابعة أسماء الولاة والعمّال أنّه اختار هؤلاء للعمل، وكلهم مارس أعمال الإدارة وجباية الضرائب وغيرها من الأمور الاقتصادية، وقد نستنتج من هذا أنّه كان يريد من خلال هذا الشرط الحفاظ على أموال المسلمين، لأنّ هذه الأموال ليست قابلة للتجارب، حتى يأتي بموظفين ليست لديهم خبرة بإدارة هذه الأموال فيضيّعوها، أو أنّهم لا يحسنون إدارة ولاياتهم فيؤدي هذا الأمر إلى التقصير بحقوق الرعايا الساكنين في ولاياتهم، وسنرى أنّ الخليفة غيّر مجموعة من الولاة لأنّهم لم يكونوا قادرين على إدارة ولاياتهم، واستبدلهم بآخرين أقدر على العمل منهم.

لكن على الرغم من اختيار الخليفة لهؤلاء الموظفين بناءً على الشروط المتقدمة، فإنّه كان يضعهم تحت التجربة لمدة من الزمن، ويراقب أدائهم من خلال مجموعة من الطرق التي وضعها، وسوف نتحدث عنها في موضوع الرقابة الإدارية، فإذا لمس من هؤلاء أيّ خيانة لأمانتهم عزلهم وعاقبهم، وإذا لمس منهم تقصير في أداء أعمالهم، كتب إليهم من أجل تنبيههم إلى الخلل الذي ربما يكون غير مقصود.

والشيء اللافت للنظر أنّ الخليفة اختار المجموعة التي تعمل معه، مراعياً اجتماع الشروط المتقدمة جميعها فيها، وسنأخذ أمثلة على هذا الأمر، فعثمان بن حنيف الذي كان والياً على البصرة قبل معركة الجمل، هو من الأنصار الذين يسكنون المدينة، والذين كانوا يعملون في الزراعة في مدينتهم،

ولديهم خبرة في هذا العمل، لذلك عندما أفتتح المسلمون العراق، أختاره الخليفة عمر من أجل أن يكون مسّاحاً لهذه الأراضي، بغية معرفة مساحة الأراضي المنتجة وتقدير الضرائب عليها[٥٩].

وكان زياد بن أبيه الذي عينه الخليفة عاملاً على الخراج في البصرة[٦٠]، ثم عيّنه على ولايات أخرى مثل فارس وكرمان[٦١]، من العمّال الذين يمتلكون خبرة كبيرة في الإدارة، لأنّه عمل في إدارة البصرة مع أبي موسى الأشعري في خلافة عمر بن الخطاب[٦٢]، كذلك كان زياد نائباً لوالي البصرة عبد الله بن عامر في خلافة عثمان بن عفان[٦٣]، وكان زياد يوصف بحسن السياسة والإدارة الجيدة[٦٤].

كما أنّ قرظة بن كعب كان من العمّال الذين أختارهم عمر بن الخطاب ووجههم إلى الكوفة مع الوالي عمار بن ياسر[٦٥]، كما أنّه كان أحد القادة المسلمين في الفتوح الإسلامية[٦٦]، وكان عبد الله بن شبيل الأحمسي والي أذربيجان بعد سعد بن قيس من قادة الفتوح الإسلامية في عهد عثمان بن عفان، وهو الذي أعاد فتح ولاية أذربيجان، بعد أن نقضت الصلح الذي عقدته مع حذيفة بن اليمان في عهد عمر بن الخطاب[٦٧].

وكان حال الولاة والعمّال الآخرين لا يختلف كثيراً عما قدمناه، فهم إما عملوا في الإدارة أو قادوا الجيوش الإسلامية في الفتوحات، أو كانوا جنوداً في هذه الجيوش، فتوفرت لهم خبرة كبيرة في كيفية فتح هذه المدن، ومقدار الضرائب التي وضعت في تلك المدّة، أو أنهم سكنوا في تلك المناطق وبقوا مدة طويلة فيها، ومن خلال تتبع سيرة هؤلاء نجدهم استوطنوا في هذه المناطق، وعرفوا كل التفاصيل الإدارية والمالية في

مناطقهم، الأمر الذي أهلهم لتولي الإدارة فيها.

كما أن الخليفة راعى في اختيار العمال والولاة، رضا المسلمين الساكنين في تلك الولايات؛ لأنّ الثورة على عثمان كان أحد أسبابها، التذمر من تصرفات الولاة والعمال، فعمل الخليفة على اختيار ولاة وعمال يحظون بالصفات التي قدمناها، لاسيما السابقة في الإسلام والشرف والوجاهة، والانتساب إلى بيوتات صالحة، من أجل ضمان الاستقرار في الدولة الإسلامية[٦٨].

وبالفعل حظي جميع الولاة والعمال الذين تولوا الإدارة برضا المسلمين وغيرهم، والدليل على ذلك إنّ كتب التاريخ لم تذكر شكاوى قدمت إلى الخليفة ضد هؤلاء، بالكثرة نفسها التي كانت تقدّمت ضدهم في المدّة التي سبقت خلافة الإمام علي عليه السلام، سوى بعض الشكاوى والتي عالجها الخليفة بسرعة كبيرة.

وفي بعض الحالات التي ظهر فيها هؤلاء الولاة أو العمّال غير أكفّاء في الإدارة، أستبدلهم الخليفة بآخرين قادرين على العمل بصورة أفضل، على الرغم من أنّ هؤلاء لم تصدر منهم أي خيانة للأموال أو ظلم للرعية، بل إنّ بعض منهم توفرت فيه شروط الورع والتقوى والخبرة الإدارية والانتساب إلى عائلة شريفة وغيرها، لكنّه لم يرتقِ بعمله إلى المستوى الذي كان يريده الخليفة، وتوجد أمثلة كثيرة على ذلك، فمثلاً أرسل الخليفة سهل بن حنيف والياً على مدينة فارس بعد معركة صفين، لكنّه لم يستطع أن يضبطها[٦٩]، فأستبدله الخليفة وأرسل بدلاً منه زياد بن أبيه[٧٠]، ومن المهم أن نعرف سبب إسناد الإمام علي عليه السلام هذه الوظائف لزياد بن أبيه، على الرغم من أنه لم يكن ينتسب إلى أسرة شريفة[٧١]، ولم يكن من الصحابة أو من أهل الورع والتقوى[٧٢].

كذلك فإنّ التاريخ سجل على زياد الكثير من الانحرافات، وهنا يمكن القول أنّ هذه الانحرافات لم تكن مسجلة عليه في تلك المدة[٧٣].

بل ظهرت بعد التحاقه بمعاوية فقد بقي والياً على فارس بعد استشهاد الإمام علي عليه السلام، وأبقاه الإمام الحسن عليه السلام عليها، فأرسل له معاوية كتاباً يهدده فيه، من أجل أن يكسب ولائه له، فرفض زياد هذا التهديد وألقى كلمة تتضمن تمسكه بخلافة ابنه الحسن، فقال: «العجب من ابن آكلة الأكباد، وكهف النفاق، ورئيس الاحزاب كتب إليّ يتهددني، وبيني وبينه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعني عبد الله بن عباس - في تسعين الفاً واضعي سيوفهم على عواتقهم لا ينثنون، ولئن خلص إليّ ليجدني أحمر ضراباً بالسيف»، ثم بقي زياد متحصناً في إحدى القلاع في فارس، حتى بعد أن عقد الإمام الحسن عليه السلام الصلح مع معاوية[٧٤]، لكن معاوية أراد أن يكسبه إلى جانبه، لما عرف عنه من كفاءة في الإدارة، فادعى أنّه أخاه وأنّه من أولاد أبي سفيان[٧٥]، بعد أن ذكر قصة ملفقة، ادعى فيها أنّ زياد ابن غير شرعي لأبي سفيان[٧٦].

الأمر الذي كان مدعاة لفرح زياد، فبعد أن كان يقال له زياد بن ابيه، وهي تسمية غير مرغوب بها في المجتمعات العربية، أصبح بادعاء معاوية من قبيلة قريش، التي تعد أشرف قبائل العرب في الجاهلية والإسلام، كما أصبح بهذا الادعاء أخاً لمعاوية، وعلى أثر ذلك أصبح من أشد الموالين لمعاوية، فولاّه على الكوفة والبصرة فلاحق أتباع الإمام علي عليه السلام في العراق فقتلهم وشرّدهم[٧٧].

ومن خلال ما تقدم يتضح أنّ زياداً قام بأعمال سلبية بعد استشهاد الإمام

علي عليه السلام ولم يسجل عليه مثل هذه الأعمال قبل هذه المدة، لذلك عندما اختاره الإمام عليه السلام لهذه الأعمال كان لكفاءته الإدارية، وقدرته على إنجاز الأعمال التي أوكلت إليه، ويؤيد هذا الرأي أنّ الخليفة كتب إلى زياد كتاباً يبين فيه أنّه أختاره للولاية لأنه يستحقها لكفاءته: «أما بعد فإني قد وليتك ما وليتك وأنا أراك لذلك أهلاً»[٧٨]، وذلك عندما علم أنّ معاوية يراسله، من أجل إغرائه حتى يتمرد على الخلافة، وينحاز إلى جانبه في الحرب التي كانت مستمرة مع الإمام علي عليه السلام كذلك فإنّ الخليفة لم يختر زياد من أجل وظيفة قضائية أو تتعلق بالفقه، بل في الإدارة التي كان خبيراً بها، ووضع عليه رقابة شديدة بحيث لا يستطيع أن يتلاعب بأموال المسلمين أو يظلمهم.

كما غيّر الخليفة جعدة بن هبيرة بعد أن ولاّه على خراسان[٧٩]، وأرسل بدلاً منه خليد بن قرة التميمي، على الرغم من أنّ جعدة كان أحد الصحابة ومن أسرة قرشية شريفة[٨٠]، وهو أيضاً ابن أخت الخليفة[٨١].

والسبب في ذلك أنّه فشل في إدارة ولايته، ولم يستطع السيطرة عليها[٨٢] بينما استطاع الوالي الجديد السيطرة على هذه الولاية وجباية الضرائب منها[٨٣].

كذلك عزل الخليفة قيس بن سعد بن عبادة عن ولاية مصر[٨٤]، على الرغم من أنّ قيس كان من أشدّ الموالين للخليفة، وهو من الصحابة الأوائل، ومشهور بالسياسة والشجاعة، لكن معاوية زوّر كتاباً على لسان سعد، يدّعي فيه أنّ سعداً معه على رأيه، فرأى الخليفة أنّ هذا الأمر فيه شك ويجب أن يقطعه، لاسيما أنّ الخلافة كانت تخوض حرباً مستمرة ضد معاوية، وجزء من هذه الحرب كان إعلامياً؛ لذلك كان الخليفة لا يريد أن تؤثّر هذه الأمور في

الحالة النفسية لمقاتليه، على الرغم من ثقته بسعد وقدرته على الإدارة، والدليل على ذلك أنه ولاّه على أذربيجان بعد عزله عن مصر[٨٥].

وقد رافق شروط اختيار الولاة والعمّال نظام رقابي شديد وضعه الإمام عليه السلام للحيلولة دون التجاوز على أموال المسلمين أو الإساءة إليهم، فلم تقتصر سياسة الإصلاح التي وضعها الإمام علي عليه السلام على حسن اختيار الموظفين من ولاة وعمّال خراج وجزية وغيرهم، بل تعدّى ذلك إلى وضع نظام رقابي شامل لمراقبة هؤلاء العمّال.

وذلك لأنّ الرقابة الإدارية والمالية تمنع هؤلاء الموظفين من التلاعب بأموال المسلمين، حتى إنّه كان يمارس الرقابة بنفسه في المناطق التي تخضع لسلطته مباشرة، ليس على أموال المسلمين فحسب بل حتى على معاملتهم الاقتصادية فيما بينهم[٨٦].

ويمكن أن نتعرف على هذا النظام الرقابي من خلال تقسيمه إلى مجموعة من الإجراءات التي اتبعها الخليفة:

١. نظام العيون

أوضحنا فيما سبق الكيفية التي كان الإمام علي عليه السلام يختار بها عمّاله وولاته وذلك وفقاً لمعايير خاصة منها الأمانة والدين والخبرة وغيرها، إلا أنّه لم يكتف بهذا الإجراء بل تعداه إلى وضع نظام متكامل يدقق على العمّال أعمالهم، وجزء من هذا النظام كان العيون التي يستقي منها الخليفة معلوماته عن تصرفات هؤلاء الولاة والعمّال في ولاياتهم البعيدة عن مركز الدولة، ويمكن أن نقول إنّ هذا النظام يشبه نظام الاستخبارات في وقتنا الحالي، لأنّ هؤلاء العيون لا يعرفهم سوى الخليفة، ويكتبون إليه مباشرة عن السلبيات والإيجابيات التي يرونها في مناطق عملهم، لذلك نرى أنّ الإمام علي عليه السلام كان يعلم بكل

الأشياء التي تجري في الولايات الإسلامية، وقد أدى هذا النظام الرقابي فاعليته في مراقبة تصرفات الموظفين التابعين للدولة الإسلامية، لأنّ الولاة كانوا حذرين في التعامل مع أموال المسلمين، وأصبحت لديهم قناعة في أنهم لم يكونوا مطلقي اليد بهذه الأموال، وليس لديهم أي حصانة إذا خانوا الأمانة التي في أيديهم، لذلك كانوا حريصين على أداء أعمالهم بصورة جيدة.

وهؤلاء الولاة والعمال كانوا يعرفون أنّ هناك مجموعة من الأشخاص تابعين للخلافة يراقبون تصرفاتهم ويكتبون بصورة مستمرة للخليفة، لاسيما أنّ الخليفة أمر الولاة أن يستعينوا في عملهم بمجموعة موثوقة من الأشخاص ويجعلوهم عيوناً لهم لمراقبة عمّال الخراج والجزية: «ثم تفقد أعمالهم، وأبعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإن تعاهدك في السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة، والرفق بالرعية، وتحفظ من الأعوان، فإنّ أحد منهم بسط يده إلى خيانة، اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك، اكتفيت بذلك شاهداً، فبسطت عليه العقوبة في بدنه، وأخذته بما أصابه من عمله، ثم نصبته بمقام الذلة، ووسمته بالخيانة وقلّدته عار التهمة»[٨٧]، وفي كتاب آخر لعمّاله: «واجعل عليهم العيون في كل ناحية من أرضك...»[٨٨].

وهذا يعني أنّ هناك جهازين للعيون أحدهما تابع للخليفة يراقب الولاة والعمّال، والآخر تابع للولاة يراقب عمّال الخراج والجزية، لاسيما أنّ الدولة الإسلامية كانت مترامية الأطراف، والولاة مسؤولين عن مجموعة كبيرة من المدن والقرى التابعة لولاياتهم، التي كانت تحتاج إلى مجموعة كبيرة من العمّال من أجل جمع أموال الخراج والجزية والعشور

والصّدقات وتوزيع العطاء على الموظفين وغيرهم والإنفاق على الخدمات العامة، وليس بمقدور الوالي مباشرة هذه الأعمال بنفسه، لاسيما إذا عرفنا أنّ السفر من مدينة إلى أخرى قد يستغرق عدّة أيام، بالتالي يكون وجود نظام العيون ضروري جداً بالنسبة للوالي من أجل معرفة ما يجري في ولايته.

وعلى الرغم من أنّ المصادر لا تذكر لنا أسماء العيون، الذين كان يضعهم الخليفة في الولايات والمدن التابعة لها، إلا أنّ وجودهم كان أكيداً وغير قابل للشك، لأنّ الإجراءات التي اتخذها الإمام عليه السلام بحق بعض الولاة والعمّال، تبين أنّه كان يعتمد على العيون في معرفة الأخبار، إذ جاء في أغلب الكتب التي وجّهها لولاته وعمّاله الذين تجاوزا على أموال المسلمين، كذلك في الأخطار التي تتعرض لها الولايات والمدن الإسلامية عبارة (قد بلغني)[٨٩].

وفي هذا دلالة على أنّ الذي أبلغ الإمام علي عليه السلام هي العيون التي وضعها في كل أرجاء الدولة الإسلامية، وفي أحيان أخرى نراه يصرّح أنّ مصدر معلوماته جاءت عن طريق عيونه، كما في الكتاب الذي وجّهه إلى قثم بن عباس والي مكة، عندما وجّه معاوية حملة على هذه المدينة، إذ قال له: «فإنّ عيني بالمغرب كتب إليّ يخبرني...»[٩٠]، وتبين كتب الخليفة إلى الولاة والعمّال حجم المعلومات (الاستخبارية) التي كانت تصل للخليفة عن تصرفات هؤلاء الولاة والعمال.

ويمكن لنا خلال قراءة هذه الكتب أن نعرف أنّ الإمام عليه السلام كان لا يسمح بأي تصرف، ربما يؤدي في المستقبل إلى التلاعب بأموال المسلمين، وقد وجّه كتب شديدة اللهجة إلى مجموعة من الولاة بناءً على هذه

المعلومات، مع العلم أنّ قسم منهم كان من كبار الصحابة مثل عثمان بن حنيف وعبد الله بن عباس، لأنّه على الرغم من الثقة التي أعطاها لهؤلاء الولاة، كان يريد أن يحمي الناس من هؤلاء، إذا ما استعملوا صلاحياتهم بصورة غير شرعية، كذلك كان يريد أن يحميهم من أنفسهم أيضاً، ومن الأمثلة على المعلومات التي وصلت للخليفة عن الولاة، أنّ والي البصرة عثمان بن حنيف قبِل دعوة أحد أغنياء البصرة لتناول وجبة طعام في بيته، فكتب له الخليفة كتاباً بهذا الشأن، وسوف نأخذ جزء من هذا الكتاب من أجل التعرف على رقابة الخليفة على ولاته وعمّاله: «أمّا بعد يا ابن حنيف فقد بلغني أنّ رجلاً من فتية أهل البصرة قد دعاك إلى مأدبة، فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان، وتنقل لك الجفان، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو، وغنيهم مدعو....، ألا وأنّ لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه، ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعامه بقرصيه، ألا وإنّكم لا تقدرون على ذلك ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفّة وسداد، فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا ادخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً، بلى كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلته السماء، فشحّت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين ونعم الحكم الله، وما أصنع بفدك وغير فدك والنفس مظانها إلى جدث، تنقطع في ظلمته آثارها وتغيب أخبارها، وحفرة لو زيد في فسحتها وأوسعت يدا حافرها لأضغطها الحجر والمدر، وسد فرجها التراب المتراكم، وإنّما هي نفسي أروضها بالتقوى، لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق، ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل،

ولباب هذا القمح ونسائج الخز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة، ولعلّ أحدهم بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرى؟ أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داء أن تبيت ببطنة

وحولك أكباد تحن إلى القدّ

أأقنع من نفسي أن يقال أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش، فما خُلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همّها علفها، أو كالمرسلة شغلها تقمّمها تكترش من أعلافها وتلهو عما يراد بها .....، فأتق الله يا أبن حنيف، ولتكفك أقراصك ليكون من النار خلاصك»[٩١].

يمكن أن نلاحظ من خلال قراءة هذا الجزء من الكتاب عدّة أمور، منها أنّ أخبار الوليمة التي حضرها الوالي وصلت للخليفة من خلال جهاز العيون، ويتضح هذا الأمر من خلال عبارة (قد بلغني) التي ذكرها الخليفة في كتابه، كذلك كون الوالي عثمان بن حنيف من الصحابة لم يشفع له عند الخليفة، إذ لم يتوانى عن توجيه اللوم إليه، على الرغم من أنّه لم يسرق الأموال، أو يخون الأمانة التي أوكلها له الخليفة، بل دُعي إلى وليمة من قبل أحد أشراف البصرة، وهي قضية طبيعية على اعتبار أنّهم يريدون التعرف عليه، وتقوية علاقتهم به مادام يعيش معهم ويتولى أمورهم، إلا أنّ هذا الأمر اعترض عليه الخليفة بشدة، لأنّ الوالي كان يمثل الدولة التي يقف على هرمها علي بن أبي طالب عليه السلام، وتستند في حكمها على تشريعات جاء بها محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الله سبحانه وتعالى، وليست دولة قائمة على سلطة

لا تكترث كثيراً بالسلوك والعمل، بقدر ما يهمّها تسيير الأمور في مرحلة ما، إنّها دولة تريد أن تؤسس لحكم عادل، لذلك يمكن أن نقول إنّ اعتراض الخليفة كان سببه عدّة أمور، منها أنّ الخليفة عندما اختار هذا الوالي وضع ثقته فيه فأمّنه على الأنفس والأموال، لذلك يجب أن يكون بمستوى الاختيار، لاسيما أنّ هؤلاء الذين دعوه إنّما دعوه ليتزلفوا له، ولم تكن دعوتهم له لوجه الله، والدليل أنّ الفقراء لم يكونوا مدعوين فيها، إذن كانت دعوة قائمة أساسها المصلحة، وليس الهدف منها تقوية الأواصر، بل كانوا يريدون السيطرة عليه، لذلك اعترض الخليفة لأنّه بعد ذلك لا يستطيع تطبيق الإصلاح والتغيير، الذي ربما يمس هؤلاء الأغنياء الذين وجّهوا إليه الدعوة، وهذا الأمر كان مطابقاً لسياسة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مع عماله، ففي رواية أنّه أرسل أحد الصحابة ليجمع الزكاة، وعندما جاء هذا العامل أعطى الأموال للرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن عزل منها شيء زعم أنّه هدية أهديت إليه، فصعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المنبر وقال: «إني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاّني الله، فيأتي فيقول: هذا مالكم، وهذا هدية أُهديت لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديّته إن كان صادقاً، والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه، إلاّ لقي الله عزّ وجل يحمله يوم القيامة»[٩٢].

وعلى الرغم من أنّ المعلومات التي بلغت الخليفة جاءت عن طريق العيون، لكن هذه العيون لم تكن معيّنة من قبله، بل تطوعٌ من بعض المسلمين الذين يسكنون في هذه الولاية، مثل كتاب أبي الأسود الدؤلي الذي وجّهه للخليفة حول تصرفات والي البصرة عبد الله بن عباس الذي أصبح والياً بعد عثمان بن

حنيف، إذ كتب له أنّ الوالي أخذ عشرة الاف درهم من بيت المال، فكتب الخليفة للوالي يأمره برد هذه الأموال، وبالفعل أرجعت هذه الاموال إلى بيت المال[٩٣].

وكتب إلى أبي الأسود الدؤلي «أما بعد فقد فهمت كتابك، ومثلك نصح الإمام والأمة، ووالى على الحق، وفارق الجور، وقد كتبت إلى صاحبك، فيما كتبت فيه من أمره ولم أُعلمه بكتابك فيه، فلا تدع إعلامي ما يكون بحضرتك، مما النظر فيه للأمة صلاح»[٩٤].

ومن خلال قراءة هذا الرد نستنتج أنّه عيّن أبا الأسود عيناً للدولة بصورة رسمية في تلك الولاية، لاسيما أنّ هذا الأمر لا يعلم به إلا الخليفة وأبا الاسود، وعلى أثر هذه المعلومات الواردة كتب الخليفة إلى عبد الله بن عباس: «أيها المعدود عندنا من ذوي الألباب، كيف تسيغ شراباً وطعاماً وانت تعلم أنك تأكل حراماً وتشرب حراماً، وتبتاع الإماء وتنكح النساء من مال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم هذه الأموال، وأحرز بهم هذه البلاد، فاتق الله وأردد إلى هؤلاء أموالهم، فإنّك إن لم تفعل ثم أمكنني الله منك، لأعذرن إلى الله فيك، ولأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحدا إلا دخل النار، ووالله لو أنّ الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت ما كانت لهما عندي هوادة»[٩٥].

وهذه الرواية تثبت قضية أخرى في هذا الباب، هي أنّ المعالجة التي كان يقوم بها الخليفة للسلبيات التي يكتشفها نظام العيون، كانت بمستوى الخلل الذي قد ينتاب إدارة الدولة، إن لم تكن أكبر منه، فلم يكن الخليفة يترك شيئاً من المعلومات الواردة له إلا ودقق فيه، حتى يتثبت منه أنّه كان حقاً أو لا، ولا يترك شيء للصدفة وكان يحاسب أي شخص مهما كان وزنه الاجتماعي أو الديني،

والمثال الذي سقناه يدلل على هذا الأمر، لاسيما أنّ عبد الله بن عباس كان من أشد المقربين للخليفة.

وهذه الروايات المتقدمة تدل على أنّ الإمام علي عليه السلام كان لا يقبل بأقل التصرفات إساءة إلى أموال المسلمين أو إدارة الدولة، أو حتى التهاون أو العجز في إدارة هذه الأموال، ففي رواية أنّ العيون التي وضعها الخليفة في ولاية اصطخر، أبلغت الخليفة أنّ الوالي المنذر بن الجارود العبدي كان لا يهتم بعمله ويخرج للصيد ويلعب بالكلاب، فكتب له: «بلغني أنك تدع عملك كثيراً، وتخرج لاهياً بمنبرها، تطلب الصيد وتلعب بالكلاب»، ثم أرسل إليه الخليفة وعزله عن تلك الولاية[٩٦]، كما تذكر الروايات أنّ الخليفة عندما بلغه أنّ الوالي على أذربيجان الأشعث بن قيس الكندي، أخذ بعض الأموال من ولايته في عهد الخليفة عثمان بن عفان، عزله الإمام علي عليه السلام وأمره برد تلك الأموال، وكتب إليه: «إنّ عملك ليس لك بطعمة، ولكنّه في عنقك أمانة، وفي يديك مال من مال الله، وأنت من خزان الله عليه حتى تسلمه إلي»[٩٧]، ولما امتنع الأشعث عن رد تلك الأموال، لأنّه أخذها عندما كان والياً للخليفة عثمان بن عفان، هدّده الخليفة علي بن ابي طالب عليه السلام بالعقوبة الشديدة، ما لم يرجع تلك الأموال وقال له: «والله لئن لم تحضرها إلى بيت مال المسلمين، لأضربنك بسيفي هذا أصاب منك ما أصاب»، فأرجعها إلى بيت المال.

وعلى الرغم من أنّ بعض الروايات تذكر أنّه أخذها بعلم عثمان بن عفان[٩٨]، لكنه عندما أعلن برنامجه وعد المسلمين بأنّه سيرجع الأموال التي أخذت من بيت المال بغير حق، لذلك تتبع عمّال عثمان وأخذ منهم الأموال وأرجعها إلى بيت مال المسلمين[٩٩].

والملاحظ في جهاز العيون أنّه كان يتقصّى كل السلبيات التي يتعرف عليها، ويوصلها إلى الخليفة بسرعة، على الرغم من المسافة الكبيرة التي تفصل العاصمة عن بعض الولايات مثل أذربيجان، كما تبيّن أنّه كان يتابع بدقة كل الأشياء التي تحدث في الولايات الإسلامية، وقد نتعرف على هذا الأمر إذا قرأنا الكتاب الذي وجّهه الخليفة إلى والي المدينة سهل بن حنيف، والذي يشير إلى تسرّب بعض أهل المدينة والتحاقهم بمعاوية، «فقد بلغني أنّ رجالاً من أهل المدينة خرجوا إلى معاوية»[١٠٠].

وفي هذا دلالة على أنّ هذا النظام كان يعمل بدقة وفاعلية في كل أرجاء الدولة، ويعزز هذا الرأي معرفة الخليفة الدقيقة بكل التجاوزات التي قام بها بعض الولاة وعمّال الخراج على أموال المسلمين، والإجراءات التي اتخذها بحقهم إذ عزل قسماً منهم وعاقبهم، وهرب البعض الآخر والتحق بمعاوية، بعدما عرفوا أنّ الخليفة اكتشف أمرهم، كما اعتذر بعض منهم عن التصرفات التي بدرت منهم.

لكن على الرغم من الشدة التي أتصف بها الخليفة مع العمّال المقصرين، إلا أنّنا في الوقت نفسه نلمس منه حرصه على عدم تصديق كل المعلومات التي ترد إليه، فقد كان يرسل إلى الولاة والعمّال الذين ترد معلومات عنهم، ويتبع معهم مجموعة من الإجراءات لمعرفة حقيقة هذه الأعمال، ولا يعاقب أحد منهم إلا عندما يقرّ على نفسه بارتكاب الجناية، وعلى سبيل المثال عندما بلغه أنّ المنذر بن الجارود أخذ مبلغاً من المال من بيت مال المسلمين، كتب له كتاباً وعظه فيه وطلب منه أن يأتي إلى العاصمة: «أما بعد فإنّ صلاح أبيك غرني فيك، وظننت أنّك تتبع هديه، وتسلك سبيله،

فإذا أنت فيما رقى إلي عنك لا تدع لهواك انقياداً، وتبقى لأخرتك عتاداً، تعمر دنياك بخراب أخرتك، وتصل عشيرتك بقطيعة دينك، ولئن كان ما بلغني عنك حقاً لجمل أهلك وشسع نعلك خير منك، ومن كان بصفتك فليس بأهل أن يسد به ثغر، أو ينفذ به الأمر، أو يعلى له قدر أو يشرك في أمانة أو يؤمن على جباية، فأقبل إلى حين يصلك كتابي هذا إن شاء الله»[١٠١].

وعندما جاء إلى العاصمة عزله الخليفة عن تلك الولاية، ووضعه في السجن وقرّر تغريمه ثلاثين ألف درهم، إلا أنّ صعصعة بن صوحان أحد أصحاب الخليفة شفع له، من أجل إخراجه من السجن فحلف أنّه لم يأخذ من الأموال شيئاً لذلك أطلق سراحه[١٠٢].

لكنّه لم يعد لتولي العمل في تلك الولاية، نتيجة للسلبيات التي أثيرت عليه لاسيما عدم اهتمامه بعمله كما قدمنا.

كذلك فقد وردت للخليفة معلومات تفيد بأنّ مصقلة بن هبيرة عامل أردشير خرة، يأخذ من أموال المسلمين ويفرقها على من أتاه من قومه، فكانت هذه المعلومة سبباً توجيه الخليفة كتاباً لهذا العامل، وهذا الكتاب كان يتضمن توبيخاً شديداً لهذا العامل، وفيه أيضاً تهديد بالعقوبة، لكن في الوقت نفسه كان الخليفة يعرف أنّ بعض المعلومات قد تكون كيدية أو مبالغ فيها، لذلك نلمس في هذا الكتاب أنه كان يؤكد على أنّ المعلومات الواردة ليست بالضرورة أن تكون صحيحة، لذلك قال في هذا الكتاب: «فقد بلغني عنك أمر أكبرت أن أصدقه، إنّك تقسّم فيء المسلمين في قومك ومن اعتراك من السألة والأحزاب وأهل الكذب من الشعراء، كما تقسّم الجوز، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لأفتشن عن ذلك تفتيشاً شافياً، فإن وجدته حقاً لتجدن بنفسك عليّ هواناً،

فلا تكوننّ من الخاسرين أعمالا الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون إنهم يحسنون صنعا»[١٠٣].

وبالفعل فإن العامل كتب إلى الخليفة أنّه لم يأخذ أي شيء من أموال المسلمين، وأنّ المعلومات الواردة ليست صحيحة، فصدّقه الخليفة ولم يتخذ أي إجراء تجاهه[١٠٤].

أمّا عزله فقد كان سببه أنّه لم يسدد مبالغ من المال كانت بذمته لبيت مال المسلمين، إذ أنّه اشترى مجموعة من الأسرى بمبلغ من المال وأطلق سراحهم، فسدّد جزء من هذا المال، لكنّه عجز عن تسديد الجزء المتبقي منه، لذلك هرب إلى معاوية في الشام، على الرغم من أنّه لو أعتذر عن تسديد الأموال لأمهله الخليفة إلى حين توفر الأموال لديه، وهذا واضح من قوله: «فعل فعل السيد، وفرّ فرار العبيد، وخان خيانة الفاجر، أما أنّه لو أقام فعجز ما زدنا على حبسه، فإن وجدنا له شيئاً أخذناه، وإن لم نجد له مالاً تركناه»[١٠٥].

وفي الحالات التي كانت فيها المعلومات الواردة صحيحة، فإنّ الخليفة كان يحاسب هؤلاء المقصرين، وأول هذه العقوبات هو عزلهم عن العمل في إدارة الدولة، واسترجاع ما أخذوه من أموال بالنسبة للمتجاوزين على أموال المسلمين، وهذا واضح من خلال الرواية التي تذكر أنّ يزيد بن حجية والي الرّي، أخذ من أموال المسلمين وهو يظن أنّ الخليفة لا يعلم بالأمر، فأرسل إليه أن يقدِم إلى العاصمة فلما وصل إلى تفاجأ بأن الخليفة يعلم بسرقته لأموال المسلمين، فحبسه الخليفة إلا أنّه أستطاع أن يهرب إلى الشام ويلتحق بمعاوية[١٠٦].

وفي هذه الرواية إشارة واضحة إلى أنّ العيون هي التي نقلت هذه المعلومات الدقيقة للخليفة، كذلك فإنّ القعقاع بن

شور هرب إلى معاوية، بعدما عرف الخليفة أنّه أصدق امرأة مائة ألف درهم، لأنّه عرف أنّ الخليفة سيعاقبه على هذا العمل، لاسيما إنّ هذه الأموال أخذها من بيت مال المسلمين(١٠٧).

ومن المهم هنا أن نتحدث عن فرار العمّال الذين سرقوا الأموال إلى الشام حيث يستطيعون التمتع بما سرقوه، فعلى الرغم من أنّ الإمام علي عليه السلام كان قد سيطر على الدولة المترامية الأطراف عن طريق العيون، التي كانت توصل الأخبار إليه بسرعة، والعقوبات التي نفذها بحق بعض من هؤلاء، وعزل البعض الآخر.

إلا أنّ وجود معاوية في بلاد الشام وإعلانه التمرد في تلك الولاية الكبيرة الغنية بالأموال، والتي يسكنها أعداد كبيرة من المسلمين المسيطر عليهم من قبل معاوية بشكل مطلق، كان بمثابة شوكة في جنب الدولة الإسلامية، وهذه المشكلة سابقة لعهد الإمام علي عليه السلام وقد تطرقنا فيما سبق إلى بعض جوانب هذه المشكلة، لكن من المهم جداً القول أنّ السياسة الإدارية التي اتبعها عمر بن الخطاب كانت أحد الأسباب الرئيسة في هذه المشكلة، فعلى الرغم من أنه كان شديدا مع عماله، إلا أنه ولى مجموعة من العمال وهم لا يستحقون أن يتولوا إدارة الدولة أو أموال المسلمين.

وعندما عرف أنهم سرقوا أموال المسلمين، كان الإجراء الذي اتخذه معهم لا يتناسب مع حجم الإساءة التي اقترفوها، كذلك الحال مع معاوية الذي أطلق الخليفة عمر يده في بلاد الشام ولم يحاسبه فاصبح مسيطراً على تلك المنطقة المهمة، وزادت هذه السيطرة بعد أن تولى الخلافة عثمان بن عفان وجمع الشام كله له، الأمر الذي مكنه من إنشاء مملكة مستقلة متمردة على الخلافة في تلك المنطقة.

لذلك كان السراق يجدون ملجأ آمنا عند معاوية بعد هربهم، فأصبحت ولايته ملجأ للسراق والخارجين على القانون، فكانت الدولة في عهد الإمام علي عليه السلام كلما أرادت محاسبة أحد العمال سرق مال ولايته وهرب إلى معاوية، الذي بدوره يستقبله ويكرمه على سرقته ويرفع مقامه[١٠٨]، ليهيأ لغيرة القيام بالعمل نفسه، فهرب إلى معاوية كل من سرق أموال المسلمين، والذين أنفوا من حكم الإسلام، ليجدوا المال عند معاوية ويتبجحون بما سرقوه على الملأ في الشام، فاجتمع عند معاوية الكثير من قبائل العراق ووجوههم، ممن لم يستطع أن يعيش تحت ظل العدل الذي تميزت به دولة علي بن ابي طالب[١٠٩]، لأن البلاد الإسلامية في تلك المدة قامت فيها دولتان، الأولى دولة الإسلام دولة علي بن ابي طالب القائمة على العدل والمساواة بين المسلمين، والثانية دولة معاوية القائمة على شراء الضمائر بالأموال، ومعاوية لم يكن يهتم لصغار المسلمين وضعفائهم، حتى يساويهم بزعماء القبائل والوجهاء، أو يهتم بدافعي الضرائب من أهل الجزية والخراج، في مقابل توفير أموال لإدامة جهازه العسكري الذي يحارب به دولة علي بن ابي طالب، لذلك كان الكثير من المتنفذين والزعماء في العراق وغيره من المناطق، والتي يحكمها الخليفة ينظرون بإعجاب إلى سياسة معاوية تجاه الزعماء في الشام[١١٠].

فكان معاوية عندما يأتيه هؤلاء هاربين فيغدق عليهم الأموال ويقطعهم الأراضي، وكان قسم من هؤلاء عندما يهربون إلى معاوية يرحل معهم الكثير من أفراد قبائلهم، لأن أغلب هؤلاء كانوا من الزعماء، وهذا يدلل على أن هؤلاء كانوا يتطلعون إلى تقسيم تفاضلي، ولا

يساويهم مع أضعف المسلمين، ويريدوا أن يحصلوا على أموال أكثر من غيرهم، وعندما يأخذوا من الأموال لا يتعرضوا للحساب، وقد عبر مصقلة بن هبيرة عن هذا المعنى، عندما طالبه الخليفة بتسديد الأموال التي بذمته لبيت المال، فقال: (والله لو أن ابن هند ما يطالبني بها، أو ابن عفان لتركها لي، ألم تر إلى عثمان كيف أعطى الأشعث مائة ألف درهم من خراج أذربيجان في كل سنه)[١١١].

لذلك نرى أن بعض أصحاب الإمام علي عليه السلام على الرغم من معرفتهم بالمبادئ التي كان يعتنقها، اقترحوا عليه لما رؤوا هروب الزعماء والوجهاء إلى معاوية، أن يعطي بعض الأموال لهؤلاء الزعماء ولا يساويهم بعامة المسلمين، فقال له مالك بن الحارث الاشتر: (أنت تأخذ بالعدل وتعمل فيهم بالحق وتنصف الوضيع من الشريف، وليس للشريف عندك فضل منزلة على الوضيع، فضجت طائفة ممن معك عن الحق إذ عموا به، واغتموا من العدل إذ صاروا فيه، وصارت صنائع معاوية عند أهل الغنى والشرف، فتاقت أنفس الناس إلى الدنيا، وقل من ليس للدنيا بصاحب، وأكثرهم يجتوي الحق ويشتري الباطل، ويؤثر الدنيا، فإن تبذل المال يا أمير المؤمنين تمل اليك أعناق الرجال، وتصف نصيحتهم وتستخلص ودهم)[١١٢].

لكن الإمام عليه السلام رفض هذا الامر بشدة، ولم يكن يهمه هروب مجموعة من السراق والأشراف الذين كرهوا شرعة المساواة والعدل، فقال للأشتر: «وأما ما ذكرت من بذل الأموال واصطناع الرجال، فإنه لا يسعنا أن نؤتي امرأ من الفيء أكثر من حقه»[١١٣].

لذلك فإن النظام الذي وضعه الخليفة من أجل السيطرة على إدارة الدولة، كان يواجه هذه المشكلة، إذ كلما عاقب الخليفة أحد هؤلاء المقصرين هرب إلى

معاوية، الذي حول الشام إلى مركز لتجمع الخارجين عن القانون والنظام.

لكن على كل حال فإن العيون التي وضعها الخليفة في أرجاء الدولة الإسلامية، كانت قد أدت المهمة التي أوكلت إليها، ولم يستطع أي من الولاة او العمال التلاعب بأموال المسلمين، دون أن يعرف به الخليفة ويتخذ الاجراء المناسب بحقه.

وقبل أن نختم هذا الموضوع لابد من الإشارة إلى نقطة مهمة جدا، وهي ظهور سلبيات على الولاة وعمال الخراج، مع أن الإمام عليه السلام كان يدقق في اختيار هؤلاء، ولا يعين أحد منهم إلا بعد توفر مجموعة من المميزات فيه كما ذكرنا سابقا، ونحن نعتقد إن هذه المسألة كانت للخليفة علي بن ابي طالب أكثر من كونها عليه، لأن هذا السلبيات كانت موجودة بكثرة في المدة التي سبقت خلافته والمدة التي تلتها، لكن لم تكن هناك محاسبة لهؤلاء، فلم يضطر أحد من الولاة أو العمال أن يهرب بأموال المسلمين، مادام يتصرف كيفما يشاء ودون حساب، أما عهد علي بن ابي طالب فقد اختلفت الأمور، فهو لا يرضى بأي تصرف مهما كان بسيطا، إذا لمس فيه إساءة للمسلمين أو لأموالهم، كما أن هؤلاء الذين عينهم ممن توافرت فيهم الصفات المطلوبة لإشغال هذه الوظائف، ولم تسجل عليهم ملاحظات قبل قيامهم بالعمل، والسلبيات التي ظهرت كانت بعد مباشرتهم في أعمالهم، لذلك لا يتحمل الخليفة الإساءات التي ظهرت منهم، لاسيما أنه لم يسمح لهم بالاستمرار في الإساءة فعزل قسم منهم وعاقب القسم الآخر.

كما أن كثرة العقوبات التي قد يلام عليها الخليفة من قبل الذين يؤمنون بأن حكم الدولة يجب أن يراعي الواقع، فهو أمر مرفوض عند الإمام علي عليه

السلام، لأنه كان يسعى في دولته إلى بناء الإنسان إذ لم يكن رجل حكم وسياسة فقط، بل هو صاحب عقيدة قائمة على مبادئ إلهية، منسجمة مع رؤية حضارية تميز بها الإمام علي عليه السلام، وهو لا يحكم وفق سلطة زمنية يراعي فيها الواقع وما يفرضه عليه، حتى لو كان هذا الواقع يخالف مبادئه، بل كان مصداقاً للتمثيل الحقيقي للدعوة الإسلامية، إذ كان لا يهتم كثيرا بالمنافع الآنية، بقدر اهتمامه بالقضايا الاستراتيجية العليا التي أراد الإسلام بناءها.

لذلك سعى إلى بناء نظام تربوي لهؤلاء الولاة، فلم يولهم محاباة ولم يخترهم قربة إلى نفسه، بقدر ما اختارهم سفراء لدولة الإسلام، وواجهه لها أمام الناس فكان حريصا على أن يعكسوا هذه الصورة، وإذا لم يستطيعوا تحمل هذه المسؤولية فالخليفة في غنى عنهم، ليأتي أحد غيرهم يتولى ما عجزوا عن تحقيقه، ومثالنا على ذلك والي البصرة الصحابي عثمان بن حنيف، وهو ممن ساروا على خط علي بن أبي طالب ولم يتخاذلوا عنه، لم يتركه يتصرف على هواه، بل شمله التدقيق في عمله، ونظام العيون لم يستثنه على اعتباره من الصحابة، أو لقربه من الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، والأمثلة كثيرة في هذا الباب ذكرنا قسماً منها عند الحديث عن الولاة وعمال الخراج.

٢. التفتيش الإداري

يعد التفتيش الإداري الذي مارسه الإمام علي عليه السلام في الولايات الإسلامية، الجزء الثاني المهم من الرقابة الإدارية على إدارة الولاة وعمال الخراج لأموال المسلمين، والممارسات التي يقومون بها في مناطق عملهم، سواء مع المسلمين أو غير المسلمين من أهل الخراج والجزية، أو مع الموظفين الذين يعملون بمعيتهم، وكان هذا النظام يستند على

محورين مهمين، أولهما إرسال مفتشين إلى المناطق، أو استدعاء الخليفة لهؤلاء الولاة ومراجعة حساباتهم المالية والتدقيق على تصرفاتهم.

وهؤلاء المفتشون لم يحدد لهم الخليفة وقت من أجل القيام بهذا العمل، بل يرسلهم حسب الحاجة إلى هذا الإجراء، كما أنه لا يوجد موظفين خاصين للقيام بهذه المهمة، بل كان الخليفة يرسل من يثق به من أجل القيام بهذه المهمة، ومن النصوص الواردة لنا عن هذا الإجراء هو تكليف الخليفة لمالك بن كعب الأرحبي عامل عين التمر، بالقيام بمهمة التفتيش في أراضي السواد، وقد أمره الخليفة بأن يختار أحد الأشخاص لتولي عمله، ثم يخرج بمجموعة من ثقات أصحابه، ليقوموا بمهمة التفتيش في هذه المنطقة الواسعة، والمهمة جدا لأنها كانت أغنى المناطق الزراعية في الدولة الإسلامية، وقد حدد له المهمة التي يجب القيام بها، والتي يمكن أن نلخصها بأنه طلب منه أن يمر بجمع قرى السواد من دون استثناء، من أجل سؤال الناس الذين يسكنون في هذه المناطق عن رأيهم بالعمال الذين يتولون جباية الخراج والجزية وغيرها من الضرائب، وعن مدى أمانة هؤلاء العمال مع أموال المسلمين، كما أمره أن يتعرف على سيرة هؤلاء العمال بين الناس، وكيف يتعاملون معهم[١١٤].

وهنا يمكن القول إن الخليفة اعتمد في معلوماته على عدة قنوات، من أجل أن تكون عنده صورة كاملة لإدارة الدولة، فهو يستقي جزء من معلوماته من العيون التي وضعها في الولايات والمدن، ثم يرسل بعض الأشخاص من أجل التدقيق في عمل الولاة وعمال الخراج والجزية، وهؤلاء يقومون بنقل تصرفات هؤلاء العمال بأمانة للخليفة، يقومون أيضا بمهمة أخرى هي حمل حصة العاصمة من أموال تلك الولايات، فتذكر

الروايات أن الخليفة أرسل أحد الموظفين إلى ولاية فارس، وهناك التقى بالوالي زياد بن ابيه، لكن هذا الموظف اكتشف أن الأموال ناقصة، وعندما سأل الوالي عن سبب النقص، برر الأخير الأمر بأن مجموعة من الأكراد الساكنين في تلك المنطقة، لم يدفعوا ما عليهم من أموال، وطلب من هذا الموظف عدم إخبار الخليفة بالأمر، بدوره لم يمتثل لهذا الطلب لأن مهمته كانت تفتيشية بالدرجة الأولى، لاسيما إذا عرفنا إن كل الولايات الإسلامية هي التي تبعث الأموال للعاصمة، ولا توجد حاجة إلى إرسال موظف من أجل استلامها، إلا إذا عرفنا أن هذا الموظف قد أرسل من أجل التدقيق.

وبالفعل نقل هذا الموظف هذه السلبيات للخليفة، فوجه الخليفة كتابا إلى هذا الوالي من أجل معالجة المشكلة أو تحمل النقص في الأموال: «يا زياد، اقسم بالله أنك لكاذب ولئن لم تبعث بخراجك لأشدن عليك شده؟ تجعلك قليل الوفر[١١٥]، ثقيل الظهر[١١٦]، إلا أن تكون لما كسرت من الخراج محتملا»[١١٧].

كما أرسل الخليفة أحد مواليه ويسمى سعد من أجل جلب بعض الأموال الفائضة في ولاية البصرة، وكما قدمنا فإن هذا المبعوث كانت مهمته تتضمن التفتيش في تلك الولاية أيضا، ونقل الأخبار إلى الخليفة، وبالفعل فقد نقل هذا الموظف إلى الخليفة، أن مسؤول بيت المال في ولاية البصرة زياد بن ابيه، كان يتكبر على الناس وقد أهان هذا الموظف، وكان لا يقتصد بإنفاق الأموال.

لذلك كتب له الخليفة من أجل استيضاح هذه المعلومات الواردة له، لاسيما أن زياد كان من الموظفين الكفوئين في خلافة علي بن ابي طالب،

الـذين ولاهـم مجموعـة مـن الاعمـال الإدارية والمالية فنجح فيها بدرجة كبيرة، فكـان الكتـاب الموجـه إليـه يحتـوي علـى تحذير شديد من عواقب هذه الأعمـال إذا كانت صحيحة: «فإنك شتمت رسولي وزجرته، وبلغني أنك تبخر وتكثر من الأدهـان وألـوان الطعـام، وتـتكلم علـى المنبر بكلام الصديقين، وتفعل إذا نزلت أفعـال المحلـين، فـإن يكـن ذلـك كـذلك فنفسـك ضـررت وأدبـي تعرضـت....، ومـا حملـك أن تشـهد النـاس عليـك بخلاف ما تقول، ثم على المنبر حيث يكثر عليك الشاهد، ويعظم مقت الله لـك، بـل كيـف ترجـو وأنـت متهـوع في النعيم جمعته من الأرملة واليتيم، أن يوجب الله لك أجر الصالحين».

فأنكر زياد أنه كان يتكبر أو يسرف في الإنفـاق، وأن الموظـف الـذي أرسـله الخليفـة إلى ولايتـه نقـل معلومـات غـير دقيقـة للخليفـة، نتيجـة لسـوء التفـاهم الذي حدث بينهما[١١٨].

ومن هذه الرواية نستنتج شيئين مهمين هما أن الرقابة كانت مستمرة على الموظفين فـلا يسـتطيع أحـد منهم أن يتجـاوز علـى الأموال أو الناس.

كـذلك فـإن الخليفـة لا يأخـذ كـل المعلومـات الـواردة لـه دون تـدقيق، بـل يتثبت من هـذه المعلومات قبل إصدار أي حكـم، وهـذا نلمسـه مـن الروايـة السـابقة ففـي الكتـاب كـان يسـأل زيـاد عـن هـذه المعلومات ولم ترد رواية تدل على أنه اتخذ أي إجراء ضده.

أما الجانب الآخر من التفتيش فهو إرسال الخليفة للعمال والولاة من أجل الحضور إلى العاصمة وتدقيق حساباتهم وأعمالهم، وهـذا الإجـراء كـان مكمـلا لإرسال الموظفين إلى الولايات.

ويمكـن أن نلمـس مـن خـلال الروايـة الـتي تـذكر أن الخليفـة أرسـل إلى والـي

اذربيجان الأشعث بن قيس من أجل الحضور إلى العاصمة[١١٩].

بعد أن بلغه أن هذا الوالي أخذ بعض الأموال من ولايته، فلما حضر إلى العاصمة ألزمه إرجاع الأموال إلى بيت المال[١٢٠].

٣. الرقابة الشعبية على الولاة والعمال:

جعل الإمام علي عليه السلام الناس الذين يسكنون في الولايات الإسلامية، سواء كانوا مسلمين أو من أهل الذمة يراقبون تصرفات الولاة والعمال، ويشخصون الأخطاء التي تحصل من هؤلاء، وأمرهم بإيصال أي سلبية يرونها في ولاياتهم إليه مباشرة، أما عن طريق الكتابة له، أو عن طريق المجيء إلى العاصمة وتقديم الشكاوي.

وهذه الطريقة في تشخيص الأخطاء جعلها الإمام علي عليه السلام حاكمة على تصرفات الولاة في المناطق البعيدة عن العاصمة، وهي بمثابة رافد آخر للرقابة المالية والإدارية من أجل السيطرة الكاملة على الإدارة في كل أنحاء الدولة الإسلامية.

لذلك اتبع الإمام علي عليه السلام مجموعة من الوسائل، من أجل تفعيل هذه الرقابة الإدارية، ومن هذه الوسائل التي اعتمدها الخليفة، المخاطبة المباشرة للناس عندما يعين أحد الأشخاص في عمل ما، وهذه المخاطبة على نوعين أما إلقاء كلمة يجعل فيها الرعية رقيبة على الوالي أو العامل، أو إلزام هؤلاء بقراءة كتب التعيين على الناس عندما يتولوا أعمالهم كما سيأتي، ويمكن التعرف على النوع الأول من الخطاب الموجه من الخليفة للناس، عندما ولى عبد الله بن عباس على البصرة بعد معركة الجمل، إذ خطب الناس في المسجد وقال لهم: «يا معشر الناس قد استخلفت عليكم عبد الله بن العباس، فأسمعوا له وأطيعوا

أمره ما أطاع الله ورسوله، فإن أحدث فيكم أو زاغ عن الحق فأعلموني أعزله عنكم، فإني أرجو أن أجده عفيفا تقيا ورعا، وإني لم أوله عليكم إلا وأنا أظن ذلك به غفر الله لنا ولكم»[١٢١].

وهذا يعني أن أمر بقاء الوالي أو عزله مرتبط بطاعته لله والرسول صلى الله عليه وآله وسلم أولا، والعمل بمبادئ الإسلام التي تقوم على العدل والمساواة، ثم جعل الناس مصدر الرقابة على الوالي، فهو باق في عمله مادام يعمل بالحق، فإذا زاغ عن هذا المنهج فإن الخليفة خول الناس بالكتابة له، من أجل معالجة هذا الموضوع، ومن اللافت للنظر في هذا الكتاب، أن الخليفة أعطى هذا الحق للناس في الكتابة له إذا رؤوا أي إساءة من الوالي لهم، مع أن أكثرهم اشترك في معركة الجمل، وحاربوه مع طلحة والزبير وعائشة، إلا أنه لم يتأثر بهذا الأمر، وأعتبرهم رعايا للدولة يجب أن يحقق العدل المطلق لهم، وهذا الأمر ليس من باب كسب ودهم، أو سعيه لاستقرار الأمور في دولته الناشئة، بل هو جزء من عقيدته التي نرى فيها تطبيق مبدأ العدالة المطلقة مع رعايا الدولة، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين موالين له أو لا، وبالفعل فقد كتبت قبيلة تميم إحدى القبائل التي كانت تسكن البصرة للخليفة أن الوالي عبد الله بن عباس كان يستعمل الشدة في معاملتهم، نتيجة لمساندتهم للمتمردين في معركة الجمل، فأرسل الخليفة للولي كتابا يلومه فيه على هذا التصرف الغير المقبول بحق الناس، لاسيما أن الخليفة أصدر عفوا عاما عن كل المشتركين بتلك المعركة، ولم يستخدم وسائل انتقامية مع أعدائه، فكتب له: «وقد بلغني تنمرك لبني تميم، وغلظتك عليهم وأن بني تميم لم يغب لهم نجم إلا طلع لهم اخر، وأنهم لم يسبقوا بوغم في جاهلية أو إسلام، وإن لهم بنا رحم

ماسة، وقرابة خاصة، نحن مأجورون على صلتها، ومأزورون على قطيعتها، فأربع أبا العباس رحمك الله فيما جرى على يدك ولسانك من خير أو شر، فإنا شريكان في ذلك، وكن عند صالح ظني بك، ولا يفيلن رأيي فيك»[١٢٢].

أما قراءة كتب تعيين الولاة والعمال على الناس، فقد كان الهدف منه أن يكون هؤلاء الساكنين في تلك المناطق مراقبين لأداء هذا الوالي أو العامل، ويمكن أن نأخذ مثلا على ذلك كتاب تعيين سعد بن قيس بن عبادة عندما ولاه على مصر، إذ كتب لأهل مصر: «وقد بعثت إليكم قيس بن سعد الأنصاري أميرا فوازروه وأعينوه على الحق، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم، والشدة على مريبكم والرفق بعوامكم وخواصكم، وهو ممن أرضى هديه وأرجو صلاحه ونصيحته، نسأل الله لنا ولكم عملا زاكيا وثوابا جزيلا ورحمة واسعة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[١٢٣].

وهذا معناه أن الخليفة عرف الرعية بحقوقهم، بحيث لا يستطيع أي والي أن يتجاوز على حقوقهم على الرغم من ثقة الخليفة بقيس وبسيرته.

كذلك كتاب تعيين محمد بن ابي بكر الذي ولاه الخليفة على مصر بعد عزل قيس بن سعد، إذ قرأه الوالي الجديد على أهل مصر عندما وصل إليها، وفي هذا الكتاب توصيات وتشديد على الوالي في الحفاظ على حقوق الرعية، ونلمس تعريف الناس بحقوقهم وواجباتهم التي حددها الخليفة لهذا الوالي، والتي عرفها الناس من خلال قراءة هذا الكتاب عليهم، لذلك لا يستطيع أن يتلاعب بالأموال أو يظلم أحداً، وسنذكر جزء من هذا الكتاب: «هذا ما عهد به أمير المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر حين ولاه مصر، أمره بتقوى الله

والطاعة له في السر والعلانية، وخوف الله في المغيب والمشهد، وأمره باللين للمسلم وبالغلظة على الفاجر، وبالعدل على أهل الذمة، وبالإنصاف للمظلوم، وبالشدة على الظالم، وبالعفو على الناس، وبالإحسان ما أستطاع، والله يجزي المحسنين، ويعذب المجرمين، وأمره أن يدعو من قلبه إلى الطاعة والجماعة، ... وأمره أن يجبي خراج الأرض على ما كانت تجبى عليه من قبل ولا ينتقص ولا يبتدع ثم يقسمه بين أهله كما كانوا يقسمونه عليه من قبل»[١٢٤].

كذلك فإن الخليفة أعطى الحق للناس بالكتابة إليه مباشرة في حال ظلمهم الوالي أو تجاوز على الأموال، لأن الوالي يعد أعلى سلطة في الولاية، فتكون الشكوى مقدمة إلى من هو أعلى منه في هرم السلطة وهو الخليفة، وقد رأينا ذلك في كتابة قبيلة تميم للخليفة عن تجاوز الوالي عليهم، لكن هذا الأمر سبقه توجيهات للولاة وعمال الخراج، في تلقي الشكاوى المباشرة من الناس، سواء كانت هذه الشكاوى على العمال الذين يعينهم الوالي في الإدارة المالية، أو الذين يعملون في جباية الضرائب من الناس، ويمكن أن نعرف هذا الأمر عندما نقرأ بعض فقرات الكتاب الذي أعطاه الخليفة لمالك بن الحارث الاشتر لما ولاه على مصر: «أنصف الله وأنصف الناس من نفسك، ومن خاصة أهلك، ومن لك فيه هوى من رعيتك، فإنك ألا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله، كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدحض حجته، وكان لله حربا حتى ينزع أو يتوب، وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته، من إقامة على ظالم فإن الله سميع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد»[١٢٥].

ويمكن القول إن مثل هذا التوصيات لم تكن موجه لمالك الأشتر فقط، بل هي تعليمات يعمل عليها جميع الولاة

والعمال في أرجاء الدولة الإسلامية، وجميع أوامر التعيين التي أصدرها الخليفة لهؤلاء الموظفين كانت تتضمن تعليمات قريبة من هذا النص، ولا يخفى إن الهدف من هذا النص، هو إن الوالي يجب أن يستشعر هموم الناس البسطاء، ويعالج أي ظلم يقع عليهم، وهذه هي المرحلة الأولى التي أرادها الخليفة من الولاة والعمال، لذلك أوصاهم بضرورة أن تكون أبوابهم مفتوحة لاستقبال الناس في ولاياتهم، بدون أن يكون هناك حجاب يفصلهم عن رعاياهم، أو وجود مجموعة من الأشخاص يشكلون حاجزا بين الوالي أو العامل وبين الناس، فكتب بعض الكتب لهؤلاء في المعنى المتقدم، إذ تذكر الروايات أنه كتب لمالك الاشتر: «وأما بعد فلا تطولن احتجابك عن رعيتك، فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق، وقلة علم بالأمور»[١٢٦].

وفي كتاب آخر وجهه إلى قيس بن سعد: «فألن حجابك، وأفتح بابك، وأعمد إلى الحق»[١٢٧]، وفي بعض الحالات التي يقع الظلم على الرعية من الوالي نفسه، ولا يجدون في ولاياتهم من ينصفهم منه، يكتبون إلى الخليفة مباشرة، وهذه الكتابة لم تقتصر على المسلمين فقط، بل تعدت ذلك إلى غير المسلمين، لأن رعايا الدولة لم يكونوا من المسلمين فقط، بل كان هناك مجاميع كبيرة تعيش في ظل الدولة من الفلاحين والصناع والتجار من غير المسلمين، ففي رواية أن الدهاقين في ولاية أصفهان كتبوا إلى الخليفة، أن عامل الخراج عمرو بن سلمة الأرحبي كان لا يعاملهم باحترام، ويقسو عليهم ويحتقرهم، لذلك كتب اليه الخليفة كتابا يأمره بتغيير هذا السلوك، مع هؤلاء الفلاحين الذين هم الركيزة الأساسية لاقتصاد الدولة، ونموذج التعايش بين المسلمين وغيرهم،

وعليه فإن عدم دخولهم للإسلام يجب أن لا يكون مدعاة لاحتقارهم، «أما بعد فإن دهاقين بلدك شكوا منك غلظة وقسوة، واحتقارا وجفوة، ونظرت فلم أرهم أهلا لأن يدنوا لشركهم، ولا يقصوا ويجفوا لعهدهم»[١٢٨].

وعندما تحدث خيانة من أحد العمال كان الناس الذين يسكنون في تلك الولاية، أحد المصادر التي يعتمد عليها نظام الرقابة، من أجل تأكيد أو نفي التهمة عن شخص الوالي أو العامل، ومن الأمثلة على ذلك الشكوى التي قدمها بعض المسلمين، الذين كانوا يسكنون في إصطخر ضد عامل هذه المدينة المنذر بن الجارود العبدي[١٢٩]، ومفاد هذه الشكوى أن هذا العامل سرق بعض الأموال من تلك المدينة، لذلك عندما وردت للخليفة هذه المعلومات نفسها من جهاز العيون أحضر هذا العامل وعاقبه وعزله عن تلك الولاية.

وفي بعض الحالات كان الناس يفدون إلى الخليفة من أجل تقديم الشكاوى ضد الولاة والعمال، إذ تذكر الروايات أن سودة بنت عمارة ومجموعة من قومها، قدموا إلى العاصمة لتقديم شكوى ضد عامل الصدقات في المنطقة التي يسكنون فيها.

لأنه كان لا يلتزم بالأوامر التي أصدرها الخليفة، والمتعلقة في كيفية جباية هذه الصدقات، مما نتج عنه ظلم في الجباية والتوزيع، وكانت هذه المرأة هي التي تحدثت مع الخليفة عن الأمر لذلك عندما سمع الخليفة هذه الشكوى تأثر كثيرا نتيجة للإساءة التي صدرت من هذا العامل، وبكى لأن الظلم وقع على رعايا دولته، ثم رفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم أني لم أمرهم بظلم خلقك ولا ترك حقك».

ثم كتب كتابا إلى العامل يأمره بحفظ الأموال التي بحوزته، لحين تعيين شخص آخر يتولى المهمة بدلا منه: «بسم الله

الرحمن الرحيم قد جاءتكم بينه من ربكم فأوفوا الكيل والموازين بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ، إذا أتاك كتابي هذا فأحفظ بما في يديك، حتى يأتي من يقبضه منك والسلام»[١٣٠].

لكن هذا الإجراء الذي اتخذه الخليفة تبعه بالتأكيد تدقيق في صحة الشكوى المقدمة من الأهالي ضده، إذ ليس من المعقول أن يعاقبه بدون تدقيق، وربما الشخص الذي سيقبض الأموال منه كان هو الذي يدقق في هذه الشكوى.

الخاتمة

بعد أن انتهينا من بحثنا يمكننا القول إن الإمام علي عليه السلام عندما استلم الخلافة وجد الدولة الإسلامية تعاني من اقتصاد مستغل، قائم على تمتع مجموعتين من المسلمين بالأموال وهما أسرة الخليفة عثمان والصحابة الأوائل، إذ توزع المجتمع إلى طبقتين طبقة لا تجد قوت يومها، وطبقة لا تعرف كيف تنفق الأموال، وكل هذا في ظل دولة تعتنق الدين الإسلامي الذي يعد العدالة أهم مبادئه، وزاد الأمر سوءاً أن الكثير من المقربين من الخليفة استطاعوا السيطرة على بعض أراضي وأموال الدولة، فعمل الخليفة على إلغاء الطبقية التي بدأت في الظهور في المجتمع الإسلامي، من خلال توزيع أموال الدولة على المسلمين بالتساوي، ثم أرجع الأموال والأراضي التي أخذت من الدولة، لذلك يمكن القول بأن الخليفة استطاع أن يواجه كل الصعوبات التي شهدتها خلافته، بحيث شعر المسلمون لاسيما الفقراء منهم بأنهم يعيشون في ظل دولة توفر لهم العدل والمساواة مع غيرهم. فاستطاع إيجاد تنظيم دقيق لمسألة جمع الضرائب وتوزيعها، ففي مجال الجباية أوجد الخليفة آلية تقوم على الرفق واللين عند جباية الضرائب،

ورفض أي عمل يؤدي إلى الإضرار بدافعيها، وفي مجال توزيع الأموال أوجد الخليفة آلية تقوم على التوزيع السريع لهذه الأموال وتجنب خزنها، انطلاقا من حاجة المسلمين إلى هذه الاموال، وبذلك يكون قد غير السياسة التي كانت سائدة قبله، والتي كانت قائمة على خزن الأموال وإبقائها لمدة طويلة في بيت المال. فوضع الإمام علي عليه السلام نظاماً إدارياً متكاملاً من أجل إدارة أموال الدولة الإسلامية، وذلك من خلال تغيير الكادر الإداري الذي شكى منه المسلمون في عهد الخليفة عثمان، وإيجاد ضوابط مشددة في اختيار الولاة والعمال من اجل الحفاظ على الاموال، ثم وضع آليات لمراقبة أداء هؤلاء الموظفين مثل التفتيش الإداري، ونظام العيون وغيرها، فأسهمت هذه الآليات في منع الموظفين من التجاوز على الأموال، كما أنه ربط الولايات والمدن الإسلامية بالعاصمة وفق نظام لامركزي، مع إبقاء رقابة الخليفة على أداء الولاة، أي إنه أعطى الولاة صلاحيات واسعة من أجل إدارة الولايات بصورة أفضل، لكن هذه الصلاحيات كانت تجمد حالما يكون هناك تجاوز على الأموال.

وكانت أهم نتيجة خلص إليها البحث هي أنّ العدل الذي تمسك به الإمام علي عليه السلام وطبّقه في دولته أستمر بالبقاء إلى يومنا هذا، بينما الظلم والجور الذي وقع على المسلمين من الحكام الظلمة انتهى بصفحات سوداء كتبها المؤرخون عن هؤلاء الحكام، فعلى الرغم من أن الدولة التي أسسها الإمام علي (عليه السلام) كانت مدتها قليلة، لكن الناس رؤوا فيها ثمار العدالة، فعاشوا منعمين لا يخافون الظلم من السلطة، التي شعروا بأنها حامية لهم ولمصالحهم، أما عدم الاستقرار التي مرت به دولته، فقد كان سببه عدم رضى المنتفعين والأثرياء عن

هذه الدولة التي ساوتهم بالبسطاء، لذلك وقف هؤلاء ووحدوا صفوفهم على الرغم من اختلاف توجهاتهم من أجل إسقاط هذه الدولة، لكنهم فشلوا في هذا الأمر ولم ينجدهم سوى اغتيال الإمام علي عليه السلام.

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٢٩ - ٢٣٠، ابن حجر، الاصابة، ٥٥٣/٦.

(٢) اعطى خالد بن الوليد مبلغ عشرة آلاف درهم للأشعث بن قيس الكندي.

(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢٦٦/١٦، ابن كثير، البداية والنهاية، ٩٣/٧، نجمان ياسين، الأوضاع الاقتصادية، ص٢٣٤.

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١٤٩/٣، المتقي الهندي، كنز العمال، ٤٧٧/٤.

(٥) ابو عبيد، الأموال، ص٢٦٨، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٥٧/٢، ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٩٤.

(٦) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٤٥/١.

(٧) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٣٤.

(٨) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٥٧/٢، المجلسي، بحار الانوار، ٣٠٣/٣٠.

(٩) المجلسي، بحار الانوار، ٣٠٣/٣٠.

(١٠) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ١١٢/٥٩.

(١١) تميم الداري.

(١٢) ابن حزم، المحلى، ٢٧٤/٢، الهيثمي، مجمع الزوائد، ٢٢٢/٢.

(١٣) النعمان المغربي، دعائم الاسلام، ١٦٤/٢، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ١١٥/٥٩، الذهبي، سير اعلام النبلاء، ١٣٤/٣.

(١٤) لمزيد من التفاصيل ينظر: الشرهاني، التغير في السياسة المالية، ص٩٣-١٨٧.

(١٥) بخيت، عصر الخلفاء الراشدين، ص٢٤٦.

(١٦) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٨٠/٢.

(١٧) الصنعاني، المصنف، ٤٥٦/٥، ابن شبة النميري، تاريخ المدينة، ٨٣٧/٣، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٣٣٩/٣، ابن عساكر، تاريخ دمشق،

٢٨٤/٤٧، ابن الأثير، أسد الغابة، ٤٨٥/٤ـ٤٨٦.

(١٨) الصنعاني، المصنف، ٤٥٦/٥، البخاري، التاريخ الصغير، ٧٣/١، البلاذري، فتوح البلدان، ص١١٤، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٣٣٩/٣، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢٥٢/٣٩.

(١٩) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٧٥/٢، الطبري، تاريخ الامم والملوك، ٤٠٢/٣، ابن أعثم، الفتوح، ٤١٦/٢ـ٤١٧.

(٢٠) الصنعاني، المصنف، ٤٥٦/٥، البخاري، التاريخ الصغير، ٧٣/١، البلاذري، فتوح البلدان، ص١١٤، الطبري، تاريخ الامم والملوك، ٣٣٩/٣، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢٥٢/٣٩.

(٢١) اليوزبكي، النظم الإسلامية، ص٥٥.

(٢٢) النعمان المغربي، دعائم الإسلام، ٣٦١/١، ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٣٧، المجلسي، بحار الأنوار، ٢٥٣/٧٤.

(٢٣) شمس الدين، دراسات في نهج البلاغة، ص٦٨ -٦٩.

(٢٤) العيساوي، النظم الإدارية والمالية، ص٨٦.

(٢٥) ابن الأثير، أسد الغابة، ٣٧١/٣، ابن حجر، الإصابة، ٣٧٢/٤.

(٢٦) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٤٧١/٣، ابن الأثير، أسد الغابة، ٢٦٤/٣ـ٢٦٥، ابن حجر، الإصابة، ١٦٦/٣.

(٢٧) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٤٨٤/٣، ابن حجر، الإصابة، ٢٠٠/٢.

(٢٨) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ١٧٤/١، ابن الأثير، أسد الغابة، ٣٩١/١.

(٢٩) ابن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٠٥، ابن الاثير، اسد الغابة، ٣٩١/١.

(٣٠) النسائي، السنن الكبرى، ٥١/٥، ابن الاثير، اسد الغابة، ٣/ ١٩٢ ـ ١٩٤،

الذهبي، سير اعلام النبلاء، ٣/٣٣١ ـ ٣٣٢.

(٣١) الصنعاني، المصنف، ١١/٦٤، ابن سعد ،الطبقات الكبرى، ٣/٦١٣.

(٣٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٤٩/٤٠٦، ابن الاثير، اسد الغابة، ٤/ ٢١٥ ـ ٢١٦، الهيثمي، مجمع الزوائد، ٩/٣٤٥.

(٣٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٦/ ١٥، ابن الاثير، اسد الغابة، ١/ ٣٢٧، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢/٤٤٩ـ٤٥٤.

(٣٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٩٢، ابن الاثير، اسد الغابة، ٤/ ٢٠٢.

(٣٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/٢٣٩ ـ ٢٤٠، الذهبي، سير اعلام النبلاء، ١/ ١٥٠، ابن حجر، الإصابة، ٤/ ١٣١ـ١٣٣.

(٣٦) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٨/ ٨٧، ابن حجر، الإصابة، ٤/ ٤٨٧.

(٣٧) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٦/ ٣٥، البخاري، التاريخ الكبير، ٨/ ٥٢، ابن الأثير، أسد الغابة، ٤/ ٣٣٩.

(٣٨) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٤/ ٢٩٢، ابن الأثير، أسد الغابة، ٢/ ٣٥١.

(٣٩) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٤٤، ابن الأثير، اسد الغابة، ٣/ ٢٧٨، ابن حجر، الإصابة، ٤/ ٢٣٨.

(٤٠) ابن الأثير، اسد الغابة، ٣/ ٢٧٨، ابن حجر، الإصابة، ٤/ ٢٣٨، الهيثمي، مجمع الزوائد، ٢/ ٦٩.

(٤١) شمس الدين، دراسات في نهج البلاغة، ص٦٩.

(٤٢) العيساوي، النظم الإدارية والمالية، ص٨٣.

(٤٣) ابن الأثير، أسد الغابة، ٢/ ٢٨٣، ابن حجر، الإصابة، ٣/ ٥٥.

(٤٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ٦١٣، ابن حجر، الإصابة، ٣/ ٥٥.

(٤٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ٦١٣، ابن الأثير، أسد الغابة، ٢/ ٢٨٣، ابن ابي

الحديد، شرح نهج البلاغة، ٦٥/٦، ابن حجر، الإصابة، ٥٥/٣.

(٤٦) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٧٥/١ـ ٩٢، ابن حبيب، المنمق، ٤٢ ـــ ٦٨، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢٤٣/١ ـ ٢٥٣، الطبري، تاريخ الامم والملوك، ٨/٢ ـ ١٤، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٠٠/١٥ـ٢٣٥.

(٤٧) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٠١/١ـ ٢١١، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٣١/٢ ـ٣٢، الطبري، تاريخ الامم والملوك، ٢/ ٦٢ ـ ٨٠.

(٤٨) ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٥٤/١٨، المجلسي، بحار الأنوار، ٥٠٦/٣٣.

(٤٩) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٥٥٩/٥ ـ ٥٦٠، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٥٥/١٨.

(٥٠) البلاذري، انساب الأشراف، ص١٥٩، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٧٤/١٦.

(٥١) ابن الأثير، أسد الغابة، ٢٦/٥ ، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٧٤/١٦.

(٥٢) ابن الأثير، أسد الغابة، ٢٦/٥، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٧٤/١٦.

(٥٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١٧٠/٦، الشربيني، مغني المحتاج، ٣٧٤/١.

(٥٤) أبو نعيم الأصبهاني، ذكر أخبار أصبهان، ٣٤٣/٢، المجلسي، بحار الأنوار، ٣٥٧/٣٢.

(٥٥) البلاذري، انساب الأشراف، ص١٦٥، الثقفي، الغارات، ٤٤٧/٢، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣٠٢/٢.

(٥٦) البلاذري، انساب الأشراف، ص١٦١، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢٠٣/٢.

(٥٧) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢٠٣/٢، الطبري، تاريخ الأمم والملوك،

٣٩٠/٢، ابن الأثير، أسد الغابة، ١٩٢/٤.

(٥٨) الشافعي، كتاب الأم، ١٥٩/١، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣٤٠/١ ـ ٣٤١، الطبري، تاريخ الامم والملوك، ٣٩٠/٢، المجلسي، بحار الأنوار، ٣٥٧/٣٢.

(٥٩) الطوسي، المبسوط، ٣٣/٢، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٠٥/١٦.

(٦٠) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ١٠٥/١ ـ ١٠٦، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ١٧٠/١٩، ابن حجر، الإصابة، ١٢٩/٤.

(٦١) ابن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٤٤، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ١٠٥/٤، ابن عبد ربة، العقد الفريد، ٤/ ٤٣، ابن الأثير، اسد الغابة، ٢/ ٢١٦، ابن حجر، الإصابة، ٥٢٨/٢.

(٦٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٩٩/٧، ابن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٣٣، ابن الاثير، اسد الغابة، ٢/ ٢١٢.

(٦٣) ابن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٣٤، البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٤١، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٤/١٣.

(٦٤) ابن الأثير، أسد الغابة، ٢١٦/٢، ابن حجر، الإصابة، ٥٢٨/٢.

(٦٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٧/٦، الحافظ الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ١٠٢/١.

(٦٦) ابن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص٦٢، ابن الاثير، اسد الغابة، ٢٠٢/٤.

(٦٧) ابن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١١٦، الطبري، تاريخ الامم والملوك، ٣٠٨/٣، ابن الاثير، اسد الغابة، ١٨٣/٣، ابن حجر، الإصابة، ١٠٩/٤ ـ ١١٠.

(٦٨) العيساوي، النظم الإدارية والمالية، ص١٢٢.

(٦٩) ابن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٤٤، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٤/ ١٠٥، ابن الأثير، أسد الغابة، ٣٦٥/٢.

(٧٠) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ١٠٥/٤، ابن الاثير، اسد الغابة، ٢/ ٢١٦، ابن حجر، الإصابة، ٥٢٨/٢.

(٧١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٩٩/٧، ابن الاثير، اسد الغابة، ٢/ ٢١٥، ابن حجر، الإصابة، ٥٢٧/٢ـ ٥٢٨.

(٧٢) ابن الاثير، اسد الغابة، ٢/ ٢١٥، ابن حجر، الإصابة، ٥٢٧/٢.

(٧٣) الثقفي، الغارات، ص١٩٢.

(٧٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ١٣٠/٤ـ١٣١.

(٧٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٩٩/٧، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٦/ ١٧٩ ـ ١٨١، ابن حجر، فتح الباري، ٤٣٥/٣.

(٧٦) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢١٨/٢، النووي، المجموع، ٩٠/١٨، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٧٣/١.

(٧٧) الطبرسي، الاحتجاج، ٢/ ١٧ ، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٤٤/١١، المجلسي، بحار الأنوار، ٣٢١/٣٩.

(٧٨) ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٨٢/١٦.

(٧٩) الحاكم النيسابوري، المستدرك، ١٩٠/٣، ابن الاثير، اسد الغابة، ٢٨٥/١، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٧٧/١٠.

(٨٠) ابن الاثير، اسد الغابة، ١/ ٢٨٥، ابن حجر، الإصابة، ٦٢٨/١ ـ ٦٢٩.

(٨١) ابن الاثير، اسد الغابة، ١/ ٢٨٥.

(٨٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٤٤، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٨٣/٢ـ١٨٤.

(٨٣) ابن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٥١، الطبري، تاريخ الامم والملوك، ٤٦/٤، المجلسي، بحار الانوار، ٣٢/ ٣٥٧.

(٨٤) الطبري، تاريخ الامم والملوك، ٥٤٩/٣.

(٨٥) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢٠٢/٢، الطبري، تاريخ الامم والملوك، ٥٥٢/٣ ـ ٥٥٦.

(٨٦) الكوفي، مناقب امير المؤمنين، ٢ /٦٠ـ ٦٣، المفيد، الامالي، ص١٩٧.

(٨٧) النعمان المغربي، دعائم الاسلام، ٣٦١/١، ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٣٧، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٦٩/١٧.

(٨٨) الطبري، تاريخ الامم والملوك، ٨٩/٤، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣٠/٣.

(٨٩) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢٠١/٢، الكليني، الكافي، ٥/٥.

(٩٠) الثقفي، الغارات، ٥٠٩/٢، المجلسي، بحار الانوار، ٤٩١/٣٣ .

(٩١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٦ / ٢٠٥ ـ ٢٠٨، المجلسي، بحار الانوار، ٤٧٤/٣٣.

(٩٢) البخاري، صحيح البخاري، ٨ / ٦٦، مسلم، صحيح مسلم، ١١/٦ ـ ١٢.

(٩٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢/ ٢٠٥، ابن اعثم، الفتوح، ٢٤١/٤، الطبرسي، مكارم الأخلاق، ١١٤، المجلسي، بحار الانوار، ٣١٢/٧٦.

(٩٤) البلاذري، انساب الاشراف، ص١٧٠، ابن اعثم، الفتوح، ٢٤١/٤.

(٩٥) ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٦٧/١٦ـــ ١٦٨، المجلسي، بحار الأنوار، ٥٠٠/٣٣.

(٩٦) البلاذري، انساب الاشراف، ص١٦٣، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢٠٣/٢.

(٩٧) المنقري، وقعة صفين، ص٢٠، النعمان المغربي، دعائم الاسلام، ٣٩٦/١، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣٣/١٤.

(٩٨) الثقفي، الغارات، ٣٦٥/١، النعمان المغربي، دعائم الاسلام، ٣٩٦/١، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢٧٢/٥٨، ابن

ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٤٥/٣.

(٩٩) النعمان المغربي، دعائم الاسلام، ٣٩٦/١.

(١٠٠) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢٠١/٢، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٥٢/١٨.

(١٠١) البلاذري، انساب الاشراف، ص١٦٣، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢٠٣/٢ـ٢٠٤، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٥٤/١٨.

(١٠٢) البلاذري، انساب الاشراف، ص١٦٣، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢٠٤/٢.

(١٠٣) البلاذري، انساب الاشراف، ص١٦٠، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢٠١/٢ـ٢٠٢، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٧٥/١٦، المجلسي، بحار الانوار، ٥١٦/٣٣.

(١٠٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢٠٢/٢، المحمودي، نهج السعادة، ١٥٤/٥.

(١٠٥) الثقفي، الغارات، ٣٦٦/١، الطبري، تاريخ الامم والملوك، ١٠٠/٤، ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٣/ ١٤٥ ـ ١٤٧، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٤٥/٣.

(١٠٦) الثقفي، الغارات، ٥٢٥/٢ـ٥٢٦، ابن حبان، الثقات، ٢٩٨/٢.

(١٠٧) الثقفي، الغارات، ٥٣٢/٢ـ ٥٣٣، ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١٣/٣.

(١٠٨) الثقفي، الغارات، ٢/ ٥٢١ وما بعدها.

(١٠٩) النعمان المغربي، شرح الأخبار، ٢ /٩٥ـ ٩٧.

(١١٠) شمس الدين، دراسات في نهج البلاغة، ص٢١٤.

(١١١) الثقفي، الغارات، ٣٦٥/١، الطبري، تاريخ الامم والملوك،

١٠٠/٤، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٤٥/٣.

(١١٢) الثقفي، الغارات، ٧٣/١ ـ٧٤، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩٨/٢.

(١١٣) الثقفي، الغارات، ٧٣/١، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩٨/٢، المجلسي، بحار الانوار، ٤٩٥/٢٩.

(١١٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢٠٤/٢، المحمودي، نهج السعادة، ٢٥/٥.

(١١٥) قليل الاحترام.

(١١٦) لا تستطيع إعالة اهلك.

(١١٧) البلاذري، انساب الاشراف، ص١٦٢، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢٠٤/٢، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣٩/١٥.

(١١٨) البلاذري، انساب الاشراف، ص١٦٥، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢٠٢/٢.

(١١٩) المنقري، وقعة صفين، ص٢١ ـ ٢٢، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢٠٠/٢، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣٣/١٤.

(١٢٠) البلاذري، انساب الاشراف، ص١٦٣، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢٠٣/٢ـ٢٠٤، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٥٤/١٨.

(١٢١) المفيد، الجمل، ص٢٢٤، المحمودي، نهج السعادة، ٤٠٩/١.

(١٢٢) ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٢٥/١٥، المجلسي، بحار الانوار، ٤٩٢/٣٣.

(١٢٣) الثقفي، الغارات، ٢١١/١، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٥٩/٦، المجلسي، بحار الانوار، ٥٣٥/٣٣.

(١٢٤) الثقفي، الغارات، ٢٢٤/١، ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٧٦، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٦٥/٦.

(١٢٥) ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٢٧-١٢٨، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٧/ ٣٤، المجلسي، بحار الانوار، ٣٣/ ٦٠١.

(١٢٦) ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٤٤، ابن كثير، البداية والنهاية، ٨/ ٩، المجلسي، بحار الانوار، ٣٣/ ٦٠٩.

(١٢٧) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢/ ٢٠٢، الاميني، الغدير، ٢/ ٧١.

(١٢٨) البلاذري، انساب الاشراف، ص١٦١، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢/ ٢٠٣، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥/ ١٣٧.

(١٢٩) البلاذري، انساب الاشراف، ص١٦٣.

(١٣٠) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص٣٠، ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢/ ١٠٢ - ١٠٣، المجلسي، بحار الأنوار، ٤١/ ١١٩.

مصادر البحث ومراجعه

أولاً: المصادر

- ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم الشيباني، (ت ٦٣٠ هـ)/ اسد الغابة، مطبعة اسماعيليان، طهران د ت.

- ابن أعثم، احمد بن أعثم الكوفي(ت٣١٤هـ)/ كتاب الفتوح، تحقيق علي شيري، دار الأضواء، بيروت ١٩٩١.

- البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي (ت٢٥٦هـ)/ التاريخ الصغير، تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار المعرفة، بيروت ١٤٠٦هـ.

- البلاذري، احمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ)/ انساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، مصر ١٩٥٩م.

- البلاذري، احمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ)/ انساب الأشراف، تحقيق محمد

باقر المحمودي، مؤسسة الاعلمي، بيروت ١٣٩٤.

- البلاذري، احمد بن يحيى بن جابر(ت٢٧٩هـ)/ فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠.

- الثقفي، إبراهيم بن محمد الثقفي (ت ٢٨٣ هـ)/ الغارات، تحقيق جلال الدين المحدث، مطبعة بهمن، إيران ١٣٩٥هـ.

- الحاكم النيسابوري، محمد بن محمد (ت ٤٠٥ هـ)/ المستدرك على الصحيحين، تحقيق يوسف المرعشلي، دار المعرفة، بيروت ١٤٠٦.

- ابن حبان، محمد بن حبان بن احمد البستي(ت٣٥٤هـ)/ كتاب الثقات، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ١٩٧٣.

- ابن حجر، احمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢)/ الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق عادل احمد عبد الموجود وآخر، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥.

- ابن ابي الحديد، عز الدين بن هبة الله (ت ٦٥٦ هـ)/ شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، بيروت د ت.

- ابن حزم، علي بن احمد (ت٤٥٦هـ)/ المحلى، تحقيق احمد محمد شاكر، دار الفكر، بيروت، د.ت.

- الخطيب البغدادي، احمد بن علي(ت٤٦٣هـ)/ تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٧م.

- ابن خياط، خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠ هـ)/ تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت ١٩٩٣م.

- الذهبي، محمد بن احمد ت(٧٤٨هـ)/ سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٣م.

- ابن سعد، محمد (ت ٢٣٠ هـ)/ الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت د ت.

- الشافعي، محمد بن إدريس (ت٢٠٤ هـ)/ كتاب الأم، ط٣، دار الفكر، بيروت ١٩٨٣م.

- ابن شبة النميري، عمر (ت٢٦٢هـ)/تاريخ المدينة المنورة، تحقيق فهيم محمد شلتوت، دار الفكر، قم د ت.

- الشربيني، محمد (ت ٩٧٧ هـ)/ مغني المحتاج، دار إحياء التراث العربي، مصر ١٩٥٨م.

- ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي (ت بعد ٤٠٠ هـ)/ تحف العقول عن آل الرسول، تحقيق علي اكبر غفاري، ط٢، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ١٤٠٤.

- الصنعاني، عبد الرزاق بن همام (ت ٢١١)/ المصنف، تحقيق حبيب الرحمن الاعظمي، د م ١٣٩٢.

- الطبرسي، احمد بن علي (ت٥٦٠ هـ)/الاحتجاج، تحقيق محمد باقر الخرسان، دار النعمان، النجف ١٩٦٦.

- الطبرسي، الحسن بن الفضل (ت٥٤٨هـ)/ مكارم الأخلاق، إيران ١٩٧٢م.

- الطبري، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ)/ اريخ الأمم والملوك، تحقيق مجموعة باحثين، مؤسسة الاعلمي، بيروت.

- الطوسي، محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ)/ المبسوط في فقه الإمامية، تعليق محمد تقي الكشفي، المكتبة الرضوية، طهران ١٣٨٧هـ.

- ابن طيفور، أبو الفضل بن ابي طاهر(٣٨٠هـ)/ بلاغات النساء، مكتبة بصيري، قم، د.ت.

- ابن عبد ربه، احمد بن محمد الأندلسي (ت٣٢٨هـ)/ العقد الفريد، تصحيح محمد أمين، القاهرة ١٩٤٩.

- أبو عبيد، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ)/ الأموال، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٥٣.

- ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي (ت٥٧١ هـ)/ تاريخ دمشق، تحقيق علي شيري، دار الفكر، بيروت ١٩٩٥.

- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ)/ الإمامة والسياسة، تحقيق علي شيري، مطبعة أمير، قم ١٤١٣هـ.

- ابن كثير، إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤ هـ)/ البداية والنهاية في التاريخ، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث، بيروت ١٩٨٨م.

- الكليني، محمد بن يعقوب (ت ٣٢٨ هـ)/ الكافي، دار الكتب الإسلامية، طهران ١٣٨٨.

- الكوفي، محمد بن سليمان (ت بعد ٣٠٠ هـ)/ مناقب الإمام أمير المؤمنين، تحقيق محمد باقر المحمودي، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، قم ١٤١٢.

- المتقي الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين (ت٩٧٥ هـ)/ كنز العمال، تحقيق بكري حياني وآخر، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٩.

- المجلسي، محمد باقر (ت ١١١١ هـ)/ بحار الأنوار، ط٢، مؤسسة الوفاء، بيروت ١٩٨٣م.

- مسلم، مسلم بن الحجاج (ت٢٦١ هـ)/ صحيح مسلم، دار الفكر، بيروت د ت.

- المفيد، محمد بن محمد بن النعمان (ت ٤١٣ هـ)/ الامالي، تحقيق علي اكبر الغفاري، نشر جماعة المدرسين، قم ١٤٠٣.

- المنقري، نصر بن مزاحم المنقري (ت ٢١٢ هـ)/ وقعة صفين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط٢، المؤسسة العربية الحديثة، مصر ١٩٦٢.

- النسائي، احمد بن شعيب (ت٣٠٣ هـ)/ السنن الكبرى، تحقيق عبد الغفار سليمان وآخر، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩١.

- النعمان المغربي، النعمان بن محمد التميمي (ت٣٦٣ هـ)/ دعائم الإسلام، تحقيق اصف بن علي اصغر فيضي، دار المعارف، مصر ١٩٦٣.

- أبو نعيم الأصبهاني، احمد بن عبد الله(ت٤٣٠هـ)/ ذكر أخبار اصبهان، مطبعة بريل، إيران ١٩٣٤.

- النووي، محي الدين (ت٦٧٦ هـ)/ المجموع، دار الفكر، بيروت د ت.

- الهيثمي، علي بن ابي بكر (ت ٨٠٧ هـ)/ مجمع الزوائد، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨.

- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت٢٨٤هـ) / تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت.

ثانياً: المراجع

- بخيت، عبد الحميد/ عصر الخلفاء الراشدين، دار المعارف، مصر ١٩٦٥.

- الشرهاني، حسين علي/ التغيير في السياسة المالية للدولة الإسلامية في خلافة الإمام علي عليه السلام، دار تموز، دمشق ٢٠١٣م.

- شمس الدين، محمد مهدي/ دراسات في نهج البلاغة، ط٢، دار الزهراء، بيروت ١٩٧٢.

- العيساوي، علاء كامل صالح/ النظم الإدارية والمالية في عهد الإمام علي(عليه السلام) (٣٥ـ٤٠هـ، ٦٥٦ ـ ٦٦٠م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة البصرة ٢٠٠٥.

- نجمان ياسين/ تطور الأوضاع الاقتصادية في عهد الرسالة والخلفاء الراشدين، الموصل ١٩٨٨.

- اليوزبكي، توفيق/ النظم العربية الإسلامية، ط٣، بغداد ١٩٨٨.

إِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَدْبَرَتْ وَآذَنَتْ بِوَدَاعٍ

و

إِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَشْرَفَتْ بِاطِّلَاعٍ

نهج البلاغة- تحقيق صبحي الصالح ص ٧١

دلالة التشخيص

في خطب نهج البلاغة

أ. م. د. أسيل متعب الجنابي

جامعة واسط/ كلية الآداب

الحمد لله الذي جعل القرآن منهاجاً للصالحين، وجعل نبينا محمداً صلّى الله عليه وآله وسلّم هادياً للعالمين، وجعل الأئمة عليهم السلام سفن النجاة من النار، ومصابيح الهدى والأنوار، وأهل البلاغة والأسرار، تميّزوا بالعقل والتفكر، وبالرشاد والتدبّر تركوا لنا إرثاً عظيماً من أقوالهم وحكمهم ومأثور بلاغتهم وفصاحتهم، ومن أبرز ما تركه أمير المؤمنين عليه السلام خطبه ورسائله وحكمه، التي جمعها الشريف الرضي في كتاب (نهج البلاغة)

المقدمة

الحمد لله الذي جعل القرآن منهاجاً للصالحين، وجعل نبينا محمداً صلّى الله عليه وآله وسلّم هادياً للعالمين، وجعل الأئمة عليهم السلام سفن النجاة من النار، ومصابيح الهدى والأنوار، وأهل البلاغة والأسرار، تميّزوا بالعقل والتفكر، وبالرشاد والتدبّر تركوا لنا إرثاً عظيماً من أقوالهم وحكمهم ومأثور بلاغتهم وفصاحتهم.

ومن أبرز ما تركه أمير المؤمنين عليه السلام خطبه ورسائله وحكمه، التي جمعها الشريف الرضي في كتاب (نهج البلاغة)، فكان اسمه خير منبئ عن مضمونه، فهو حقاً نهج للبلاغة، وقد اغترف من منهله طلاب العلم، وحاولوا أنْ يسبروا أغواره ويكتشفوا أسراره كل وفقاً لاتجاهاته واختصاصه؛ فأحببت أنْ أكون من هؤلاء فأقف على جانب من جوانب الإبداع الذي تميّز به الفكر العلوي، فوقع اختياري على (دلالة التشخيص في خطب نهج البلاغة) لسببين: الأول: لأنّه لم يطرق - حسب علمي - من قبل ولم تُكتب فيه دراسات سابقة، والثاني: لأني أردت من خلال هذه الدراسة أنْ يطلع القارئ على أحد الأساليب التي استعملها أمير المؤمنين في خطاباته، وهو: أسلوب التشخيص، فيضفي الحياة لمن لا حياة فيه فيصفه بصفات بشرية من أجل تحقيق أغراض دلالية؛ وقد اقتضت طبيعة البحث أنْ يقسم على ثلاث فقرات، يسبقها تمهيد تناولت فيه التشخيص لغة واصطلاحاً.

وقد تضمّنت الفقرة الأولى الحديث عن التشخيص في الزمن الذي يعبر عنه بألفاظ كالزمان والدهر واليوم؛ وكان الحديث في الفقرة الثانية عن التشخيص في الطبيعة؛ أمّا الفقرة الثالثة فقد اقتصر الكلام فيها على التشخيص في المعنويات؛

وختمت البحث بأهم ما تفرّد به أمير المؤمنين في استعماله لأسلوب التشخيص. وختاماً أرجو أنْ أكون قد قدّمت دراسة مفيدة في مكتبة نهج البلاغة فإن كان قد حصل ما تمنيت فبها ونعمت، وإنْ لم يكن فحسبي أنّي حاولت جاهدة أنْ أنفعَ القارئ؛ والله ولي التوفيق.

التمهيد

التشخيص لغة واصطلاحاً

التشخيص لغةً

إنّ المتتبع لمادة (شخص) يجد أنَّ اللغويين ذكروا فيها معاني عدة أهمها:

١. سواد الإنسان وجُسمانه: الشِّخصُ سواد الإنسان إذا رأيته من بعيد، وكل شيء رأيت جُسمانه فقد رأيت شخصه، وجمعه: الشّخوص والأشخاص[١].

٢. إثبات الذات للجسم: الشَّخص: كل جسم له ارتفاع وظهور، والمراد به إثبات الذات، فاستُعير لها لفظ الشَّخص[٢].

٣. السير والذهاب: الشُّخوص: السير من بلد إلى بلد وقد شخَصَ يشخَصُ شُخُوصاً، أي: ذهب[٣].

٤. الورم: شخَصَ بالشّيء يشخَصُ شُخُوصاً انتبر، وشخصَ الجُرحُ: وَرِمَ[٤].

٥. الارتفاع والعلو: شَخصَ ببصره إلى السماء: ارتفع، وشخص بالفتح شخوصاً، أي: ارتفع، وشخصت الكلمةُ في الفم، إذا لم يقدر على خفض صوته بها، والشُّخُوص: ضد الهُبوط، وشخَصَ السهمُ يشُخصُ شُخُوصاً، فهو شاخِصٌ: علا الهدف[٥].

٦. السيادة والعظم: الشّخيص: العظيم الشخص، بيّن الشّخاصة، وقيل: شخيص: إذا كان سيداً ذا شخص وخلق عظيم، وأشخصت هذا على هذا إذا أعليته عليه[٦].

والملحظ اللّافت أنَّ هذه الدلالات لا تخرج عن شيئين:

أولهما: الدلالة على جسم الإنسان المتصف بالارتفاع والظهور.

والثاني: الدلالة على بروز الشيء وظهوره حتى يكون واضحاً مشاهداً للعيان، أو يحسّه الإنسان بإذنه.

نحو: ورم الجرح، ارتفاع البصر، ارتفاع الصوت، السهم العالي الهدف وقد استعمل الإمام علي عليه السلام عدداً من الألفاظ المشتقة من هذه المادة، ولم تخرج هذه الألفاظ عن إحدى الدلالات اللغوية المذكورة، ففي قوله: «أُوصيكم عبادَ اللهِ بتقوى الله، وأحذركم الدنيا، فأنّها دارُ شَخُوصٍ»[٧].

ودار شخوص هي دار رحلة شخص عن البلد: رحل عنه[٨].

وكذلك في قوله: «وإنّما الدُّنيا مُنتَهى بصر الأعمى، لا يُبصِرُ ممّا وراءَها شيئاً، والبصيرُ ينفذُها بصرُه، ويعلمُ أن الدارَ وراءَها، فالبصيرُ منها شاخِصٌ، والأعمى إليها شاخِصٌ»[٩].

فالشاخص الأول: الراحل، والشاخص الثاني: مَنْ شخص بصره بالفتح إذا فتح عينه، نحو: الشيء مقابلاً له، وجعل لا يطرف[١٠].

التشخيص اصطلاحاً

فلم يبتعد عن المعنى اللغويّ، بل مأخوذ منه؛ لأنّ التعريفات جميعاً تشترك بأمر معين، وهو إبراز صورة الإنسان أو جسمه، فالشخص عند التهانوي هو (الفرد المشخص المعين، والشخصية هي القضية المخصوصة والتشخيص هو التعين، وهو يطلق بالاشتراك على معنيين: الأول: كون الشيء بحيث يمتنع فرض اشتراكه بين كثيرين، وحاصله امتناع الاشتراك بين كثيرين)[١١].

وقد تكون صورة الكائن الحي في جماد، أو مجرداً من الحياة، جاء في المعجم الأدبي أنّ التشخيص (إسباغ الحياة

الإنسانية على ما لا حياة له كالأشياء الجامدة والكائنات المادية غير الحية)[١٢].

وقريب من هذا ما ذهب إليه سيد قطب، إذْ يرى أنّ التشخيص (طريقة من طرق التصوير، تردّ الصورة حية، وتمنح الجوامد والخواطر شخصية آدمية أوقع في الحسّ، وأجمل في النفس)[١٣].

وكذلك يتمثل التشخيص في (خلع الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية والانفعالات الوجدانية، هذه الحياة التي قد ترتقي فتصبح حياة إنسانية، تشمل المواد والظواهر والانفعالات، وتهب لهذه الأشياء كلها عواصف آدمية، وخلجات إنسانية، تشارك بها الآدميين وتأخذ منهم وتعطي)[١٤].

فالشخصية الآدمية كانت حاضرة في كل التعريفات سواء أكانت في الأمور الحسية أم المعنوية، وقد تكون بالظواهر الطبيعية الصامتة كما ذهب إلى ذلك الدكتور كاصد الزيدي، إذْ قال: (ويتمثل التشخيص في خلع الحياة على المحسوسات الجامدة والظواهر الطبيعية الصامتة، حتى انّها لتخاطب مخاطبة الذي يعقل ويفهم، وتخلع عليها صفات المخلوقات النابضة بالحياة)[١٥].

التشخيص في الزمان

الزمان: هو المقياس الذي ابتدعه الإنسان في تصور كمي، وهندسي، ينظم به حياته. والملاحظ أنّ من خصائص هذا الزمان الكمي، أو الموضوعي أنّه من نتاج ظواهر الطبيعة، فهو ليس نابعاً من خبرات ذاتية للإنسانّ؛ إذْ إنّ مفهوم الزمان عنده يرجع في المقام الأول إلى إدراكه للظواهر الطبيعية التي تكرر نفسها في دورات زمانية[١٦].

ولا شكّ في أنّ العرب كانوا أكثر الأقوام عناية بالزمان، وتقلباته، وأحواله، وما تجري فيه من أحداث.

قال المرزوقي: (اعلم أنّ العرب أحفظ الأمم لما أدت إليه تجاربهم من

أحوال الزمان وتعاقب الشهور والأيام واختلاف الفصول والأيام، وبما يتجدد فيها من الأحداث، فهم على اختلاف ديارهم، وتباين أوطانهم، وتفاوت هممهم، يراعون من هبوب الرياح، وطلوع الكواكب، وتبدل الأوقات، ما لا يراعيه غيرهم من سكان المدر والوبر، وقطان البدو. وليس ذلك مستحدثاً فيهم وإنّما هو عادة منهم يتوارثونه الخلف عن السلف، والغابر عن الماضي ومقياس طول الدربة ودوام التفقد)[١٧].

وقد ترتّب على اهتمام العرب بالزمان أنْ ربطوه بالأحداث والوقائع الاجتماعية التي يمارسونها في كل وقت من الاوقات، وقد تصوّر العرب الزمان من خلال تجاربهم ومعتقداتهم، وعبّروا عنه بعدد من الألفاظ الزمانية منها[١٨]:

الزمان

هو لفظ استُعمل للقليل من الوقت وكثيره، من ذلك قولهم: أزمن الشيء طال عليه الزمان، وأزمن بالمكان، أي: أقام به وقتاً[١٩].

ومن اللّافت أنّ هذا اللفظ قد يخرج عن أصل استعماله، وهو الدلالة على الوقت إلى تصويره على هيئة رجل يُوجد ويُخرج. وذلك في قول الإمام علي عليه السلام: «ولقد شَهِدنا في عسكرنا هذا قومٌ في أصلابِ الرجالِ وأرحامِ النساءِ، سيرعَفُ بهم الزمانُ، ويقوى بهم الإيمانُ»[٢٠].

فقوله: يرعف بهم الزمانُ، المراد به: يوجدهم ويخرجهم، كما يرعّف الإنسان بالدم الذي يخرجه من أنفه، قال الشاعر:

وما رعَفَ الزمانُ بمثل

ولا تلدُ النساءُ له ضريباً[٢١]

فقد شبّه الإمام الزمان بالإنسان، ونسب وجودهم إلى الزمان لأنّه من الأسباب المعدّة لقوابل وجودهم[٢٢]، وقد أراد الإمام بهذا التشخيص أنْ يبين

للمخاطب صورة الزمن وهو يخرج هؤلاء القوم خروجاً ميسراً لا مشقة فيه فتؤثر تلك الصورة بالمخاطب لقدرته على تخيلها في ذهنه.

الدهر

الدهر في الأصل اسم لمدة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه، ثم يُعبَّرُ به عن كل مدة كثيرة، ودهرُ فلان مُدّة حياته، واستعير للعادة الباقية مدة الحياة.

فقيل: ما دهري بكذا، ويقال: دهَرَ فلان نائبه دهراً أي نزلت به[٢٣].

وقد ذكر ابن الأثير سنن العرب في ذم الدهر؛ إذْ قال: (كان من شأن العرب أنْ تذمّ الدهر وتسبّه عند النوازل والحوادث التي تنزل بهم من موت أو هرم فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر وحوادثه، وأبادهم الدهر فيجعلون الدهر الذي يفعل ذلك فيذمونه)[٢٤].

فالعرب قد نسبوا للدهر كل شيء؛ لأنّه يسيطر على كل شيء، لذلك ردّ عليهم القرآن[٢٥] بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[٢٦].

فقد بيّن الزمخشري أنّ كلامهم هذا لم يكن عن علم ويقين، بل كان عن ظن وتخمين، فقد كانوا يزعمون أنّ مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس، وينكرون ملك الموت وقبضته الأرواح بأمر الله، وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تسبّوا الدهر، فإنّ الله هو الدهرُ»[٢٧] ومعنى الحديث: (أنّ الله فاعل ما يضاف إلى الدهر من الخير والشر والمسرّة والمساءةِ، فإذا سببتم الذي تعتقدون أنّه فاعل ذلك فقد سببتموه تعالى عن ذلك)[٢٨].

ولا شك في أنّ الإمام يترفع في خطابه، فلا يسبّ الدهر، ولكنه ينسب

إليه المصائب والنوازل على عادة الأولياء الصالحين أنْ لا ينسبوا إلى الله ما يحدث لهم من سوء، بل ينسبونه إلى الدهر، ففي قوله: «الحمدُ للهِ وإنْ أتَى الدهرُ بالخَطْبِ الفادحِ، والحَدَثِ الجليلِ»[٢٩].

صّور الإمام الدهر فأضفى له الحياة والحركة، فشخصه بصورة إنسان يحمل على كاهله الخطب الفادح - والخطب هو (الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب)[٣٠]، والفادح هو الثقيل[٣١] - وقد أقبل عليه ومع هذا فهو لا يبالي بهذا الإتيان؛ لأنّه قد وكّل أمره إلى الله، ومن يوكل أمره إلى الله فيجب أنْ يحمده في كل حال، قال البحراني: (قد عرفت نسبة الخير والشر إلى الدهر على أي وجه هي، ومراده أحمد الله على كل حال من السراء والضراء)[٣٢].

وقد يجمع الإمام علي عليه السلام الدهر والزمن في تركيب واحد ويصفهما بأوصاف خاصة بالإنسان وذلك في قوله: «أيُّها الناسُ إنَّا قد أصبحنا في دهر عنود، وزمن شديد، يُعدُّ فيه المحسنُ مسيئاً، ويزداد الظالم فيه عتواً، لا ننتفعُ بما علمنا، ولا نسألُ عمّا جَهلنا، ولا نتخوف قارعة حتى تحلّ بنا»[٣٣].

فوصف الدهر بالعنود وهو الجائر عن الطريق، والزمن بالشديد وهو البخيل[٣٤].

وذلك تمهيداً لذكر أوصاف مذمومة، قال البحراني: (ذم للزمان بوصفي الجور والشدة لمّا أعَدّ له ما عدد فيه من الأوصاف المعدودة شراً بالقياس إلى نظام العالم وبقائه)[٣٥].

ففي التشخيص إظهار وبيان لقوة ارتباط الدهر والزمن بالناس فإذا كانا مذمومين كان الناس كذلك، فاتصاف الناس بهذه الأوصاف متأتٍ من رضى الدهر عليها؛ لأنّها قد حدثت فيه، وفي هذا التعبير دلالة على المبالغة في ذم الدهر والزمن.

وقد يُظهر الإمام عليه السلام الدهر بمظهر العدو الشرس وذلك في قوله: «ثُمَّ إنَّ الدنيا دارُ فناء وعناءٍ، وغِيَر وعِبر، فمن الفناء أنّ الدهر موتر قوسه، لا تُخطئُ سِهامُه، ولا تُؤسى جراحُه، يرمي الحيَّ بالموت، والصّحيح بالسقم، والناجي بالعَطَب، آكلٌ لا يشبعُ وشاربٌ لا ينقعُ»[٣٦].

إذْ رسم لنا الإمام صورة حسية لعدو وتر قوسه ووجه سهامه للإنسان، وهذه السهام لا تخطئ أحداً، فهي دقيقة في إصابة الهدف يرمي الحي بالموت، والصحيح بالسقم، والناجي بالعَطَب، وهو آكل لا يشبع، وشارب لا ينقع، وقد وجّه البحراني هذه الصورة توجيهاً بلاغياً، فقد استعار الإمام لفظ الإيتاء لإيتاء الدهر، ورشح بذكر القوس.

ووجه الاستعارة أنّ الدهر يرمي بمصائبه المستندة إلى القضاء الإلهي الذي لا يتغيّر كما يرمي الرامي الذي لا يخطئ.

وكذلك استعار لفظ الجراح لنوائب الدهر لاشتراكهما في الإيلام، واستعار له لفظ الآكل والشارب عديمي الشبع، ووجه المشابهة لكونه يأتي على الخلق فيفنيهم كما يأتي الآكل والشارب المذكوران على الطعام والشراب فيفنياهما[٣٧].

اليوم

لم يقتصر هذا اللفظ كغيره من ألفاظ الزمان على مفهوم الوقت المحدد أو غير المحدد من الزمان، ولكنّه ارتبط بالشدة والهلاك، يشير المعجم إلى أنَّهم قالوا: يوم ذو أيام، ويوم ذو أيايم لطول شره على أهله، وقالوا يوم لنا ويوم علينا أي يوم يسرّنا ويوم يحزننا واليوم يومك، يريدون التشنيع، ولكل قوم يوم، أي عقاب وجزاء وقالوا في الدعاء: لا أراني الله يومك، أي: يوم موتك[٣٨].

وارتباط الأيام بالحزن كان حاضراً في ذهن الإمام علي عليه السلام حينما قال: «وإنّما الأيام بينكم وبينهم بواكٍ

ونـوائح عليكم»[٣٩] ؛ إذْ جعـل الأيـام تبكي وتنوح كأنَّها امرأة (تشيع رائحاً إلى المقابر وتبكي وتنوح على الباقين الذين سيلحقون به عن قريب)[٤٠].

غير أنّ هذه المرأة ليست غريبة عن هؤلاء ؛ لأنّها لو كانت كذلك لما بكت ولا ناحت، فكأنّها أمّ فارقت أولادها، وهذا ما تنبّه إليه البحراني بقوله: (واستعار لفظ البواكي والنوائح لأيّام الحياة ملاحظة لشبهها في مفارقتهم لها بالأمهات التي فارقت أولادها بالموت)[٤١].

وقد يصور الإمام الأيّام على هيئة أشخاص مطاردين وذلك في قوله: «كم أطردتُ الأيّامَ أبحثُها عن مكنونِ هذا الأمرِ، فأبى اللهُ إلّا إخفاءَهُ، هيهات علمٌ مخزونٌ»[٤٢]. فقد استعمل أطردت ؛ لأنّها أدلّ على العز والقهر من طردتُ، فكأنّه عليه السلام جعل الأيّام أشخاصاً يأمر بإخراجهم وإبعادهم عنه أي ما زلت أبحث عن كيفية قتلي، وأي وقت يكون بعينه، وفي أي أرض يكون، يوماً يوماً، فإذا لم أجده في اليوم أطردته واستقبلت غده، فأبحث فيه أيضاً فلا أعلم فأبعده وأطرده، وأستأنف يوماً آخر، هكذا حتى وقع المقدور[٤٣].

ولا شكّ في أنّ إظهار المعنى عن طريق التشخيص أبلغ وأدلّ على إيصال ما يريد الإمام للمخاطب، لما فيه من إضفاء الحياة والحركة لتلك الأيّام التي يطاردها واحدة تلو الأخرى، ليعلم بتلك المطاردة كيف يقع قتله، ولو قال عليه السلام ما زلت أبحث عن قاتلي وغيرها من الأساليب لما أثرت في نفس المخاطب ذلك التأثير الذي يحدثه التشخيص.

التشخيص في الطبيعة

الطبيعة بمفهومها العام الشامل تنقسم إلى عناصر وظواهر، فالعناصر تشمل هذا الكون المحسوس من شمس وقمر وجبال ونحوها، والظواهر هي ما

يرتبط بتلك العناصر ارتباطاً سببياً: كالليل والنهار، فإنّهما متسببان عن حركة الشمس ودوران الأرض حولها، وغيرها من الظواهر.

وثمة تقسيم آخر للطبيعة بعناصرها وظواهرها، يجعلها قسمين رئيسين، وهما: (الطبيعة الحية)، و(الطبيعة الصامتة) فالأولى: ما اشتملت عليه من مختلف الحيوان والطير، ولا يدخل في ذلك الإنسان.

والثانية: عناصرها وظواهرها المتعددة، من أرض، وسماء، وبحار، وأنهار وينابيع، وجنات، ورعد، وبرق ونحوها(٤٤).

وقد اتّخذ الإمام عليه السلام من الطبيعة وسيلة لتحقيق مقاصد ودلالات معينة، فيبثّ الحياة في عدد من عناصرها ليتيقظ المخاطب، وينظر إلى هذه الطبيعة على أنّها كائن حي فيه حياة وروح، ومن أهم هذه الدلالات:

١. الدلالة على اثبات الخالق وعظمته

اقتفى الإمام عليه السلام أثر القرآن وسار على منهجه في استنطاق الطبيعة، واتخاذها كشاهد حي دال على قدرة الله تعالى وعظمته في خطبه، وذلك؛ لأنّ (الطبيعة شاهدة بعظمة الله خالقها وقدرته، ولكن الإنسان قد ينسيه ذلك طول التكرار وتغفله الألفة عن استشعاره، والقرآن يجدد هذه الحقيقة في النفس الإنسانية، ويردها حية ناطقة، تحرك الأحاسيس وتستجيش الوجدانات، وتبعث على التأمل من جديد في ما خلق الله في الطبيعة، من آيات دالات على عظمته وقدرته سبحانه)(٤٥).

ومن ذلك قوله: «لم يُطِلِع العقولَ على تحديد صفته، ولم يحجُبْها عن واجب معرفته، فهو الذي تشهدُ له أعلامُ الوجود، على إقرار قلبِ ذي

الجُحُود، تعالى اللهُ عمّا يقولُه المشبِّهونَ به والجاحدون له عُلُواً كبيراً!»[٤٦].

فقوله: «تشهد له أعلام الوجود» تشخيص ظاهر لأعلام الوجود فالأعلام (جمع علم وهو المنار يهتدي به، ثم جعل لكل ما دل على شيء)[٤٧].

وعلى هذا تكون الإعلام دالة على وجود الخالق البارئ عن طريق شهادتها، والشهادة هي الحضور مع المشاهدة إمّا بالبصر وإما بالبصيرة، لكن الشهود بالحضور المجرد أولى والشهادة مع المشاهدة أولى[٤٨].

ولا شك في أنّ هذا لا يكون إلّا للعاقل المميزّ فإذا صدرت الشهادة من أعلام الوجود أي: (الأدلة الموجودّة) في هذا الكون الفسيح فإنّها ستكون حجة على قلب الجاحد المنكر؛ لأنّها ستنطق بالاعتبار وإنْ لم يكن لها لسان تنطق بها، قال البحراني: (فهو الذي تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب كل من جحده بان جحده له، إنّما هو رأي اتبع فيه وهمه مع إقرار قلبه بالتصديق به وشهادة آيات الصنع وشواهد الآثار على صحة ذلك الإقرار)[٤٩].

ومثله قوله عليه السلام: «الذي ابتدعَ الخلقَ على غيرِ مثالٍ امتثلَهُ ولا مِقْدَارٍ احتذَى عليهِ من خالِقٍ مَعْبُودٍ كانَ قبلَهُ، وأرانَا من ملكُوتِ قدرتِهِ، وعجائبِ ما نطقَتْ به آثارُ حكمتِهِ»[٥٠].

إذّ جعل الإمام عليه السلام لآثار الحكمة لساناً ناطقاً وهي ما صدر عنها من الأفعال والأحكام وانقياد كل ناقص إلى كماله؛ لأنها مفصحة عن كمال الحكمة المعجبة بتمام النظام وحسن الترتيب، وإنّما جاز ذلك لما اشترك فيه النطق وحال مصنوعاته من ذلك الإفصاح والبيان[٥١].

ونظير ذلك قوله: «وانقادّتْ له الدّنيا والآخِرَةُ بأزمَّتها، وقذفت إليه السمواتُ والأرضُون مقاليدَها، وسجدَتْ له

بالغُدوّ والآصالِ الأشجارُ الناضِرةُ، وقدحت له من قضبانها النيرانُ المضيئةُ وأتت أُكلها بكلمات الثمارُ اليانعةُ»[٥٢].

ففي قوله: «سجدت له بالغُدوّ والآصال الأشجار الناضرة» نسب السجود للأشجار وجعلها كائنة حية تحسّ وتعي وتؤمن بخالقها فهي تتصرف (حسب إرادته وكونها مسخرة له محكوماً عليها بنفوذ قدرته فيها، فجعل عليه السلام ذلك خضوعاً منها لمشيئته واستعار لها ما هو أدلّ على خضوع الإنسان من جمع أفعاله وهو السجود)[٥٣].

وكذلك قوله: «وأتت أُكلها بكلماته الثمارُ اليانعة» فالثمار لا تأتي، وإنّما المراد بالإتيان دخولها طوعاً في الوجود[٥٤]، ومن ذلك أيضاً قوله عليه السلام: «ألا وإنَّ الأرضَ التي تحمِلُكُم، والسَّماءَ التي تُظِلُكُم مطيعتان لربكم، وما أصبحتا تجودانِ لكم ببركتِهما تَوجّعا لكم، ولا زُلفَةً إليكم، ولا لخير ترجوانِهِ منكم، ولكن أُمرتَا بمنافِعِكُم فأطاعَتَا وأُقيمتَا على حدود مصالِحِكم فقامتا»[٥٥].

فقد رسم لنا صورة فنية للأرض والسماء وكأنّها كائنات حية متصفة بصفات لا تكون إلّا لمن يعقل فالأرض بمثابة الأم للنبات والزرع، والسماء بمثابة الأب، وكلاهما في حالة طاعة دائمة لربهما، وما تقومان به من منافع ليس الغرض منها التوجع للناس، أو التقرب إليهم، أو الرحمة بهم، أو لخير ترجوانه بل المراد هو الإقرار في النفوس عظمة الله سبحانه، وأنّ الأرزاق وأسبابها منسوبة إليه[٥٦].

فالسماء والأرض جمادات (والجماد لا يؤمر، والمعنى أنّ الكل مسخر تحت القدرة الإلهية)[٥٧]؛ وقد تنبّه الجاحظ إلى الدلالة التي تنطق بها السماء والأرض والأشجار عند حديثه عن النصبة فهي (الحال الناطِقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السموات

والأرض، وفي كل صامت وناطق وجامد ونام، ومقيم وظاعن وزائد وناقص فالدلالة في الموات الجامد، كالدلالة في الحيوان الناطق، فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة من جهة البرهان.

ولذلك قال الأول: سل الأرض، فقل: من شق أنهارك وغرس أشجارك، وجنى ثمارك، فإنْ لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً)[٥٨].

٢. الدلالة على الاعتبار والاتعاظ

أجاز الإمام عليه السلام استنطاق عرصات الديار وبعث الحياة فيها وكأنها كائن حي يتكلم ويتحدث عن أحوال من ذهبوا في الأرض، وذلك عبرة للناس وموعظة لهم، وذلك في قوله: «ولو استنطَقُوا عنهم عرصاتِ تلك الديار الخَاويةِ والربُوع الخالية لقالت: ذهبُوا في الأرض ضُلالًّا، وذهبتُم في أعقابهم جُهّالاً»[٥٩].

فلو طُلب النطق من عرصات الديار الخاوية لقالت بلسان حالها ذهبوا في ألأرض هالكين، وذهبتم بعدهم جاهلين بأحوالهم[٦٠].

٣. الدلالة على الالتباس وعدم تمييز الحق

قد يستعين الإمام عليه السلام بالتشخيص في عرض الأمور المختلطة غير الواضحة لكي يتخيلها المخاطب، كأنّها إنسان غير أنَّ هذا الإنسان أعمى لا يهتدي لمطالبه، هذا غاية في دقة الوصف، قال عليه السلام: «أما والله لقد تقمصها ابنُ أبي قُحافَةَ، وانّهُ ليعلمُ أنَّ محلّي منها محلُّ القُطبِ من الرَّحَا ينحدِرُ عنّي السَّيل، ولا يرقى إليَّ الطيرُ، فسدلتُ دونها ثوباً، وطويتُ عنها كشحاً، وطفقتُ ارتئي بين أن أصولَ بيدٍ حذّاءَ، أو أَصبرَ على طخيةٍ عمياءَ، يَهْرَمُ فيها الكبيرُ، ويشيبُ فيها الصغيرُ، ويكدَحُ فيها مؤمِنُ حتى يلقَى ربه»[٦١].

فقولـه: «اَصـبَر علـى طخيـة عميـاء» الطخية: قطعة من الغيم والسحاب وصفها بالعمياء تأكيداً لظلام الحال واسوداده[٦٢].

وهـذا تصـوير بليـغ لالتبـاس الأمـور واختلاطها، فكأنّها إنسان أعمى لا يهتدي للأمور، فهـو يعيش في ظلام، وخير من عبّر عن هذا المعنى البحراني، إذْ ذكر أنّ الظلمـة كمـا لا يهتـدى فيهـا للمطلـوب كـذلك اختلاط الأمور في هـذه الخطبة لا يهتدى معها لتمييز الحق وكيفية السلوك إلى الله، إذْ وصف الطخية بالأعمى على وجه الاستعارة فإنّ الأعمى لما لم يكن ليهتدي لمطالبه كذلك هذه الظلمة لا يهتدى فيها للحق ولزومه[٦٣].

التشخيص في المعنويات

ثمة علاقة بين الصور الذهنية وهي المعـاني، والأمـور الخارجيـة، أو مـا في الأعيـان، وإنّ هـذه العلاقـة بـين المعنـى والأشياء الخارجية تشبه أحياناً بالعلاقة بين الشـيء وصـورته في المرآة، فليس معنى تصورنا الإنسان إلّا أنْ ترتسم منه صورة في العقل بها يمتاز عن غيره عند العقل كما تثبت صورة الشيء في المرآة، إلّا أنّ المرآة لا يثبت فيها إلّا مثل المحسوسات[٦٤].

وعلى هذا المعنى المجرد أحياناً لا يبلغ المخاطب، ولا يفهمه إلّا إذا تمثل بصورة حسية شاخصة، وهذا ما يفسّر لنا اتّخاذ القرآن التصوير كأداة، إذْ (يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسـية، وعـن النمـوذج الإنسـاني والطبيعـة البشـرية، كمـا يعبّـر بهـا عـن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، ثم يرتقـي بالصـورة الـتي رسمهـا فيمنحهـا الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي)[٦٥].

وهذا ما نلمسه أيضاً في خطابات أمير المؤمنين عليه السلام فنراه يبثّ الحياة والحركة في المعاني فتكون كائناً حياً ماثلاً

أمامنا فيصفها بصفات من يعقل لتقرب من أذهان المخاطبين فضلاً عن ابلاغ المخاطب دلالة معينة ينبغي الوقوف عندها، ومن أهم تلك الدلالات:

١. تعظيم الآخرة وتحقير الدنيا

الاخرة اسم يجمع كل ما يكون بعد هذه الحياة الدنيا، وهي تبدأ منذ قيام الساعة، وتستمر في خلود لا يعلم مداه إلّا الله، وقد جاءت وصفاً لكلمة الدار في آيات قرآنية بينما لم يرد تعبير (الدار الدنيا) في القرآن ابداً، ومرد ذلك أنّ الدار تعني الاستقرار والدوام والآخرة دار الدوام والاستقرار والخلود، والدنيا ليست كذلك[٦٦].

أمّا الدنيا حينما ترد وحدها في القرآن فإنّها تقابل (الاخرة) وترد عندما يكون الحديث عن الدنيا فقط، ولا يعترض السياق القرآني لعمل الإنسان وصفاته وآثاره ونتاجه، وهذا يدلّ على أنّ (الدنيا) بهذا الاستعمال هي علم على هذه الحياة التي نحياها قبل الموت. أمّا تعبير (الحياة الدنيا) فيرد عندما يريد الله عزّ وجلّ أنْ يصور استغراق الإنسان في هذه الحياة، وعدم اهتمامه بما بعدها، واغتراره بأهوائها وشهواتها، كأنّما يريد الله عزّ وجلّ أنْ يقول أنّ هذا الإنسان يظن انَّ هذه هي الحياة، ولكنّه لا يعلم أنّها الحياة الدنيا، لا الحياة العليا، ولا الحياة الفضلى السامية[٦٧].

وهذا المعنى وقف عنده أمير المؤمنين عليه السلام وشخّصه على هيئة إنسان، فالدنيا بمثابة شخص يودعه؛ لأنّها لا بقاء لها والآخرة بمثابة شخص يستقبله ويشرف بالاطلاع وذلك في قوله: «أمَّا بعدُ فإنَّ الدُّنيا قد أدبرتْ وآذَنتْ بوداع، وأنَّ الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع»[٦٨].

فقد بيّن لنا الإمام علاقة الإنسان بالدنيا وارتباطه بها وكأنّها صديق أعرض عنه وأعلمه بوداعه (فانّ التقضّي

لّما استلزم المفارقة وكانت مفارقة الدنيا مستلزمة لأسف الإنسان عليها ووجده لها أشبه ذلك ما يفعله الإنسان في حق صديقه المرتحل عنه في وداعه له من الآسف على فراقه والحزن والبكاء ونحوه، فاستعير اسم الوداع له، وكنّى باعلامها بذلك عن الشعور الحاصل بمفارقتها من تقضيّها شيئاً فشيئاً، أو هو اعلام بلسان الحال)[٦٩].

أمّا الآخرة فهي بمثابة شخص مقبل ينبغي الاستعداد له، وهو رفيع المنزلة، إذْ نزّلها الإمام (لشرفها على الدنيا في حال إقبالها منزلة عال عند سافل، فاسند إليها لفظ الإشراف، ولأجل إحصاء الأعمال الدنيوية فيها منزلة عالم مطّلع، فأطلق عليها لفظ الاطلاع)[٧٠].

وتأكيداً على تعظيم الآخرة وتصغير شان الدنيا قوله عليه السلام: «ألا وإنَّ الدُّنيا قد ولَّتْ حذَّاء، فلم يبقَ منها إلّا صُبابة كصبابةِ الإناء، اصطبَّها صابُّها. ألّا وإنَّ الآخرة قد أقبلتْ، ولكلٍّ منها بنون فكونُوا من أبناءِ الآخِرةِ ولا تكونوا من أبناء الدُّنيا، فإنَّ كُلَّ ولدٍ سيُلحَقُ بامهِ يومَ القيامة»[٧١].

فكلام الإمام في هذه الخطبة شبيه بما قبلها إلّا أنّ الدنيا والآخرة كانتا أكثر تشخيصاً فهما بمثابة الأب، وهذا متأتٍ من شدة تعلق الإنسان وميله إلى مراده سواء كان من أبناء الدنيا أم الآخرة، قال البحراني: (إنّ الابن لّما كان من شأنه الميل إلى والده أما ميلاً طبيعياً، أو بحسب تصور المنفعة منه، وكان الخلق منهم من يريد الدنيا، ومنهم من يريد الآخرة، ويميل كل منهما إلى مراده مع ما يحصل من طرف الدنيا للراغبين فيها ممّا يتوهمونه لذة وخيراً، وما يحصل من طرف الآخرة للراغبين فيها من اللذة والسعادة أشبه كل بالنسبة إلى ما رغب فيه واستفاد منه الخير الابن بالنسبة إلى الأب)[٧٢].

ثم يحثّ عليه السلام الناس على أن يكونوا من أبناء الآخرة تعظيماً لشأنها، فكل ولد سيُلحق بأمّه يوم القيامة، فلهم فيها ما تشتهي أنفسهم ولهم ما يدّعون، فهم في حضانة أبيهم ونعيمه، وقد زال عنهم بؤس الغربة وشقاء اليُتم وسوء الحضن، لذا يجب على الإنسان أن يكون باراً بوالده متوصّلاً إليه بأقوى الأسباب وأمتنها، أمّا أبناء الدنيا فغن نفوسهم لما كانت مستغرقة في محبتها وناسية لطرف الآخرة فلتعلقها بمحبة الدنيا بمنزلة ولد لا تعلق له ولا مسكة إلّا بوالده، ثم حيل بينه وبينه مع شدة تعلقه به وشوقه إليه واخذ إلى أضيق الأسجان، وبدل بالعز الهوان فهو في أشد وَلَه ويُتم وأعظم حسرة وغم[٧٣].

وزيادة في تحقير الدنيا وتصغير شأنها والتحذير منها، ومن إغوائها، يصورها الإمام بصورة المرأة المتحببة بمالها وجمالها تارة، وبالمرأة المتزينة لخداع الرجال عن أنفسهم وأموالهم تارة أخرى.

فمن ذلك قوله عليه السلام: «أمّا بعدُ، فإنّي أحذرُكم الدُنيا، فإنّها حُلوَةٌ خَضِرةٌ، حُفّتْ بالشّهواتِ وتحبَّبتْ بالعاجِلَةِ، وراقتْ بالقليل، وتحلَّتْ بالآمال وتزينت بالغرور.... لا ينالُ امرؤٌ من غضارتها رَغَباً إلّا أرهقتْه من نوائبها تعباً، ولا يُمسي منها في جَناحِ أمِن إلّا أصبحَ على قَوادِمِ خوفٍ»[٧٤].

فقوله: (تحببت بالعاجلة) أي: اللذات الحاضرة التي مالت القلوب إلى الحياة الدنيا بسببها فأشبهت المرأة المتحببة بمالها وجمالها وقوله: (لا ينال امرؤ من غضارتها رغباً إلّا أرهقته من نوائبها تعباً) اسند إلى الدنيا أفعال الأحياء ملاحظة تشبهها بالمرأة المتزينة لخداع الرجال عن أنفسهم وأموالهم[٧٥].

ولأنّ الدنيا موصوفة بهذه الصفات المذمومة لطالما يصورها على أنّها عدوّ له،

فمن ذلك قوله: (أنا كابٌ الدنيا لوجهها وقادرُها بقدرها، وناظِرُها بعينها)[٧٦].

فقد بيّن الإمام عليه السلام مكانة الدنيا في نفسه، فهي عدوة له زاهد فيها، لذا كبها على وجهها، إشارة إلى زهده فيها وتركه لها وعدم الالتفات إليها، وعاملها بمقدارها؛ ولأن مقدارها حقير عنده كان التفاته إليها بحسب ضرورة البقاء فيها، وكذلك هو ناظرها بعينها: أي معتبرها بالعين التي ينبغي أن تعتبر بها الدنيا من كونها غدّارة غرّارة حائلة إلى غير ذلك من أوصافها[٧٧].

٢. الدلالة على الباطل

قد يبثّ الإمام علي عليه السلام الحياة في الفتنة وهي أمر معنوي ليبين للمخاطب بشاعتها، فيصورها بصورة رجل أعمى لا يتبين طريق الحق فيسلك طريق الباطل، إذْ قال: «ألاَ وإنَّ أخوفَ الفتن عندي عليكم فتنةُ بني أميةَ، فإنَّها فتنةٌ عمياءُ مظلمةٌ عمّتْ خطّتُها، وخصَّتْ بليَّتُها، وأصاب البلاءُ من أبصر فيها، وأخطأ البلاءُ من عَمِيَ عنها»[٧٨].

فالفتنة لم تجرِ على قانون الحق، لذلك وصفها بالعمياء، كالأعمى المتصرف في حركاته في غير جادّة، أو لكونها لا يسلك فيها سبيل الحق كما لا يهتدي بالعين العمياء، وكذلك لفظ المظلمة[٧٩].

٣. الدلالة على وجوب الاعتبار

قد يضفي الإمام عليه السلام الحياة ما ليس من شأنه الحياة من المعاني فالعبر والتقوى هي معاني محضة تنتفض شخوصاً فيكون لها القدرة على كشف الحقائق أمام النفس وهذا ما تفعله العبر، والحجز عن تقحم الشبهات وهذا ما تفعله التقوى، وذلك في قوله: «ذمَّتني بما أقولُ رَهِينةٌ، وأنا به زعيمٌ، إنَّ من صرّحَتْ له العِبَرُ عمَّا بين يديه من المَثُلاتِ، حجزتْهُ التقوى عن تَقحُّم الشُّبهات»[٨٠].

فقوله: **«صرحت له العبر عما بين يديه من المثلات»**، أسند الفعل (صرح) الذي لا يسند إلّا للعاقل، يقال: (صرح فلان بما في نفسه وقيل: عاد تعريضك تصريحاً)[٨١]، إلى العبر، والعبر معاني مجردة فهي (جمع عبرة، وهي الموعظة، والمثلات: العقوبات)[٨٢].

وهذا الإسناد يراد به تشخيص الموعظة وجعلها بمثابة الرجل الناصح الذي يفضي إلى التقوى التي تمنع من تقحم الشبهات، وقد أشار البحراني إلى الارتباط المعنوي بين قوله: **«من صرحت له العبر عمَّا بين يديه من المثلات»** وقوله **«حجزته التقوى عن تقحم الشبهات»** وذلك بقوله: (إنّ من أخذت العناية بزمام عقله فأعدّت نور بصيرته لمشاهدة ما صرحت به آفات الدنيا وكشفت عبرها من تبدّل حالاتها وتغيّراتها على من أوقف عليها همّه واتخذها دار الإقامة فشاهد أنّ كل ذلك أمور باطلة وأطلال زائلة.

فلا بدّ من أنْ يفيض الله على قلبه خشيته وتقواه فتستلزم تلك الخشية توقفه وامتناعه عن أنْ يلقي نفسه في تلك الأمور الزائلة والشبهات الباطلة لإشراق نور الحق الواضح على لوح نفسه بالاعتبار، فالتقوى اللازم له هو الحاجز عن ذلك التقحم)[٨٣].

الخاتمة

تميّز الإمام علي عليه السلام في استعماله لأسلوب التشخيص بالخصوصية في التعبير، فقد تفرد في نسبة بعض الأفعال التي تخص الإنسان إلى الزمان أو الطبيعة أو الأمور المعنوية، يتجلى هذا التفرد فيما يأتي:

١. ففي قوله: **«سيرعف بهم الزمان»** شبه الزمان بالإنسان ونسب وجودهم إلى الزمان؛ لأنّه من الأسباب المعدّة لقوابل وجودهم، وقد أراد الإمام بهذا التشخيص أنْ يبيّن صورة الزمان وهو يخرج هؤلاء القوم خروجاً ميسراً لا مشقة

فيه فتؤثر تلك الصورة بالمخاطب لقدرته على تخيلها في ذهنه.

٢. قد يصوّر الأيام على هيئة أشخاص مطاردين وذلك في قوله: «كم أطردت الأيام أبحثها عن مكنون هذا ألأمر، فأبى الله إلّا إخفاءه» فقد استعمل (أطردت)؛ لأنّها أدلّ على العزّ والقهر من طردت، فكأنه جعل الأيام أشخاصاً يأمر بإخراجهم وإبعادهم عنه، أي: ما زلت أبحث عن كيفية قتلي، وأي وقت يكون بعينه، وفي أي أرض يكون يوماً يوماً، فإذا لم أجده في اليوم أطردته واستقبلت غده، فأبحث فيه أيضاً فلا أعلم ما بعده وأطرده.

٣. ومن التفرد في الاستعمال أيضاً قوله: «وطفقت أرتئي بين أن أصول بيدٍ حذاءَ، وأَصبرَ على طخية عمياء يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير» فالطخية قطعة من الغيم والسحاب وصفها بالعمياء ليؤكد التباس الأمور واختلاطها، فكأنها إنسان أعمى لا يهتدي للأمور، فهو يعيش في ظلام، فإن الأعمى لما لم يكن ليهتدي لمطالبة كذلك هذه الظلمة لا يهتدي فيها للحق ولزومه.

٤. ومن أروع التصوير والتشخيص في المعنويات ما أمر به من أنْ يكون من أبناء الآخرة، ولا يكونوا من أبناء الدنيا بقوله: «فكنوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنّ كلّ ولد سيُلحق بأمّه يوم القيامة».

فالابن لّما كان من شأنه الميل إلى والده، وكان الخلق منهم من يريد الدنيا ومنهم من يريد الآخرة، ويميل كل منهما إلى مراده مع ما يحصل من طرف الدنيا للراغبين فيها ممّا يتوهمونه لذة وخيراً، وما يحصل من طرف الآخرة للراغبين فيها من اللّذة والسعادة أشبه كل بالنسبة إلى ما رغب فيه واستفاد منه الخير الابن بالنسبة إلى الأب.

٥. قد يبثّ الإمام علي عليه السلام الحياة في الفتنة وهي أمر معنوي ليبين للمخاطب بشاعتها فيصورها بصورة رجل أعمى إذ قال: «آلا وأن أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية فإنها فتنة عمياء مظلمة»؛ فالفتنة لم تجر على قانون الحق لذلك وصفها بالعمياء كالأعمى المتصرف في حركاته في غير جادة، أو لكونها لا يسلك فيها سبيل الحق كما لا يهتدي بالعين العمياء.

(١) ينظر: العين مادة (شخص) ٤/١٦٥ ولسان العرب ٥ / ٥٠ .
(٢) ينظر: لسان العرب ٥ / ٥٠ .
(٣) ينظر: العين مادة (شخص) ٤/١٦٥ ولسان العرب ٥ / ٥٠ .
(٤) ينظر: العين مادة (شخص) ٤/١٦٥ ولسان العرب ٥ / ٥٠ .
(٥) ينظر: العين مادة (شخص) ٤/١٦٥ ولسان العرب ٥ / ٥٠ .
(٦) ينظر: العين مادة (شخص) ٤/١٦٥ ولسان العرب ٥ / ٥٠ .
(٧) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠ / ١٣٨ .
(٨) م.ن .
(٩) م.ن ٨ / ٢١٠ .
(١٠) م.ن .
(١١) كشاف اصطلاحات الفنون ٢/٤٨٨ – ٤٨٩ .
(١٢) المعجم الأدبي ٦٧ .
(١٣) مشاهد القيامة في القرآن ١٧٨ .
(١٤) التصوير الفني في القرآن ٦٣ – ٦٤ .
(١٥) الطبيعة في القرآن ٤٦٠ .
(١٦) ينظر: الزمان الدلالي ٤٦ – ٥٦ .
(١٧) الأزمنة والأمكنة ٢/١٧٩ .
(١٨) ينظر: الزمان الدلالي ٨٧ – ٩٠
(١٩) ينظر: لسان العرب مادة (زمن) ٤/٤٠٨ .
(٢٠) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/٢٣٢ .
(٢١) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/٢٣٢ . ومنهاج البراعة ٣/١٥٩ .
(٢٢) ينظر: شرح نهج البلاغة للبحراني ١/٤٧٤ .

(٢٣) ينظر : المفردات في غريب القرآن ١٧٩. والعين : مادة دهر ٢٣/٤.

(٢٤) النهاية في غريب الحديث ١٤٤/٢.

(٢٥) ينظر : الزمان الدلالي ٩٢.

(٢٦) الجاثية: ٢٤.

(٢٧) ينظر : الكشاف ٢٩٤/٤، والعين ٢٣/٤.

(٢٨) المفردات في غريب القرآن ١٧٩.

(٢٩) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦٣/٢.

(٣٠) المفردات في غريب القرآن ١٥٧.

(٣١) ينظر : شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦٣/٢.

(٣٢) شرح نهج البلاغة ١١٨/٢.

(٣٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٣٨/٢.

(٣٤) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٣٩/٢.

(٣٥) شرح نهج البلاغة ٩٣/٢.

(٣٦) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩٥/٧.

(٣٧) ينظر : شرح نهج البلاغة ١٢٩/٣ – ١٣٠.

(٣٨) ينظر : الزمان الدلالي ٩٦، ولسان العرب(يوم)

(٣٩) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١٢/١١.

(٤٠) م.ن ١١٤/١١.

(٤١) شرح نهج البلاغة ٧٢/٤.

(٤٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩٠/٩.

(٤٣) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد/٩٠ – ٩١، وشرح نهج البلاغة للبحراني ٢٦٤/٣.

(٤٤) ينظر : الطبيعة في القرآن الكريم ٨ – ٩.

(٤٥) الطبيعة في القرآن الكريم ٢٩٣.

(٤٦) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦٩/٣.

(٤٧) شرح نهج البلاغة ١٦٩/٣.

(٤٨) ينظر : المفردات في غريب القرآن ٢٧١ .

(٤٩) شرح نهج البلاغة ١٨٠/٢.

(٥٠) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣١٨/٦.

(٥١) ينظر : شرح نهج البلاغة للبحراني ٤٥١/٢.

(٥٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الجديد ٢٠٨/٨.

(٥٣) م.ن .

(٥٤) ينظر : شرح نهج البلاغة للبحراني ١٩٦/٣.

(٥٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦١/٩.

(٥٦) ينظر : شرح نهج البلاغة للبحراني ٢٣٤/٣.

(٥٧) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦٢/٩.

(٥٨) البيان والتبيين ٧١/١ -٧٢.

(٥٩) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١٢/١١.

(٦٠) ينظر : شرح نهج البلاغة للبحراني ٧٢/٤.

(٦١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٥٤/١.

(٦٢) المصدر نفسه .

(٦٣) ينظر : شرح نهج البلاغة ٤٢٧/١ - ٤٢٨.

(٦٤) ينظر : المعنى والتوافق ١٥ .

(٦٥) التصوير الفني في القرآن ٦٢.

(٦٦) ينظر : التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم ٣٧٠.

(٦٧) ينظر : التطور الدلالي ٣٤٩ -٣٥٠.

(٦٨) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧٤/٢.

(٦٩) شرح نهج البلاغة للبحراني ٦١/٢.

(٧٠) المصدر نفسه ٦٢/٢.

(٧١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٥٠/٢.

(٧٢) شرح نهج البلاغة ١٤٨/٢.

(٧٣) ينظر : شرح نهج البلاغة، البحراني ١٤٨/٢ -١٤٩.

(٧٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧٧/٧.

(٧٥) ينظر : شرح نهج البلاغة، البحراني ١١٣/٣ -١١٥.

(٧٦) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠٠/٨.

(٧٧) ينظر : شرح نهج البلاغة، البحراني ١٧٧/٣.

(٧٨) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣٥/٧.

(٧٩) ينظر : شرح نهج البلاغة، البحراني ٢/٥٢٠.

(٨٠) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/٢٥٣.

(٨١) المفردات في غريب القرآن ٢٨٢ – ٢٨٣.

(٨٢) ينظر : شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد١/٢٥٣، وينظر: منهاج البراعة ٣/١٩٤ -١٩٥.

(٨٣) شرح نهج البلاغة، البحراني ١/٤٨٨.

المصادر والمراجع

- الأزمنة والأمكنة: أبو علي احمد بن محمد المرزوقي، ط حيدر آباد ١٣٣٢هـ.

- البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المطبعة التجارية الكبرى، ط١ ١٣٤٥هـ - ١٩٢٦م.

- التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، دار المعارف ١٩٦٣م.

- التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم: عودة خليل أبو عودة، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

- الزمان الدلالي: د. كريم زكي حسام الدين، دار غريب، القاهرة، ط٢.

- شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، – بغداد، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

- شرح نهج البلاغة: كمال الدين ميثم بن علي البحراني (ت٦٧٩هـ)، أنوار الهدى، إيران، قم، ط١، ١٤٢٧هـ.

- الطبيعة في القرآن الكريم: د. كاصد ياسر الزيدي، المركز العربي للطباعة، بيروت.

- العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، دار الهلال، ط٢، ١٩٨٦م.

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم الزمخشري، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

- كشاف اصطلاحات الفنون: محمد علي بن علي التهانوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢٠٠٦، ٢م – ١٤٢٧هـ.

- لسان العرب: ابن منظور، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

- مشاهد القيامة في القرآن: سيد قطب، دار المعارف، القاهرة، ط٩.

- المعنى والتوافق: د. محمد غليم الحاج، عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

- المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصبهاني، راجعه وقدم له وائل أحمد عبد الرحمن، المكتبة التوفيقية، مصر.

- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: الميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي، تحقيق: علي عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

- النهاية في غريب الحديث: أبو السعادات ابن الأثير، تحقيق: د. محمود الطناحي وطاهر الزاوي، بيروت، ١٩٦٥م.

الإمام علي عليه السلام

في مجالس السيد المرتضى

أ. م. د. عباس علي الفحام

جامعة الكوفة/ كلية التربية الأساسية

الحمد لله رب العالمين وأتم الصلاة والتسليم على النبي الأمين وعلى آل بيته الطاهرين صلوات الله عليهم اجمعين وبعد: فقد تحدد البحث بعنوان (الإمام علي عليه السلام في مجالس السيد المرتضى)، وهي دراسة في أثر علمي مميز اسمه الشائع أكاديميا «أمالي المرتضى» للشريف المرتضى علم الهدى علي بن الحسين الموسوي المتوفى سنة (٤٣٦هـ). والأمالي جمع إملاء وهو أسلوب شاع في عصر الشريف المرتضى وما قبله، يقصد به ما يمليه الشيخ على طلبته من محاضرات أو مجالس، أو ما يمليه هو بخط يده.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وأتم الصلاة والتسليم على النبي الأمين وعلى آل بيته الطاهرين صلوات الله عليهم اجمعين وبعد:

فقد تحدد البحث بعنوان (الإمام علي عليه السلام في مجالس السيد المرتضى)، وهي دراسة في أثر علمي مميز اسمه الشائع أكاديميا «أمالي المرتضى» للشريف المرتضى علم الهدى علي بن الحسين الموسوي المتوفى سنة (٤٣٦هـ).

والأمالي جمع إملاء وهو أسلوب شاع في عصر الشريف المرتضى وما قبله، يقصد به ما يمليه الشيخ على طلبته من محاضرات أو مجالس، أو ما يمليه هو بخط يده.

والاسم الذي وضعه السيد المرتضى لأماليه هو «غرر الفوائد ودرر القلائد»، ووقع في جزأين، مجموع ما ضمّا من مجالس ثمانون مجلساً، توزع ذكر أمير المؤمنين عليه السلام في كثير منها، لذلك صنفنا هذا الذكر الجميل النافع بمبحثين هما: الأول: اختص بـ(المجالس القرآنية)، وشملت مطلبين هما الوقفات التفسيرية للإمام عليه السلام والثاني ما روي عنه من قراءات. أما المبحث الثاني فقد عُقد للمجالس بـ(المجالس الأدبية واللغوية)، واشتمل على عدة تفصيلات هي: أدب التوحيد، وأدب الإيجاز والجوابات المسكتة للإمام عليه السلام، والإمام في الشعر، وغريب كلام الإمام.

وقد حاول البحث الكشف عن الطبيعة العلمية التي تميز بها السيد المرتضى من تقبل الآراء الأخرى لسابقيه من مختلف المشارب، حتى أولئك الذين يختلفون معه في المذهب والرأي، فهو يقلب آراءهم ويستعرضها من دون قدح أو ضيق، فيقبل ذلك

ويبعد هذا بنحو هادئ وعلمي، وكثيراً ما يعرض رأياً جديداً خاصاً به في اللغة أو الفقه أو البلاغة.

وتعددت مصادر البحث لتعدد الموضوعات في مجالس السيد المرتضى، فكانت المصادر اللغوية والنقدية والتاريخية والتفسيرية عدة الدراسة وسندها في الكشف والرصد والتحليل والاستنتاج الذي انتهى إلى خلاصة لَلَمت الموضوعات المختلفة في نقاط محددة يسّرت للقارئ استخلاص الخاتمة المفيدة.

يبقى أملنا دائما هو الدعاء بالتوفيق بتقبل أعمالنا التي لا يتاح الكمال لها أبداً، لأن ذلك من شأن الله تعالى وحده، والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول: الإمام علي عليه السلام في المجالس القرآنية

استند السيد المرتضى في كثير من مجالسه في تفسير القرآن الكريم إلى كلام أمير المؤمنين عليه السلام وآرائه اللغوية، وسنحاول دراستها على وفق ذكرها من محورين هما: تفسير القرآن الكريم، والقراءات.

أولاً: تفسير القرآن الكريم

١. قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾[1].

يثير السيد بدءاً الأذهان بأسلوب الاستفهام منبهاً ومشوقاً ومثيراً فضول السامعين والقارئين معاً، فهي سمة تتكرر لديه في مجالسه كلها، فيقول: (إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾.

الجواب: قلنا: أمّا التنور فقد ذكر في معناه وجوه:

أولها

أنّه تعالى أراد بالتنور وجه الأرض، وأن الماء نبع وظهر على وجه الأرض وفار.

هذا قول عكرمة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما مثله. والعرب تسمى وجه الأرض تنوراً.

ثانيها

أن يكون المراد أن الماء نبع من أعالي الأرض وفار من الأماكن المرتفعة منها. وهذا قول قتادة. وروى عنه في قوله تعالى: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ قال: ذكر لنا أنّه أرفع الأرض وأشرفها.

ثالثها

أن يكون المراد بـ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أي برز النور وظهر الضوء وتكاثف حرارة دخول النهار وتقضي الليل، وهذا القول يروى عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه[٢].

رابعها

أن يكون المراد بالتنور الذي يختبز فيه على الحقيقة، وأنه تنور كان لآدم عليه السلام أبي البشر، وقال قوم: إن التنور كان في دار نوح عليه السلام بعين وردة من أرض الشام.. وقال آخرون: بل كان التنور في ناحية الكوفة، والذي روى عنه أن التنور هو تنور الخبز الحقيقي ابن عباس والحسن ومجاهد وغيرهم.

خامسها

أن يكون معنى ذلك اشتد غضب الله تعالى عليهم وحل وقوع نقمته بهم، وذكر تعالى التنور مثلاً لحضور العذاب، كما تقول العرب قد فارت قدر القوم، إذا اشتد الحرب وعظم الخطب. والوطيس هو التنور، وتقول العرب أيضا: قد حمي الوطيس، إذا اشتد بالقوم حربهم.. ومن ذلك الحديث المروى عنه عليه الصلاة والسلام: أنه نهى عن البول في الماء الدائم؛ يعنى الساكن.

ويقال: قد دوم الطائر في الهواء، إذا بسط جناحيه وسكنهما ولم يخفق

بهما، و(نفثؤها) معناه نسكنها. يقال: فثأت غضبه عني وفثأت الحار بالبارد إذا كسرته به.

سادسها

أن يكون التنور الباب الذي يجتمع فيه ماء السفينة، فجعل فوران الماء منه والسفينة على الأرض علماً على ما أنذر به من إهلاك قومه. وهذا القول يروى عن الحسن. وأولى الأقوال بالصواب قول من حمل الكلام على التنور الحقيقي، لأنه الحقيقة، وما سواه مجاز، ولأن الروايات الظاهرة تشهد له.

وأضعفها وأبعدها من شهادة الأثر قول من حمل ذلك على شدة الغضب واحتداد الأمر تمثيلا وتشبيها، لأن حمل الكلام على الحقيقة التي تعضدها الرواية أولى من حمله على المجاز والتوسع مع فقد الرواية.

وأي المعاني أريد بالتنور فان الله تعالى جعل فوران الماء علماً لنبيه عليه السلام، وأنه يدل على نزول العذاب بقومه لينجو بنفسه وبالمؤمنين)[٣].

وفوران التنور على المعنى الحقيقي يعني اندفاع شدة الماء نحو الأعلى[٤]، (وكان فوران الماء من التنور المسجور بالنار، معجزة لنوح عليه السلام ودلالة على صدقه، وأكثر المفسرين على أنها التنور التي يخبز فيها)[٥]، وعن المفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام قال:

«كان التنور في بيت عجوز مؤمنة، في دير قبلة ميمنة مسجد الكوفة»، قال قلت: فكيف كان بدء خروج الماء من ذلك التنور؟ قال: «نعم إن الله أحب أن يري قوم نوح آية، ثم إن الله سبحانه أرسل عليهم المطر يفيض فيضا، وفاض الفرات فيضا، وفاضت العيون كلها فيضا، فغرقهم الله، وأنجى نوحا ومن معه في السفينة»[٦].

وتؤكد الروايات فوران التنور من مسجد الكوفة -مثلما نقل ذلك الرازي في تفسيره عن الإمام علي عليه السلام[٧] - فهو ذو فضل عظيم لقدمه وارتباطه بالأنبياء إذ هو مصلاهم عليهم السلام «ولقد صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين أسري به إلى السماء، قال له جبرائيل عليه السلام: يا محمد! هذا مسجد أبيك آدم، ومصلى الأنبياء، فانزل فصل فيه، فنزل فصلى فيه، ثم إن جبرائيل عليه السلام عرج به إلى السماء»[٨].

ولتواتر الروايات التي أكدت ذلك أقر السيد رجحان كفة المعنى الحقيقي للتنور على المجازي على الرغم مما روي عن أمير المؤمنين - محل الشاهد - عن أن المقصود بفوران التنور طلوع الفجر.

٢. قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[٩].

قال المرتضى منبها بأسلوبه الاستفهامي: (إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾.

فقال: ما تأويل هذه الآية؟ وما معنى ما تضمنته؟.. الجواب قلنا: أما ابتداء الآية فتذكير بنعم الله تعالى عليهم وما أزاح به علتهم في تكاليفهم، وما تفضل به عليهم من الآلات التي يتوصلون بها إلى منافعهم ويدفعون بها المضار عنهم، لأن الحاجة إلى أكثر المنافع الدينية والدنيوية ماسة، فالحاجة إلى العينين للرؤية واللسان للنطق والشفتين لحبس الطعام والشراب وإمساكهما في الفم والنطق أيضا.. فأما (النجد) في لغة العرب فهو الموضع المرتفع من الأرض، والغور الهابط منها. وإنما سمي الموضع المرتفع من أرض العرب نجداً لارتفاعه. واختلف أهل التأويل في المراد بـ(النجدين)، فذهب قوم إلى أن المراد بهما طريقا

الخير والشر، وهذا الوجه روي عن علي بن أبي طالب عليه السلام وابن مسعود والحسن وجماعة من المفسرين.

وروي أنه قيل لأمير المؤمنين علي عليه السلام: إن أناساً يقولون في قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾.

إنهما الثديان، فقال عليه السلام: «لا، إنهما الخير والشر»[١٠].

فكأن المعنى الذي أراده الإمام هو تشبيه طريق الخير والشر بالطريقين العاليين لظهوره فيهما[١١]، وهما يوحيان بالكد وبذل الجهد من الإنسان في سلوكهما بسبب ارتفاعهما مثلما هو ظاهر من المعنى اللغوي[١٢].

وفي هذا الشأن أثار الشيخ الطبرسي شبهة طريفة وأجاب عنها بقوله (ولو قيل: كيف يكون نجد الشر مرتفعا كنجد الخير، ومعلوم أنه لا رفعة في الشر؟

(والجواب): إن الطريقين جميعاً ظاهران باديان للمكلفين، فسمى سبحانه كليهما نجداً لظهوره وبروزه.

ويجوز أن يكون سمّى طريق الشر نجداً من حيث يحصل في اجتناب سلوكه الرفعة والشرف، كما يحصل ذلك في طريق الخير. وقيل أيضاً إنه على عادة العرب في تثنية الأمرين إذا اتفقا على بعض الوجوه، فيجري لفظ أحدهما على الآخر، كقولهم القمرين في الشمس والقمر)[١٣]، وعلى أي معنى يحمل اللفظان فالقاسم فيهما هو الظهور.

ثانياً: القراءات

١. قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾[١٤].

وقف المرتضى على تأويل الآية الكريمة فقال: (إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

فقال: كيف يخبر تعالى أنهم لا يكذبون نبيه عليه الصلاة والسلام ومعلوم منهم إظهار التكذيب والعدول عن الاستجابة والتصديق! كيف ينفى عنهم التكذيب ثم يقول إنهم بآيات الله يجحدون! وهل الجحد بآيات الله إلاّ تكذيب نبيه عليه الصلاة والسلام! الجواب قلنا: قد ذكر في هذه الآية وجوه.

الوجه الأول

أن يكون إنما نفى تكذيبهم بقلوبهم تدينا واعتقادا، وإن كانوا مظهرين بأفواههم التكذيب، لأنا نعلم أنه كان في المخالفين له عليه الصلاة والسلام من يعلم صدقه ولا ينكر بقلبه حقه، وهو مع ذلك معاند فيظهر خلاف ما يبطن. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

ومما يشهد لهذا الوجه من طريق الرواية ما رواه سلام بن مسكين عن أبي يزيد المدني أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقي أبا جهل فصافحه أبو جهل فقيل له: يا أبا الحكم أتصافح هذا الصابئ! فقال: والله إني لأعلم أنه نبي، ولكن متى كنا تبعاً لبنى عبد مناف! فأنزل الله الآية.. وفى خبر آخر إنّ الأخنس بن شريق خلا بأبي جهل فقال له: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ههنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا.

فقال له أبو جهل: ويحك، والله إنّ محمداً لصادق وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟

وعلى الوجه الأول يكون معنى ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي لا

يفعلون ذلك بحجة ولا يتمكنون من إبطال ما جئت به ببرهان، وإنما يقتصرون على الدعوى الباطلة. وهذا في الاستعمال معروف، لأن القائل يقول: فلان لا يستطيع أن يكذبني ولا يدفع قولي، وإنما يريد أنه لا يتمكن من إقامة دليل على كذبه ومن حجة على دفع قوله، وإن كان يتمكن من التكذيب بلسانه وقلبه فيصير ما يقع من التكذيب من غير حجة ولا برهان غير معتد به.

وروي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قرأ هذه الآية بالتخفيف ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ على أن المراد بها أنهم لا يأتون بحق هو أحق من حقك، وقال محمد بن كعب القرظي معناها لا يبطلون ما في يديك، وكل ذلك يقوي هذا الوجه وسنبين أن معنى هذه اللفظة مشددة ترجع إلى معناها مخففة.

الوجه الثاني

أن يكون معنى الآية أنهم لا يصدقونك ولا يلفونك متقوّلاً، كما يقولون قاتلته فما أجبنته أي لم أجده جباناً، وحادثته فما أكذبته أي لم ألفه كاذبا..)[١٥].

ومحل الشاهد فيما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في التخفيف بلفظ ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾، فقد أبان السيد المرتضى عدم الاختلاف في المعنى بين تشديدها وتخفيفها، وفصل أبو حيان الأندلسي في ذلك فقال: (وقرأ علي ونافع والكسائي بتخفيف ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾، وقرأ باقي السبعة وابن عباس بالتشديد، فقيل: هما بمعنى واحد نحو كثر وأكثر.

وقيل: بينهما فرق، حكى الكسائي أن العرب تقول: كذبت الرجل إذ نسبت إليه الكذب وأكذبته إذا نسبت الكذب إلى ما جاء به دون أن تنسبه إليه.

وتقول العرب أيضا: أكذبت الرجل إذا وجدته كذّاباً كما تقول: أحمدت الرجل إذا وجدته محموداً، فعلى القول بالفرق، يكون معنى التخفيف لا يجدونك كاذباً أو لا ينسبون الكذب إليك، وعلى معنى التشديد يكون إما خبراً محضاً عن عدم تكذيبهم إياه ويكون من نسبة ذلك إلى كلهم على سبيل المجاز، والمراد به بعضهم لأنه معلوم قطعاً أن بعضهم كان يكذبه، ويكذب ما جاء به.

وإما أن يكون نفي التكذيب لانتفاء ما يترتب عليه من المضار فكأنه قيل ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾ تكذيباً يضرك لأنك لست بكاذب فتكذيبهم كلا تكذيب)[١٦].

٢. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾[١٧].

أثار السيد المرتضى تعدد القراءات لهذه الآية الكريمة فقال: (وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام وابن عباس ويحيى بن يعمر ومجاهد ومسلم بن صبيح وأبى الضحى ومروان وأبى صالح وجابر بن يزيد أنهم قرؤوا (سَئَلت) بفتح السين والهمزة وإسكان التاء بأي ذنب قتلت. وروي بإسكان اللام وضم التاء الثانية على أن الموؤدة موصوفة بالسؤال والقول ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾... فأما من قرأ سَئلت بفتح السين فيمكن فيه الوجهان اللذان ذكرناهما من أن الله تعالى كلّمها في تلك الحال وأقدرها على النطق)[١٨].

والوَأد هو الثقل[١٩] (لأنه إثقال بالتراب، كان الرجل إذا ولدت له بنت فأراد بقاء حياتها ألبسها جبة من صوف أو شعر لترعى له الإبل والغنم في البادية، وإن أراد قتلها تركها حتى إذا بلغت قامتها ستة أشبار فيقول: لأمها طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أقاربها وقد حفر لها بئراً في الصحراء

فيبلغ بها إلى البئر فيقول لها: انظري فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى يستوي البئر بالأرض، وقيل: كان الحامل إذا قربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة، فإذا ولدت بنتاً رمتها في الحفرة، وإذا ولدت ابناً أمسكته)[٢٠].

ويبدو أن الباعث من وراء ذلك الجهل وخوف العار والفقر كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾[٢١].

ومحل الشاهد هو القراءة المروية عن أمير المؤمنين عليه السلام التي جعلت الموؤدة موصوفة، قال الطبرسي مؤيداً: (ويمكن أن يكون الله سبحانه كلمها في تلك الحال، وأقدرها على النطق حتى قالت ذلك القول.

ويعضده ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: **«يجئ المقتول ظلما يوم القيامة، وأوداجه تشخب دما، اللون لون الدم، والريح ريح المسك، متعلقا بقاتله يقول: يا رب! سل هذا فيم قتلني»**[٢٢][٢٣].

وثمة ما يثير كثيراً من التساؤلات بشأن هذه القراءات المروية، فهي محل نظر بسبب تردد تراث الفكر الشيعي الفقهي في قبولها إجمالاً.

المبحث الثاني
الإمام علي عليه السلام في المجالس الأدبية واللغوية

حفل كتاب الأمالي بذكر أمير المؤمنين عليه السلام في مجالسه الأدبية واللغوية مثرياً ومعززاً به الحجة في إيراد الفكرة وتعضيد الرأي. وسنقف على ذلك كله مفصلاً على النحو الآتي:

أولا: أدب التوحيد

وقف السيد المرتضى على أدب الإمام عليه السلام في التوحيد وأصوله فقال: (اعلم أنَّ أصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين

علي عليه السلام وخطبه وأنّها تتضمن من ذلك مالا مزيد عليه ولا غاية وراءه، ومن تأمل المأثور في ذلك من كلامه علم أن جميع ما أسهب المتكلمون من بعد في تصنيفه وجمعه إنّما هو تفصيل لتلك الجمل وشرح لتلك الأصول.

وروي عن الأئمة من أبنائه عليهم السلام من ذلك ما لا يكاد يحاط به كثرة، ومن أحب الوقوف عليه وطلبه من مظانه أصاب منه الكثير الغزير الذي في بعضه شفاء للصدور السقيمة ونتاج للعقول العقيمة، ونحن نقدم على ما نريد ذكره شيئا مما روي عنهم في هذا الباب)[٢٤].

وفي تعليق المرتضى إشارة لم يسبق بها إلى عمق أدب أمير المؤمنين في وصف الذات الإلهية والكشف عن المعرفة بالله تعالى وتوحيده.

ولا مبالغة في القول بأن أكثر كلام الإمام المجموع في(نهج البلاغة) هو بشأن التوحيد، بل أكثر الخطب التي تحدّث بها عن الحيوان وخلق الإنسان والسماء والأرض فضلاً عن بعض مواقفه الخاصة تندرج في ضمن توظيفه لها في معاني تعظيم الله تعالى وإثبات وحدانيّته وبيان صفاته سبحانه بأجلى كلام وأبهى تعبير عرفته العربية الفصيحة، لأنّ كلامه عليه السلام كما قال الشريف الرضي هو: (الكلام الذي عليه مسحة من الكلام الإلهي، وفيه عبقة من الكلام النبوي)[٢٥].

وقد التفت الشهيد المطهري إلى هذه السمة التعبيرية العميقة في كلام فقال: (ولعلّنا نستطيع أن نعدّ البحوث التوحيدية في نهج البلاغة من أعجب بحوث هذا الكتاب، فإنها - بدون مبالغة، ومع الالتفات إلى الشرائط

الزمانية و المكانية للصدور - تقرب من حدود الإعجاز)[٢٦].

ومما وقف عليه السيد المرتضى في أماليه الحديث المباشر للإمام عن صفة الله تعالى في التأليف بين المتناقضات: «..بمضادته بين الأشياء علم أن لا ضد له، وبمقارنته بين الأمور علم أن لا قرين له، ضاد النور بالظلمة، والخشونة باللين، واليبوسة بالبلل، والصرّ بالحرور، مؤلف بين متباعداتها، مفرق بين متدانياتها»[٢٧].

ويبدو أن ثمة رؤية شاملة للكون لدى الإمام استطاع بها أن يوالف بين أجزاء الموجودات ليقينه بأن صانعها واحد، لذلك هو يدأب على إيجاد علاقات خفية بين أجزاء هذا الكون وإن بدت بعيدة فيما بينها كل البعد، فهو بهذه الرؤية الشاملة يستنتج من مجموع المسوغات قاعدة عامة بأن من يجمع بينها خالق لا يمكن أن يكون له ضد، لأن الجمع بين الأضداد مستحيل على غير الله تعالى[٢٨].

وعن عمق معرفة الإمام بالله سبحانه ذكر له السيد أنه سئل بم عرفت ربك؟ فقال: «بما عرّفني به»، قيل: وكيف عرّفك؟ قال: «لا تشبهه صورة ولا يحس بالحواس ولا يقاس بقياس الناس»[٢٩].

ومثل ذلك نافياً حد المكان عن الله تعالى حين سأله رجل فقال: أين كان ربك قبل أن يخلق السماء والأرض؟ فقال: «أين سؤال عن مكان وكان الله ولا مكان»[٣٠].

وفي إمكان قدرة الله تعالى على حساب الخلق على كثرتهم أجاب الإمام بأدق دليل منظور حين قيل له: كيف يحاسب الله الخلق؟ قال: «كما يرزقهم»، فقيل: كيف يحاسبهم ولا يرونه؟ فقال: «كما يرزقهم ولا يرونه»[٣١].

وبهذا العمق المعرفي عن التوحيد الإلهي وأصوله سار عليه من بعده أبناؤه من الأئمة المعصومين عليهم السلام كما ذكر السيد وضرب له الأمثلة[٣٢].

وفي صفة العدل والقضاء والقدر فصَل الإمام عليه السلام الكلام بشكل عملي في توضيح ذلك فقد (روي أن شيخاً حضر صفين مع أمير المؤمنين عليه السلام فقال: أخبرنا يا أمير المؤمنين عن مسيرنا إلى الشام، أكان بقضاء من الله تعالى وقدر؟ قال له: «نعم يا أخا أهل الشام، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما وطئنا موطئاً ولا هبطنا وادياً ولا علونا تلعة إلا بقضاء من الله وقدر».

فقال الشامي: عند الله أحتسب عناي يا أمير المؤمنين، وما أظن أن لي أجراً في سعي إذا كان الله قضاه عليَّ وقدَّره، فقال له عليه السلام: «إن الله قد أعظم لكم الأجر على مسيركم وأنتم سائرون وعلى مقامكم وأنتم مقيمون ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرَّين ولا عليها مجبرين».

فقال الشامي: كيف ذاك والقضاء والقدر ساقانا وعنهما كان مسيرنا وانصرافنا؟ فقال له عليه السلام: «ويحك يا أخا أهل الشام لعلّك ظننت قضاءً لازماً وقدراً حاكماً، لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد والأمر من الله والنهي، ولما كان المحسن أولى بثواب الإحسان من المسيء والمسيء أولى بعقوبة الذنب من المحسن، تلك مقالة عبدة الأوثان وحزب الشيطان وخصماء الرحمن وشهداء الزور وقدرية هذه الأمة ومجوسها، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلَّف يسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُطع مكرهاً، ولم يُعصَ مغلوباً، ولم يكلف عسيراً،

ولم يرسل الأنبياء لعباً، ولم ينزل الكتب لعباده عبثاً، ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾»[٣٣].

قال الشامي: فما القضاء والقدر الذي كان مسيرنا بهما وعنهما؟ قال: «الأمر من الله بذلك والحكم»، ثم تلا: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾[٣٤].

فقام الشامي فرحاً مسروراً لما سمع هذا المقال، وقال: فرَّجتَ عني فرَّج اللهُ عنك يا أمير المؤمنين؛ وجعل يقول:

أنت الإمام الذي نرجو
يوم الحساب من الرحمن
أوضحت من أمرنا ما كان
جزاك ربك بالإحسان

وأكثر ما يلفت الانتباه في التعبيرات البيانية للإمام عليه السلام في التوحيد أسلوبه الفريد في إذابة جمله في الجمل القرآنية، وتمكنه من استعمال الاقتباس القرآني بين جمله إلى درجة عدم القدرة على التمييز بسهولة بين جُمل الإمام والجُمل القرآنية، بسبب تشابكهما بطرائق مختلفة من التراكيب البنائية، كاستعمال الاقتباس القرآني من دون التصريح بنسبة الشاهد القرآني إلى الله تعالى، مثلما مرَّ في النص السابق، وأحيانا يجري التمهيد للشاهد القرآني بتراكيب تجعلها تذوب في الجمل القرآنية بنحو يصعب على القارئ التمييز بينهما لأول وهلة، مثلما مرَّ في محاورته مع الشامي، وتمثله في الآية الشريفة: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾، فهي قد سبقت بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ

﴿ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾[٣٦].

وذكر المرتضى أثر كلام الإمام في التوحيد والموعظة في من جاء من بعده مثل الحسن بن أبي الحسن البصري، وهو أحد من تظاهر من المتقدمين بالقول بالعدل[٣٧].

فقد حدّد المرتضى مصدر فصاحة البصري في مواعظه واستقائه من معين أمير المؤمنين في البيان والمعاني فقال: (وكان الحسن رباع الفصاحة بليغ المواعظ كثير العلم، وجميع كلامه من الوعظ وذم الدنيا أو جله مأخوذ لفظاً ومعنى أو معنى دون لفظ من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فهو في ذلك القدوة والغاية)[٣٨].

وضرب السيد لعمق أدب التوحيد وفصاحته أمثلة كثيرة من كلام أمير المؤمنين مثل قوله: «شيئان أحدهما مأخوذ من الآخر أحدهما أكثر شيء في الدنيا والآخر أقل شيء في الدنيا العبر والاعتبار»[٣٩].

وقوله عليه السلام: «مَثَلُ الدنيا والآخرة مثل المشرق والمغرب متى ازددت من أحدهما قرباً ازددت من الآخر بعداً»[٤٠]. وقوله عليه السلام: «شتّان بين عملين عمل تذهب لذته وتبقى تبعته وعمل تذهب مؤونته ويبقى أجره»[٤١].

وقوله في وصف الدنيا: «ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء في حلالها حساب وفي حرامها عقاب، من صح فيها أمن، ومن فرط فيها ندم، ومن استغنى فتن، ومن افتقر حزن»[٤٢].

ومن قول له في كلام: «يا أيها الذامّ للدنيا والمغترّ بغرورها، متى استذّمت إليك؟ بل متى غرّتك؟ أبمضاجع آبائك من الثّرى أم بمنازل أمّهاتك من البلا؟ كم مرضت بكفيك؟ وكم عالجت

بيديك؟ تبتغي لهم الشفاء وتستوصف لهم الأطباء، مثلت لك بهم الدنيا نفسك وبمصرعهم مصرعك»[٤٣].

ولم يسترسل السيد كثيراً بذكر الشواهد على فصاحة أمير المؤمنين في هذا الباب وتأثر الحسن البصري بها، إذ قطع كلامه واستدرك على نفسه بقوله: (وهذا باب إن ولجناه اغترفنا من ثبج بحرٍ زاخر أو شؤبوب غمام ماطر، وكل قول في هذا الباب لقائل إذا أضيف إليه أو قويس به كان كإضافة القطرة إلى الغمرة أو الحصاة إلى الحرة، فإنما أشرنا إليه إشارة وأومأنا إليه ايماء)[٤٤].

ومن غريب ما ذكر السيد المرتضى عن الحسن البصري أنه كان (إذا أراد أن يحدث في زمن بني أمية عن أمير المؤمنين قال: قال أبو زينب)[٤٥]. في إشارة إلى محاولات السلطة الأموية على تعمية ذكر علي عليه السلام من الأذهان ومعاقبة من يذكر الإمام بخير.

ثانياً: أدب الإيجاز

تمثل هذا الايجاز في الجوابات المسكتة التي صدرت عن الإمام عليه السلام في حجاج أو اختلاف في قضية ما، وقد ذكر السيد بعضاً منها في مجالسه، كحجاج اليهود الإمامَ بشأن اختلاف المسلمين بعد النبي صلى الله عليه وآله.

فقد روي أن يهودياً قال لأمير المؤمنين عليه السلام: ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فيه، فقال عليه السلام: «إنما اختلفنا عنه لا فيه، ولكنكم ما جفت أقدامكم من البحر حتى قلتم لنبيكم: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[٤٦].

وثمة فرقٌ مقصود في التعبير في استعمال الفعل (اختلف) شرَحه ابن أبي الحديد في قوله (ما أحسن قوله: «اختلفنا عنه لا فيه»، وذلك لأن الاختلاف لم يكن في التوحيد والنبوة، بل في فروع

خارجة عن ذلك، نحو الإمامة والميراث، والخلاف في الزكاة أواجبة هي أم لا، واليهود لم يختلفوا كذلك، بل في التوحيد الذي هو الأصل.

قال المفسرون: مروا على قوم يعبدون أصناماً لهم على هيئة البقر، فسألوا موسى أن يجعل لهم إلها كواحد منها، بعد مشاهدتهم الآيات والأعلام، وخلاصهم من رق العبودية، وعبورهم البحر، ومشاهدة غرق فرعون، وهذه غاية الجهل)[٤٧].

ومثل ذلك الجواب الحاسم ما روي من أنه عليه السلام لما فرغ من دفن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سأل عن خبر السقيفة، فقيل له: إن الأنصار قالت: منا أمير ومنكم أمير، فقال عليه السلام: «فهلا ذكرت الأنصار قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم نقبل من محسنهم ونتجاوز عن مسيئهم، فكيف يكون الأمر فيهم والوصية بهم»[٤٨].

ومن جواباته الحكيمة لابن الكواء حين سأله: يا أمير المؤمنين كم بين السماء والأرض؟ قال: **«دعوة مستجابة»**[٤٩].

ذلك لأن الأمر لا يقاس بالأبعاد الزمانية كما اعتقد رأس النفاق ابن الكواء، فكان جواب الإمام عليه السلام له أبلغ وأعمق.

وذكر المرتضى أيضا جملة من الأقوال الحِكَمية للإمام عليه السلام القليلة النظير مثل: (قيل له: ما طعم الماء؟ فقال: «طعم الحياة»، وقيل له: كم بين المشرق والمغرب؟ قال: «مسير يوم للشمس»، وأثنى عليه رجل وكان متهما فقال: «أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك»، وكان عليه السلام إذا أطراه رجل قال: «اللهم انك أعلم بي منه، وأنا أعلم منه بنفسي فاغفر لي ما لا يعلم»)[٥٠].

ثالثاً: الإمام في الشعر

حفلت مجالس المرتضى في أماليه بذكر أمير المؤمنين عليه السلام في الشعر، سواء أكان ذلك في ذكر شخصه وما يمثله من قيمٍ عليا، أم بما يتعلق به عليه السلام من أخبارٍ فريدةٍ على ألسنة الشعراء سنحاول تفصيلها بما يأتي:

١. منصور النمري[٥١]

ترجم السيد المرتضى للشاعر العباسي النمري، ووقف على طرائف شعره في مدح الرشيد، ولاسيما استعماله البديعي بالتورية بـ(هارون) قاصداً بذلك الإمام علي عليه السلام.

قال السيد: (أخبرنا أبو عبيد الله المرزباني قال: حدثني أحمد بن عبد الله وعبد الله بن يحيى العسكريان قالا: حدثنا الحسن بن عليل العنبري قال:

قال: حدثنا أبو مسعر رجل منا من بنى غنم بن عبد القيس قال: منصور بن سلمة النمري دخل على البرامكة وهو شيخ كبير، وكان مروان بن أبي حفصة صديقا لي، على أني كنتُ أبغضُه وأمقته في الله، فشكا إليَّ وقال: دخل علينا اليوم رجل أظنه شامياً، وقد تقدمته البرامكة في الذكر عند الرشيد فأُذن له، فدخل فسلم وأجاد، فأذِن له الرشيد فجلس؛ قال: فأوجست منه خوفا.

فقلت: يا نفس أنا حجازي نجدي شافهت العرب وشافهتني، وهذا شامي أفتراه أشعر منى؟

قال: فجعلت أرفو[٥٢] نفسي إلى أن استنشده هارون فإذا هو والله أفصح الناس فدخلني له حسد.

فأنشده قصيدة تمنيت أنها لي، فقلت له: ما هي؟ قال: أحفظ منها أبياتا وهي[٥٣]: (من الوافر)

أمير المؤمنين إليك خضنا

غمار الموت من بلد شطير

بخوص كالأهلة خافقات

حملن على السرى وعلى

حملن إليك آمالا عظاماً
ومثل الصبح والبدر المنير
وقد وقف المديح بمنتهاه
وغايته وصار إلى المصير
إلى من لا يشير إلى سواه
إذا ذكر الندى كف المشير

قال مروان فوددت أنه قد أخذ جائزتي وسكت وعجبت من تخلصه إلى تلك القوافي ثم ذكر ولد أمير المؤمنين علي عليه السلام فأحسن التخلص، ورأيت هارون يعجب بذلك فقال[٥٤]:

يدٌ لك في رقاب بني علي
ومنٌّ ليس بالمنّ اليسير
فإن شكروا فقد أنعمت فيهم
وإلا فالندامة للكفور
مننت على ابن عبد الله يحيى
وكان من الحتوف على شفير
وقد سخطت لسخطتك المنايا
عليه فهي حائمة النسور
ولو كافأت ما اجترحت يداه
دلفت له بقاصمة الظهور
ولكن جل حلمك فاجتباه
على الهفوات عفو من قدير
فعاد كأنه لم يجن ذنباً
وقد كان اجتنى حسك الصدور
وإنك حين تبلغه أذاة
وإن ظلموا لمحترق الضمير[٥٥]

وإن الرشيد قال لما سمع هذا البيت: هذا والله معنى كان في نفسي. وأدخله بيت المال وحكمه فيه.. قال: مروان: وكان هارون يتبسم ويكاد يضحك للطف ما سمع. ثم أومأ إلي أن أنشد فأنشدته قصيدتي التي أقول فيها[٥٦]: (من الكامل)

خلُّوا الطريقَ لمعشرٍ عاداتُهم
حطم المناكب كلَّ يومِ
حتى أتيت على آخرها فوالله ما عاج ذلك الرجل - يعني النمري - بشعري ولا حفل به..

ثم أنشده منصور يومئذ[٥٧]: (من السريع)

إن لهارون إمام الهدى
كنزين من أجر ومن بر
يريش ما تبرى الليالي
تريش أيديهن ما يبري
كأنما البدر على رحله
ترميك منه مقلتا صقر

وأنشده أيضا[٥٨]: (من الكامل)

ولمن أضاع لقد عهدتك
لوصية العباس بالأخوال

قال مروان: وأخلق به أن يغلبني وأن يعلو علي عنده، فإني ما رأيت أحسن من تخلصه إلى ذكر الطالبيين)[٥٩].

ويبدو أن النمري كان ميالا إلى الإمام علي عليه السلام وأولاده فكان يتحين السبل لذكرهم آخرا بوساطة ذكر الرشيد ومدحه.

ومما صرح به السيد المرتضى عن ذلك الميل ما حدَّث به قائلاً: (وأخبرنا المرزباني قال: حدثنا أبو عبد الله الحكيمي قال: حدثني يموت بن المزرع قال: حدثني أبو عثمان الجاحظ قال: كان منصور النمري ينافق الرشيد ويذكر هارون في شعره ويريه أنه من وجوه شيعته وباطنه ومراده بذلك علي بن أبي طالب عليه السلام لقول النبي عليه الصلاة والسلام: أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إذ وشى به عنده بعض أعدائه، وهو العتابي، فقال: يا أمير المؤمنين هو والله الذي يقول[٦٠]: (من الوافر)

متى يشفيك دمعك من
ويبرد ما بقلبك من غليل

وأنشده أيضا[٦١]: (من السريع)

شاء من الناس راتع
يعللون النفوس بالباطل

ومنصور يصرح في هذه القصيدة بالعجائب، فوجه الرشيد برجل من فزارة، وأمره أن يضرب عنق منصور

النميري حيث تقع عينه عليه فقدم الرجل رأس عين[٦٢] من بعد موت منصور بأيام قلائل)[٦٣].

ويؤكد ذلك المعنى السيد بقوله: (قال المرزباني ويصدق قول الجاحظ أن النمري كان يذكر هارون في شعره وهو يعنى به أمير المؤمنين عليا عليه السلام ما أنشدناه محمد بن الحسن بن دريد النمري[٦٤]: (من البسيط)

آل رسول خيار الناس كلهم
وخير آل رسول الله هارون
رضيت حكمك لا أبغي به
لان حكمك بالتوفيق

وسرد السيد المرتضى أول لقاء النمري بالرشيد واتصاله به مؤكداً سياق الحديث بنفاق الشاعر مع الرشيد فقال: (وروي أن أبا عصمة الشيعي لما أوقع بأهل ديار ربيعة أوفدت ربيعة وفدا إلى الرشيد فيهم منصور النمري، فلما صاروا بباب الرشيد أمرهم باختيار من يدخل عليه منهم، فاختاروا عدداً بعد عدد إلى أن اختاروا رجلين: أحدهما النمري ليدخلا ويسألا حوائجهما، وكان النمري مؤدباً لم يسمع منه شعر قط قبل ذلك ولا عرف به، فلما مثل هو وصاحبه بين يدي الرشيد قال لهما: قولا ما تريدان؟ فأنشد النمري[٦٥]: (من البسيط)

ما تنقضي حسرة مني ولا

قال له الرشيد: قل حاجتك وعدّ عن هذا. فقال:

إذا ذكرت شبابا ليس يرتجع

وأنشده القصيدة حتى أتى إلى قوله: (من البسيط)

ركب من النمر عاذوا بابن
من هاشم إذ ألح الأزلم الجذع
متوا إليك بقربى أنت تعرفها
لهم بها في سنام المجد مطلع
إن المكارم والمعروف أودية

أحلك الله منها حيث تجتمع
إذا رفعت امرأ فالله رافعه
ومن وضعت من الأقوام
نفسي فداؤك والأبطال معلمة
يوم الوغى والمنايا بينهم قرع

حتى أتى إلى آخرها فقال له: ويحك ما حاجتك؟ فقال: يا أمير المؤمنين أخربت الديار وأخذت الأموال وهتك الحرم. فقال: اكتبوا له بكل ما يريد، وأمر له بثلاثين ألف درهم واحتبسه عنده. وشخص أصحابه بالكتب. ولم يزل عنده يقول الشعر فيه حتى استأذنه في الانصراف، فأذن له. ثم اتصل بالرشيد قوله: (من السريع)

شاء من الناس راتع هامل
يعللون النفوس بالباطل
تقتل ذرية النبي وترجون
خلود الجنان للقاتل
ما الشك عندي في كفر قاتله
لكنني قد أشك في الخاذل

فامتعض الرشيد وأنفذ من يقتله فوجده في بعض الروايات ميتا، وفي أخرى عليلا لما به، فسئل الرسول أن لا يأثم به، وأن ينتظر موته، ففعل، ولم يبرح حتى توفي فعاد بخبر موته إلى هارون العباسي)[٦٦].

٢. مرثية عمرو بن ود العامري

وقف الشريف المرتضى على بيتي أخت عمرو بن عبد ود التي رثته بها مفصلا الكلام في معنى (بيضة البلد) وتأويلاتها، واستشهد لآرائه اللغوية بوصف الإمام علي عليه السلام بذلك قائلاً (وقد حكى أهل اللغة أن بيضة القوم وسطهم وبيضة الدار وسطها وبيضة السنام شحمته وبيضة الصيف معظمه وبيضة البلد الذي لا نظير له وإن كان قد يستعمل ذلك في المدح والذم على سبيل الأضداد، وإذا استعمل في الذم فمعناه أن الموصوف بذلك حقير مهين كالبيضة التي تفسدها

النعامة فتتركها ملقاة ولا تلتفت إليها. فمما جاء من ذلك في المدح قول أخت عمرو بن عبد ود ترثيه وتذكر قتل أمير المؤمنين عليه السلام إياه وقيل إن الأبيات لامرأة من العرب غير أخته: (من البسيط)

لو كان قاتل عمرو غير قاتله

لكنت أبكي عليه آخر الأبد

لكن قاتله من لا يعاب به

قد كان يدعى قديماً بيضة البلد)[٦٧]

ويروى عجز البيت أحيانا (من كان يدعى أبوه بيضة البلد)[٦٨] إشارة إلى أبي طالب سيد مكة، ولا تنافي في المعنى بين الولد والوالد عليهما السلام.

وكان أمير المؤمنين عليه السلام قد صرع ابن عبد ود في غزوة الخندق حين تجرأ في اقتحام الخندق وإحراج المسلمين بالبراز له في قصة مشهورة ذكرتها كتب التاريخ، وكان منقذ المسلمين جميعاً فيها هو أمير المؤمنين حين دعا له الرسول صلى الله عليه وآله بقوله: «خرج الإسلام كله إلى الشرك كله»[٦٩].

وقال: «ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين»[٧٠].

وذلك لأنها كانت معركة مصيرية تحدد بها مستقبل التوحيد والإسلام كله.

٣. السيد الحميري

أفاض المرتضى رحمه الله تعالى في الكلام على رد الشمس لأمير المؤمنين عليه السلام، وذلك في وقفته الشعرية على بائية السيد محمد بن اسماعيل الحميري المسماة بالمذهبة ولاسيما قوله[٧١]:

ردت عليه الشمس لما فاته

وقت الصلاة وقد دنت للمغرب

قال المرتضى: (هذا خبر عن رد الشمس له عليه السلام في حياة النبي صلى الله عليه وآله، لأنه روي أن النبي صلى الله عليه وآله كان نائماً ورأسه في

حجر أمير المؤمنين، فلما حان وقت صلاة العصر كره أن ينهض لأدائها فيزعج النبي صلى الله عليه وآله من نومه، فلما مضى وقتها وانتبه النبي دعا الله بردها عليه، فردها وصلى الصلاة في وقتها)[٧٢].

ويبدو أسلوب المرتضى في الاستقصاء في إيراد الشبهات ودفعها واضحاً في إسهابه في تقليب وجوه الأقاويل التي اختصرها بهذا الاقتباس.

(فإن قيل: يقتضي أن يكون عليه السلام عاصياً بترك الصلاة.

قلنا: عن هذا جوابان:

(أحدهما): أنه إنما يكون عاصياً إذا ترك الصلاة بغير عذر، وإزعاج النبي لا ينكر أن يكون عذراً في ترك الصلاة.

فإن قيل: الأعذار في ترك جميع أفعال الصلاة لا تكون إلا بفقد العقل والتميز كالنوم والاغماء وما شاكلهما، ولم يكن في تلك الحال بهذه الصفة.

(والجواب الآخر): إن الصلاة لم تنته بمعنى جميع وقتها، وإنما فاته ما فيها من الفضيلة والمزية من أول وقتها..)[٧٣].

ويبدي المرتضى بهذا التفصيل في دفع الشبهات تأكيد رواية رد الشمس تأكيداً عقلياً، فهو هنا يمزج بين الرواية النقلية والقبول العقلي. ويمضي بالأسلوب نفسه فيشرح البيت الذي يليه من المذهبة في قول الحميري[٧٤] بنحو مسهب:

وعليه قد حُبستْ ببابل مرةً
أخرى وما حبستْ لخلقٍ مُعربِ

(هذا البيت يتضمن الإخبار عن رد الشمس ببابل على أمير المؤمنين عليه السلام، والرواية بذلك مشهورة، وأنه عليه السلام لما فاته وقت صلاة العصر ردت الشمس له حتى صلاها في وقتها.

وخرق العادة هاهنا لا يمكن أن يقال إن نسبته إلى غيره، كما أمكن في أيام النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

والصحيح في فوت الصلاة هاهنا أحد الوجهين اللذين تقدم ذكرهما في رد الشمس على عهد النبي صلى الله عليه وآله، وهو أن فضيلة أول الوقت فاتته بضرب من الشغل، فردت الشمس ليدرك الفضيلة بالصلاة في أول الوقت.

وقد بيّنا هذا الوجه في البيت الذي أوله (ردت عليه الشمس)، وأبطلنا قول من يدعي أن ذلك يجب أن يقيم الخلق في الآفاق معرفته حتى يدونوه ويؤرخوه.

وأما من ادعى أن الصلاة فاتته - بأن انقضى جميع وقتها، إما لتشاغله بتعبيته عسكره، أو لأن بابل أرضُ خسفٍ لا تجوز الصلاة عليها - فقد أبطل، لأن الشغل بتعبئة العسكر لا يكون عذراً في فوت صلاة فريضة.

وإن أمير المؤمنين عليه السلام أجلُّ قدراً، وأثمن ديناً من أن يكون ذلك عذراً له في فوت فريضة. وأما أرض الخسف فإنها تكره الصلاة فيها مع الاختيار؛ فإذا لم يتمكن المصلي من الصلاة في غيرها، وخاف فوت الوقت وجب أن يصلي فيها، وتزول الكراهية)[٧٥].

وليس ثمة تعليق يذكر فوق ما فصل المرتضى الكلام فيه من استلالات مختلفة وشروح روائية ولغوية بيِّنة أثْرت المجلس وأغنته كثيرا.

رابعاً: غريب كلام الإمام عليه السلام

ومما وقف عليه السيد المرتضى في أماليه ذكره لبعض غريب كلام الإمام علي عليه السلام، وشرحه لألفاظه مستندا إلى ثقافة غزيرة وتذوق للمعنى على النحو الآتي:

١. (جلباب الفقر)

قال السيد المرتضى (روى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه غريب الحديث[٧٦] عن أمير المؤمنين عليه

السلام أنه قال: «من أحبنا أهل البيت فليعد للفقر جلباباً أو تجفافاً».

قال أبو عبيد: وقد تأول بعض الناس هذا الخبر على أنه أراد به الفقر في الدنيا، وليس ذلك كذلك، لأنا نرى فيمن يحبهم مثل ما نرى في سائر الناس من الغنى والفقر، ولا تمييز بينهما.

قال: والصحيح أنه أراد به الفقر في يوم القيامة، وأخرج الكلام مخرج الموعظة والنصيحة والحث على الطاعات، فكأنه أراد: من أحبنا فليعد لفقره يوم القيامة ما يجبره من الثواب والقرب إلى الله تعالى والزلفى عنده)[٧٧].

ويبدو أن السيد يقلب جميع الآراء في أسلوب دراسته فيذكر الموالفين والمخالفين إثراء لمجلسه وإغناء للفائدة فقال (قال أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: وجه الحديث خلاف ما قاله أبو عبيد، ولم يرد إلا الفقر في الدنيا.

ومعنى الخبر: أن من أحبنا فليصبر على التقلّل من الدنيا والتقنّع فيها، وليأخذ نفسه بالكف عن أحوال الدنيا وأعراضها، وشبه الصبر على الفقر بالتجفاف أو الجلباب، لأنه يستر الفقر كما يستر الجلباب، أو التجفاف البدن.

قال: ويشهد بصحة هذا التأويل ما روى عنه عليه السلام انه رأى قوما على بابه فقال: «يا قنبر، من هؤلاء؟»، فقال له قنبر: هؤلاء شيعتك؛ فقال: «مالي لا أرى فيهم سيما الشيعة!»، قال: وما سيما الشيعة؟ قال: «خمص البطون من الطوى، ويبس الشفاه من الظما، وعمش العيون من البكا».

هذا كله قوله ابن قتيبة، والوجهان في الخبر جميعا حسنان وإن كان الوجه الذي قاله ابن قتيبة أحسن وأنصع)[٧٨].

ومن البين أن منهج السيد منهج العالم المتبصر في تقليب وجوه الآراء

فيستحسن من غير ذمّ ويرجح من دون قدح، بل يضيف رأياً آخر قبالة ما ذكر من آراء أعلام سابقيه فيقول: (ويمكن أن يكون في الخبر وجه ثالث تشهد لصحته اللغة، وهو أن أحد وجوه معنى لفظة (الفقر) أن يحز أنف البعير حتى يخلص إلى العظم أو قريب منه، ثم يلوى عليه حبل يذلل بذلك الصعب، يقال فقره يفقره فقراً، إذا فعل به ذلك، وبعير مفقور وبه فقرة، وكل شيء حززته وأثرت فيه فقد فقرته تفقيراً، ومنه سميت الفاقرة، وقيل: سيف مفقر.

فيحمل القول على أن يكون عليه السلام أراد من أحبنا فليزم نفسه وليخطمها وليقدها إلى الطاعات، وليصرفها عما تميل طباعها إليه من الشهوات، وليذللها على الصبر عما كره منها ومشقة ما أريد بها، كما يفعل ذلك بالبعير الصعب.

وهذا وجه ثالث في الخبر، لم يذكر ولا يستبعد حمل الكلام على بعض ما يحتمله إذا كان له شاهد في اللغة وكلام العرب، لأن الواجب على من يتعاطى تفسير غريب الكلام والشعر أن يذكر كل ما يحتمله الكلام من وجوه المعاني، ويجوز أن يكون أراد المخاطب كل واحد منهما منفردا، وليس عليه العلم بمراده بعينه، فإن مراده مغيب عنه، وأكثر ما يلزمه ما ذكرناه من ذكر وجوه احتمال الكلام)[٧٩].

وفي الحق أنّ هذا معنى غائر لكنه ليس بمستبعد على الرغم من أن الشريف الرضي - أخا المرتضى وجامع كلام الإمام علي عليه السلام في (نهج البلاغة) - لم يذكر هذا المعنى إذ قال في تعليقه على قول الإمام: «لو أحبني جبل لتهافت».

(ومعنى ذلك أن المحنة تغلظ عليه، فتسرع المصائب إليه، ولا

يفعل ذلك إلا بالأتقياء الأبرار، المصطفين الأخيار.

وهذا مثل قوله عليه السلام: «من أحبنا أهل البيت فليستعد للفقر جلبابا».

وقد يؤول ذلك على معنى آخر..)[٨٠]، وأكثر الظن يعني بالمعنى الآخر ما ذكره ابن سلام وليس تأويل الشريف المرتضى، لأن وضع كتاب الأمالي جاء بعد وفاة الشريف الرضي (رض) بكثير.

٢. الأود واللدد

وذكره السيد بقوله مسنداً ومستفهماً: (إن سأل سائل عن الخبر الذي يرويه شريك عن عمار الذهبي، عن أبي صالح الحنفي، عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال: «رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، وأنا أشكو إليه ما لقيت من الأود واللدد..»[٨١].

الجواب: يقال له: أما - الأود - فهو الميل تقول العرب: لأقيمنّ ميلك وحنفك وأودك وذراك وضلعك وصعرك وصدغك وظلعك بالظاء وصعوك وصدعك كل هذا المعنى واحد.

وقال ثعلب: الأود إذا كان من الإنسان في كلامه ورأيه فهو عوج، وإذا كان في الشيء المنتصب مثل عصا وما أشبهها فهو عوج، وهذا قول الناس كلهم إلا أبا عمرو الشيباني، فإنه قال: العوج بالكسر الاسم والعوج بالفتح المصدر.

وقال ثعلب: كأنه مصدر عوج يعوج عوجا، ويقال: عصا معوجة وعود معوج وليس في كلامهم معوج.

وأما - اللدد - فقيل: هو الخصومات. وقال ثعلب: يقال: رجل ألد، وقوم لد، إذا كانوا شديدي

الخصومة، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾[٨٢].

وقال الأموي: اللدد الاعوجاج، والألد في الخصومة الذي ليس بمستقيم، أي هو أعوج الخصومة يميل فلا يقوى عليه ولا يتمكن منه، ومن ذلك قولهم: لد الصبي.

وإنما يلد في شق فيه وليس يلد مستقيماً، فهو يرجع إلى معنى الميل والاعوجاج. وقال: فسر لنا الحكم بن ظهير فقال: ألد الخصام أي أعوج الخصام؛ وأنشد أبو السمح لابن مقبل[٨٣]: (من الطويل)

لقد طال عن دهماء لدي وعذرتي
وكتمانها أكنى بأم فلان
جعلت لجهال الرجال مخاضة
ولو شئت قد بينتها بلساني

- اللدد - الجدال والخصومة.

وقال أبو عمرو: الألد الذي لا يقبل الحق ويطلب الظلم. وقوله (مخاضة) يقول: إنهم يخوضون في شعري ويطلبون معانيه فلا يقفون عليها..)[٨٤]، ومنهم من رواها (إدد) كالزمخشري وهي الداهية كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾[٩٠].

وسؤال الإمام «ما لقيت بعدك..» على سبيل التعجب؛ وعلق الشريف الرضي على كلام أمير المؤمنين عليه السلام هذا فقال مختصراً (يعني بالأود الاعوجاج، وباللدد الخصام، وهذا من أفصح الكلام)[٩١]؛ وبهذه الغزارة المعرفية الملموسة قلب الشريف المرتضى بحثه في غريب كلام الإمام عليه السلام مستعرضاً وجوه اللغة كلها، ومستقصياً آراء العلماء السابقين له، مثرياً مجلسه بالشاهد الشعري المعزز للحجة والدليل، وحريصاً في الوقت نفسه على إسناد كلامه كله إلى المصدر المعرفي الموثق، التي هي سمة طبعت مجالسه كلها كما بان من البحث.

خاتمة البحث

من مضمون الدراسة التي اختصت بعنوان (الإمام علي في مجالس السيد المرتضى) يمكن استخلاص النتائج الآتية:

أولاً: اختصّ عنوان البحث بذكر لفظ (المجالس) وأريد به كتاب (الأمالي) من باب تسمية الشيء باسم جزئه، وكونه المصنف الوحيد للسيد المرتضى الذي اعتمد هذا الأسلوب.

ثانياً: شمل ذكر الإمام علي عليه السلام في مجالس السيد المرتضى مختلف شؤونه عليه السلام، وتحدد بمحورين جامعين هما: الأول: المجالس القرآنية، والثاني: المجالس الأدبية واللغوية.

ثالثاً: عرض البحث الطبيعة العلمية الفذّة لعقلية السيد المرتضى التي تتقبل الآراء المخالفة وقد استحسنها، وناقشها بصورة علمية رصينة.

رابعاً: أبان السيد المرتضى فرادة الإمام علي عليه السلام في ذكر أدبه التوحيدي، وهو بذلك سبق غيره في الإشارة إلى عمق معرفة أمير المؤمنين بالحديث عن الذات الإلهية، وانسرابها إلى أولاده من الأئمة المعصومين عليهم السلام.

خامساً: أكّد البحث الطبيعة العدائية للحكام المتسلطين من ذكر أمير المؤمنين عليه السلام، التي يُضطرُّ معها الناس إلى التستّر واستعمال التكنية حين الإفادة منه عليه السلام في ذكر ما، مثلما رأينا في حالة الحسن البصري والشاعر منصور النمري.

---

(١) هود: ٤٠

(٢) ينظر التفصيل في: مجمع البيان، الطبرسي: ٥/٢٧٨.

(٣) الأمالي، المرتضى: ٢/١٧٠.

(٤) ظ. لسان العرب: فور

(٥) التبيان، الطوسي: ٣٦٣/٧، وينظر: الكشاف، الزمخشري: ٣٠/٣، الرازي، مفاتيح الغيب: ٢٢٥/١٧.

(٦) مجمع البيان: ٢٧٨/٥.

(٧) مفاتيح الغيب: ٢٢٥/١٧.

(٨) مجمع البيان: ٢٧٨/٥.

(٩) البلد: ١٠.

(١٠) الأمالي: ١٠.

(١١) ظ. التبيان: ٣٥٢/١٠، الكشاف: ٢٥٦/٤.

(١٢) ظ.الميزان، الطباطبائي: ٢٠/ ٢٩٢.

(١٣) مجمع البيان: ٣٦٣/١٠

(١٤) الأنعام: ٣٣

(١٥) الأمالي: ٢٦٤/٢، وينظر تفسير الآية في: جامع البيان، الطبري: ٢٤٠/٧.

(١٦) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي: ١١٦/٤.

(١٧) التكوير: ٨.

(١٨) الأمالي: ٢٧٩/١.

(١٩) أساس البلاغة، الزمخشري: ٦٦٣.

(٢٠) مفاتيح الغيب: ٦٩/٣١.

(٢١) الأنعام: ١٥١.

(٢٢) ظ.مسند ابن حنبل: ٢٢٢/١.

(٢٣) مجمع البيان: ٢٧٤/١٠.

(٢٤) الأمالي: ١٤٨/١.

(٢٥) نهج البلاغة: ١١/١.

(٢٦) في رحاب نهج البلاغة، المطهري: ٣٥.

(٢٧) الأمالي: ١٤٨/١، وينظر: نهج البلاغة، تحقيق أبو الفضل ابراهيم: ٦٩/٢.

(٢٨) ظ. الأثر القرآني في نهج البلاغة، عباس الفحام: ٣٥٠

(٢٩) الأمالي: ١٤٨/١.

(٣٠) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣١) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣٣) سورة ص: ٢٧.

(٣٤) الأحزاب: ٣٨.

(٣٥) الأمالي: ١٤٨/١.

(٣٦) سورة ص: ٢٧.

(٣٧) الأمالي: ١٥٢/١.

(٣٨) م.ن.

(٣٩) م.ن.

(٤٠) م.ن.

(٤١) م.ن. وينظر: خصائص الأئمة، الشريف الرضي: ٩٩.

(٤٢) الأمالي: ١٥٢/١، وينظر: نهج البلاغة، تحقيق محمد عبده: ١/ ١٣٠.

(٤٣) الأمالي: ١٥٢/١.

(٤٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤٦) الأمالي: ٢٧٤/١، والآية الكريمة من سورة الأعراف: ١٣٨.

(٤٧) شرح نهج البلاغة: ٢٢٥/١٩.

(٤٨) الأمالي: ٢٧٤/١.

(٤٩) م.ن.

(٥٠) م.ن.

(٥١) في الديوان(لمحزون الضمير): ٨٨.

(٥٢) ديوان مروان بن أبي حفصة: ١٠٤، وهي في الديوان في مدح المهدي، وقد يكون أعادها في مدح الرشيد.

(٥٣) ديوان النمري: ٩٠.

(٥٤) ديوان النمري: ١٢٠.

(٥٥) الأمالي: ٢٧٦/٢.

(٥٦) ديوان النمري: ١٢٥.

(٥٧) ديوان النمري: ١٢١.

(٥٨) الأمالي: ١٧٦/٢.

(٥٩) رأس عين من نواحي ديار ربيعة، سميت بذلك لأن العرب كانت تحله. ينظر: معجم البلدان، الحموي: ١٣/٣.

(٦٠) في الديوان تقديم وتأخيربين البيتين: ١٣٨.

(٦١) الأمالي: ٢٧٦/٢.

(٦٢) ديوان النمري: ٩٥.

(٦٣) الأمالي: ٢٧٧/٢، وتنظر القصيدة في ديوان النمري: ١٢١.

(٦٤) الأمالي: ٨/٢، وذكر الشيخ المفيد ذلك قبله في: الإرشاد: ١٠٨/١.

(٦٥) كشف الغمة، الاربلي: ٢٠٥/١.

(٦٦) الفصول المهمة، ابن الصباغ: ١٦٩/٢، وينظر: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر العسكري: ٣٢٣/٩.

(٦٧) ديوان الحمير: ٤٥، وتنظر ترجمته في: أخبار السيد الحميري، المرزباني: ١٧٣.

(٦٨) الأمالي: ٣٤٠/١، وتنظر تفاصيل الخبرفي: مناقب الإمام أمير المؤمنين، الكوفي: ٥١٦/٣، الإرشاد: ٣٤٦/١، خصائص الأئمة: ٥٢.

(٦٩) الأمالي: ٣٤٢/١.

(٧٠) ديوان الحميري: ٤٥.

(٧١) الأمالي: ٣٤٣/١.

(٧٢) غريب الحديث: ٤٦٦/٣.

(٧٣) الأمالي: ١٧١/١.

(٧٤) م.ن.

(٧٥) م.ن..

(٧٦) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٢٧٥/١٨.

(٧٧) نهج البلاغة: ١١٨/١.

(٧٨) البقرة: ٢٠٤.

(٧٩) ديوان ابن مقبل، تحقيق عزت حسن: ٩٦، وهو شاعر مخضرم تنظر ترجمته في: الأعلام، الزركلي: ٨٧/٢.

(٨٠) الأمالي: ١٧٢/٢، وينظر في معنى (الأود واللدد): أساس البلاغة: ٢٤ - ٥٦٢.

(٨١) مريم: ٨٩.

(٨٢) الفائق في غريب الحديث: ٢٦/١.

(٨٣) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١١٢/٦.

(٨٤) ظ.ذيل تاريخ بغداد، ابن النجار: ١٩٨/٢، شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٢١/١.

المصادر

- القرآن الكريم

- الأثر القرآني في نهج البلاغة، دراسة في الشكل والمضمون، عباس علي الفحام، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب – جامعة الكوفة ٢٠٠٨م.

- أخبار السيد الحميري، المرزباني الخراساني (ت ٣٨٤هـ)، تحقيق: الشيخ محمد هادي الأميني، الطبعة ٢، ١٩٩٣م، لبنان.

- الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان المفيد(ت٤١٣هـ)/ تحقيق مؤسسة أهل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث، دار المفيد، الطبعة ٢، بيروت، لبنان ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

- أساس البلاغة، الزمخشري، (ت ٥٣٨هـ)/ دار صادر، بيروت، لبنان، ١٣٩٩هـ -١٩٧٩م.

- الاستيعاب، ابن عبد البر، تحقيق: علي محمد البجاوي، الطبعة الأولى، ١٤١٢، مطبعة دار الجيل، بيروت.

- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة ١، ١٩٨٠م

- الأمالي (غرر الفوائد ودرر القلائد)، السيد المرتضى (ت ٤٣٦)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٤ م.

- أنساب الأشراف، البلاذري (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ محمد باقر المحمودي، الطبعة الأولى، ١٩٧٤ م.

- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، الشيخ محمد باقر المجلسي (ت١١١١هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٣.

- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ)، شارك في التحقيق: د. زكريا عبد المجيد النوقي، د. أحمد النجولي الجمل، الطبعة الأولى - ٢٠٠١م - دار الكتب العلمية، لبنان.

- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الخامسة، دار المعارف، مصر، ١٩٨٧م.

- تاريخ بغداد أو مدينة السلام، أحمد بن علي الخطيب البغدادي(ت٤٦٣هـ)، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٩٩٧م.

- التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر الطوسي (ت٤٦٠هـ)، تحقيق أحمد حبيب القصير، المطبعة العلمية، النجف، ١٩٥٧ م.

- تفسير العياشي، محمد بن مسعود العياشي(ت٣٢٠هـ)، تحقيق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، د.ت.

- التفسير الكبير (أو مفاتيح الغيب)، فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦هـ)، المطبعة البهية – مصر.

- جامع البيان، محمد بن جرير الطبري(ت٣١٠هـ)، تقديم الشيخ خليل الميس، ضبط وتخريج وتوثيق: صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة، ١٩٩٥م، لبنان.

- خصائص الأئمة، الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ)، تحقيق محمد هادي الأميني، نشر مجمع البحوث الإسلامية، إيران، ١٤٠٦هـ.

- ديوان تميم بن أبي بن مقبل، تحقيق: د. عزت حسن، مطبعة دمشق.

- ديوان السيد الحميري (١٧٣ هـ)، جمعه وحققه شاكر هادي شكر، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

- ديوان منصور النمري، جمع وتحقيق: الطيب العشاش، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دار المعارف، ١٩٨١م.

- ذيل تاريخ بغداد، ابن النجار البغدادي (ت ٦٤٣هـ)، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر يحيى، الطبعة الأولى، ١٩٩٧ م، دار الكتب العلمية، بيروت.

- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المدائني (ت ٦٥٦ هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، ١٩٥٩م.

- شعر مروان بن أبي حفصة، جمعه وحققه وقدم له الدكتور حسين

عطوان، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة.

- الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله السيد جعفر مرتضى، الطبعة الرابعة، ١٩٩٥م، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، و دار السيرة، بيروت، لبنان.

- عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، ابن عنبة(ت ٨٢٨هـ)، تصحيح: محمد حسن آل الطالقاني، الطبعة الثانية - ١٩٦١ م، نشر المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف.

- غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلاّم الهروي (ت ٢٢٤هـ)، طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان، الطبعة الاولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الدكن ١٣٨٤هـ -١٩٦٥م.

- الفائق في غريب الحديث والأثر، الزمخشري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ط٢، د.ت.

- الفصول المهمة في معرفة الأئمة، علي بن محمد المالكي (ت٨٥٥هـ)، تحقيق: سامي الغريري، دار الحديث – قم، ١٤٢٢هـ.

- في رحاب نهج البلاغة، مرتضى المطهري، ترجمة هادي اليوسفي، دار التعارف للمطبوعات، الطبعة ١، بيروت ١٩٧٨م.

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، جار الله محمود بن عمر الزمخشري(ت ٥٣٨هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٦٦ م.

- كشف الغمة في معرفة الأئمة، بهاء الدين علي بن الأمير فخر الدين عيسى الإربلي (ت٦٩٢هـ)، الطبعة

الثانية، ١٤٠٥ - ١٩٨٥ م، مطبعة دار الأضواء، بيروت.

- لسان العرب، ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم المصري(ت ٧١١هـ)، دار صادر ودار بيروت، ١٣٧٩هـ، ١٩٥٥م.

- مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، الفضل بن الحسين (ت ٥٤٨هـ)، حقق وعلق عليه: لجنة من العلماء والمثقفين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

- مسند أحمد، أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ)، دار صادر، بيروت.

- معجم البلدان/ ياقوت الحموي، (ت٦٢٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩م.

- مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، محمد بن سليمان الكوفي، تحقيق محمد باقر المحمودي، مطبعة النهضة، ط١، ١٤١٢هـ.

- الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الثانية، بيروت – لبنان ١٩٧٢م.

- نهج البلاغة، تحقيق و شرح: الشيخ محمد عبده، ط١، ١٤١٢هـ، مطبعة النهضة، قم.

- نهج البلاغة، علي بن أبي طالب عليه السلام (ت٤٠هـ)، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل ابراهيم، بيروت – لبنان، دار الجيل، الطبعة الثانية ١٤١٦ هـ.

قال رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم

قال أمير المؤمنين عليه السلام

إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عَمَّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي

فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ

وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ

وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ

نهج البلاغة :من وصية لولده الحسن عليهما السلام

مفهوم علم التاريخ وأهميته في فكر الإمام علي عليه السلام

أ. م. د. محمد علي حسين السويطي

جامعة واسط/ كلية الآداب

قسم التاريخ

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام هو أبو الأئمة المعصومين عليهم السلام أجمعين، إمام فذ يقتدى به، ويستضاء بسيرته العطرة، فحياته مدرسة للأجيال، وسيرته المباركة تجسيد لأمل الشرائع والحضارات، وواجب على كل مسلم أن يستوحي من سيرته، ويختط عليه طريقه في العلم والعمل في مجالات الحياة كافة. لقد أولى الإمام علي عليه السلام عناية كبيرة بكل ما تعلق بالمجتمع، محاولاً بناء الإنسان والارتقاء بمستواه على الصعد كافة، لذا كان من ضمن اهتماماته، عنايته بالتاريخ، بوصفه أداة لتربية الإنسان وتطوير قدراته العقلية من خلال انتفاعه من تجاربه عِبر العصور

المقدمة

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام هو أبو الأئمة المعصومين عليهم السلام أجمعين، إمام فذ يقتدى به، ويستضاء بسيرته العطرة، فحياته مدرسة للأجيال، وسيرته المباركة تجسيد لأمل الشرائع والحضارات، وواجب على كل مسلم أن يستوحي من سيرته، ويختط عليه طريقه في العلم والعمل في مجالات الحياة كافة.

لقد أولى الإمام علي عليه السلام عناية كبيرة بكل ما تعلق بالمجتمع، محاولاً بناء الإنسان والارتقاء بمستواه على الصعد كافة، لذا كان من ضمن اهتماماته، عنايته بالتاريخ، بوصفه أداة لتربية الإنسان وتطوير قدراته العقلية من خلال انتفاعه من تجاربه عِبر العصور، وهو ما تجلى في وصيته لابنه الإمام الحسن عليه السلام: «أي بني إني وإن لم أكن عمَّرت عمر من كان قبلي فقد نظرت في أعمالهم وفكرت في أخبارهم وسرت في آثارهم حتى عدت كأحدهم، بل كأني بما انتهى إلي من أمورهم قد عمرت مع أولهم الى آخرهم فعرفت صفو ذلك من كدره ونفعه من ضررها فاستخلصت لك من كل أمر نخيله وتوخيت لك جميله، وصرفت عنك مجهوله، ورأيت حيث عناني من أمرك ما يعني الوالد الشفيق وأجمعت عليه من أدبك أن يكون ذلك وأنت مقبل العمر ومقتبل الدهر، ذو نية سليمة ونفس صافية...»[1].

لذا جاء اختيارنا لهذا المشروع البحثي الذي وسمناه بـ(مفهوم علم التاريخ وأهميته في فكر الإمام علي عليه السلام).

ولم يكن اختيارنا لهذا الموضوع جزافاً، أو محض مصادفة، إنما كان طموحاً طالما تمنينا تحقيقه، لأسباب متعددة، في طليعتها رغبتنا الشخصية في الاطلاع على مناقب هذه الشخصية

العملاقة وجانب من آثارها العلمية القيمة، فضلاً عن قصور الدراسات الأكاديمية والبحثية في ميدان أئمة أهل البيت عليهم السلام في الجامعات العراقية، وحاجتنا الماسة إلى فهم الفكر الإسلامي الأصيل الذي مثله الإمام علي عليه السلام، مما يمكننا الإفادة منه في حل كثير من الإشكالات والتحديات التي تواجه المجتمعات الإنسانية في الوقت الحاضر.

ولأجل ذلك بحثنا في بطون مصادر التراث الإسلامي عن كل ما يرفد الموضوع من معلومات ذات صلة.

أولاً: مفهوم التاريخ عند الإمام علي عليه السلام

التاريخ واحد من العلوم الإنسانية التي ذهبت آراء العلماء فيه مذاهب شتى - لا مجال للإفاضة فيها هنا - لعل أوفاها تعريف (كولنجود) بأنه (نوع من أنواع البحث العلمي) يستهدف (الكشف عن حقيقة الأشياء) التي أفصحت عنها (جهود الإنسان)[٢].

ويختلف مصطلح (التاريخ) عن مصطلح (فلسفة التاريخ)، لأن المصطلح الأخير الذي يمتد بجذوره إلى ابن خلدون (ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م) من حيث المنهج والمضمون، وفولتير (ت ١٧٧٨م) من حيث التسمية[٣].

يسعى إلى (دراسة التاريخ من وجهة نظر الفيلسوف دراسة عقلية ناقدة)[٤]، بهدف تنقيح الدراسة التاريخية المثقلة بالسرد. وغاية فلسفة التاريخ الرئيسة احتواء الظاهرة التاريخية المراد دراستها وتحديدها علمياً، بهدف الوصول إلى صياغة (قوانين، وأحكام كلية تساعد على التنبؤ بالمستقبل في ضوء تجربة الماضي وسيرورة التاريخ)[٥].

إلا أنَّ كل ما سبق من جهود في مجال تنظير علم التاريخ واستظهار فلسفته لم تكن سوى محاولات عابرة أضافت لعلم

التاريخ نزراً يسيراً من المسوغات التي عكست نظرته إلى الحياة، وأطرته بقوانين معينة، يا للأسف نُسبت إلى غير أصحابها الفعليين، فالمتدبر في تراث المسلمين يجد فكر الإمام علي عليه السلام الذي هو انعكاس للقران الكريم والسنة النبوية الشريفة مورد هذه الأفكار وموطنها، إذ عرض عليه السلام أمثلة متنوعة من التاريخ بهدف التوصل الى قوانين يهتدي في ضوئها البشر ويساعده على التنبؤ بما سيكون عليه المستقبل، وهذا يطابق تماماً ما سعى الى تحقيقه فلاسفة التاريخ في استخلاص قوانين وأحكام تساعد على التنبؤ بالمستقبل.

لكن مما يؤسف له أن كثيراً من المختصين والمثقفين اعتقدوا أن الإمام علي بن أبي طالب عليهما السلام كان قد اعتنى بعلوم الدين والتربية واللغة والعلوم الصرفة، ولم يبد عناية بالتاريخ.

أو أنها كانت قليلة مقارنة بغيرها من العلوم والمعارف، مستندين في ذلك الى قلة ما وصل إلينا من التراث الفكري للإمام ذي الصلة بهذا العلم. لكن المتدبر في هذا التراث الثر يجد ذلك اعتقاداً لا يصمد أمام التحليل العلمي والشواهد التاريخية، إذ تضمّن تراثه الفكري عليه السلام إشارات تاريخية كثيرة، بعضها كان مباشراً وأخرى كانت غير مباشرة.

ومن الإشارات المباشرة وصيته عليه السلام إلى ابنه الإمام الحسن عليه السلام: «احي قلبك بالموعظة... واعرض عليه أخبار الماضين، وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين، وسر في ديارهم وآثارهم فانظر فيما فعلوا، وعما انتقلوا، وأين حلوا ونزلوا، فانك تجدهم انتقلوا عن الأحبة، وحلوا دار الغربة، وكأنك عن قريب قد صرت كأحدهم...»[٦].

ومنها أيضاً وصيته الأخرى للإمام الحسن عليهما السلام ونصها:

«أي بني، إني وان لم أكن عمرت عمر من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم، وفكرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم، حتى عدت كأحدهم، بل كأني بما انتهى إلي من أمورهم قد عمرت مع أولهم الى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره، ونفعه من ضرره»[٧].

ومن الشواهد الأخرى على عنايته بالتاريخ، وصيته عليه السلام للناس:

«إن لكم في القرون السالفة لعبرة»[٨].

ولعل من أكثر الشواهد دلالة على عمق أهمية التاريخ عنده عليه السلام في حياة الفرد والمجتمع، مشورته عليه السلام لعمر بن الخطاب بتسجيل التاريخ الإسلامي من تاريخ الهجرة، بعد رفض كتابة التاريخ بالتقويم الروماني أو الفارسي[٩].

ودل هذا على وعيه بالخصوصية التاريخية للشعوب بصورة عامة وللأمة الإسلامية بوجه خاص؛ وكذلك ما كتبه عليه السلام في عهده لمالك الأشتر، ونصه: «ثم اعلم يا مالك إني وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور»[١٠]. ودل هذا على اطلاع واسع بالتاريخ ومراحل تطور الأمم وانحطاطها، فضلاً عن مراعاة خصوصية مصر الحضارية.

ومما تقدم يتبين بصورة واضحة عناية الإمام علي عليه السلام بالتاريخ، وإلمامه بمعارفه، منطلقاً في ذلك من إدراكه الكامل بأنه أداة هامة لا غنى عنها في حل كثير من الإشكاليات السياسية والثقافية وغيرها، إلا أن ما ميز عنايته تلك أنها لم تكن كعناية القاص الذي يبحث عن القصص ليقنع الناس بما يحلوا له، أو كالسياسي الذي يبحث عن الحيل وأساليب التمويه ليقنع الشعب بسياسته، ويكبح جماح روح التغيير والإصلاح عندهم[١١].

وإنما عناية رجل عرف خالقه حق معرفته فعرف من خلاله حقوق رعيته، إذ هو صاحب فكر وحضارة وثقافة، سعى عِبر استيعابه للتاريخ إلى توظيف جهود الإنسانية الماضية في حل المشاكل المعاصرة، وتعزيزها بما يمكن أن يوفر السعادة للإنسان، ويسهم في بناء مجتمع تسوده العدالة والأمن والاستقرار والتحضر.

وأمام ما تقدم نجد أنفسنا ملزمين بالإجابة عن تساؤل مفاده: إذا كان الإمام علي مهتماً بقراءة التاريخ وكتابته.

فلماذا ما وصل إلينا من نصوص بهذا المجال قليلة إذا ما قورنت مع غيرها من النصوص؟

ولا نجد إجابة أوضح مما ذكره (الشريف الرضي) بقوله: (لا أدعي أني أحيط بأقطار جميع كلامه عليه السلام حتى لا يشذ عني منه شاذ ولا يند ناد، بل لا أبعد أن يكون القاصر عني فوق الواقع إليَّ، والحاصل في ربقتي دون الخارج من يدي، وما علي إلا بذل الجهد وبلاغ الوسع، وعلى الله سبحانه نهج السبيل ورشاد الدليل إن شاء الله)[١٢].

وهذا يعني أن كثيراً من كلام أمير المؤمنين عليه السلام وارثه العلمي لم يصل إلى الشريف الرضي وبالنتيجة لم يصل إلينا، وعزز أحد الباحثين وجهة النظر هذه بقوله: (إن منهج الشريف الرضي في تأليف كتاب نهج البلاغة اختيار محاسن الخطب ثم محاسن الكتب ثم محاسن الحكم والأدب، وقد أدى هذا المنهج بطبيعة الحال إلى إهمال الكثير من النصوص السياسية والفكرية؛ لأنه لم يكن في الذروة من الفصاحة والبلاغة)[١٣].

ثانياً: مصادر المعرفة التاريخية عند الإمام علي عليه السلام

لم يعتمد الإمام علي عليه السلام في مطالعته لأحداث التاريخ على نوع واحد من المصادر، إنما جملة مصادر أسهمت بصورة مجتمعة في تكوين ثقافته التاريخية المتميزة، كان في طليعتها (القرآن

الكريم)، الذي يُعد مصدر التشريع الأول للمسلمين، وأحد المصادر التي لا يمكن لأي مهتم بمطالعة التاريخ والإفادة من تجارب أحداثه أن يستغني عنها، لأنَّه سِجلٌ لأحداث تاريخية مهمة وقعت في أزمنة وأمكنة مختلفة.

وقد تضمن كثيراً من الأخبار التاريخية عن الأمم السالفة والرسل والأنبياء، بهدف العبرة والاعتبار، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾[١٤].

ومعلوم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان أفضل الناس من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله في معرفة القران الكريم بعلومه المختلفة من تفسير وقراءات وأسباب نزول وغيرها، وهو ما أشار إليه الإمام علي عليه السلام صراحة بقوله: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت وأين أنزلت إنّ ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤولاً»[١٥].

وفي هذا الصدد قال عبد الله بن مسعود: (إن القران أنزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلا له ظهر وبطن، وأن علي بن أبي طالب عليه السلام عنده علم الظاهر والباطن)[١٦].

لذلك أثر منهج القرآن وموضوعه في فكر الإمام عليه السلام التاريخي[١٧].

وقد مثّلَ (التعليم الخاص) منهلاً آخر رفد معارف الإمام عليه السلام التاريخية، إذ إنّ تربيته في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله كان لها أثر في ثقافته التاريخية[١٨].

لأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله خصه بعلم جم دون غيره من سائر الناس، ومنه علم التاريخ، حتى قال فيه صلى الله عليه وآله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[١٩].

وبالسياق نفسه قال الإمام علي عليه السلام: «علمني رسول الله ألف باب من العلم كل باب يفتح منه ألف باب»[٢٠].

ولما سأل (عبد الله بن عباس) عن تفسير هذا الحديث قال: (والله لقد أعطي علي بن أبي طالب تسعة أعشار العلم، وأيم والله لقد شاركم في العشر العاشر)[٢١]. وأسهمت (السنة النبوية الشريفة) بنسبة كبيرة في تنمية المعرفة التاريخية للإمام علي عليه السلام، لأنها تضمنت معارف تاريخية متنوعة وظفت غالبيتها في شرح القرآن الكريم، وأخرى في موعظة الناس ونصحهم، وكان أمير المؤمنين عليه السلام من أعلم الناس بالسنة الشريفة، لأنه عاش في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله ورافقه من صغره، وكان أول من أعلن تأييده لدعوته، ولم يفارقه إلى أن استشهد، فكان هذا مبعثاً إلى أن يستوعب كل معارف السنة النبوية بما فيها من معارف تاريخية[٢٢].

وكانت العربية واللغات الأخرى طوع لسانه، وهو أمر يمكننا الاستنتاج بأنه عليه السلام كان قد قرأ مصنفات كثيرة بالأدب والتاريخ، لا نعرف عنواناتها تماماً، لكن بطبيعة الحال أنها كانت مدونات متداولة في المنطقة التي تواجد فيها، إذ كانت غالبية ثقافتها الأدب والتاريخ[٢٣]. واعتمد الإمام علي عليه السلام في معرفته التاريخية على (الآثار القديمة)، التي تُعد من المصادر الرئيسة للمعرفة التاريخية، بدليل ما ورد في وصيته لابنه الحسن عليهما السلام: «وسرت في آثارهم»[٢٤].

ولاسيما إذا ما علمنا أن الإمام عليه السلام كان قد جاب الجزيرة العربية واليمن والعراق والشام، التي كانت مواطن الحضارات السالفة، وما زالت بعض آثارها شاخص حتى اليوم[٢٥]. وشكل (الحوار الحضاري مع الآخرين) منهلاً إضافياً لمعرفة الإمام التاريخية، إذ شكلت هذه الحوارات مع علماء الثقافات

الأخرى مصدراً لمعارفه الأدبية والتاريخية، ففي شرح خطبته عليه السلام: «لا همامة نفس اضطرب فيها»[٢٦].

قال (ابن ابي الحديد): (فيه رد على المجوس والثنوية القائلين بالهمامة، ولهم فيها خبط طويل يذكر أصحاب المقالات، وهذا يدل على صحة ما يقال: إن أمير المؤمنين عليه السلام كان يعرف آراء المتقدمين والمتأخرين، ويعلم العلوم كلها، وليس ذلك ببعيد من فضائله ومناقبه عليه السلام)[٢٧].

ثالثاً: تفسير التاريخ وفلسفته عند الإمام علي عليه السلام

إن المتدبر في التراث الفكري للإمام علي عليه السلام يجد فيه كثيراً من الروايات التاريخية التي لم تقتصر على زمان أو مكان محددين، إنما كانت شاملة لأحداث وقعت في الماضي البعيد ومروراً بالماضي القريب من عصره، كما يلحظ أنه عليه السلام لم يقتصر على رواية أحداث التاريخ فحسب بل تفسيرها وفلسفتها، وهذا دل على موسوعية معارفه التاريخية.

لقد تناول الإمام عليه السلام أحداث التاريخ بنظرة كلية شمولية، لأنه لم يكن مؤرخاً، بل إنما رجل دولة وحاكم، وصاحب عقيدة ورسالة، لذا تعامل مع التاريخ بوصفه حركة تكوين شخصية الإنسان الحاضرة والمستقبلية، وأداة على درجة كبيرة من الخطورة في عملية التربية والتحرك السياسي[٢٨].

وكذلك انطلق عليه السلام في تفسيره لأحداث التاريخ من أنها سنة إلهية، عبر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[٢٩].

فأشار إلى قضية مهمة مقتضاها: أن الذنب الذي يقترفه شخص ما في مجتمع معين لا تقتصر تبعاته وتداعياته على هذا الشخص فحسب، بل تشمل بذلك كل

أفراد المجتمع الذين رضوا بهذا الفعل ولم يتحركوا لتغييره وتصحيح مساره، مستنداً في ذلك إلى قراءته الإجمالية لأحداث التاريخ الإنساني، كما حصل لقوم ثمود لمّا عقروا الناقة، إذ كان العاقر شخصاً واحداً، لكنهم رضوا به لذا شملهم العذاب[٣٠].

وفي هذا الصدد قال: «أيها الناس؛ إنما يجمع الناس الرضاء والسخط وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد منهم فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا...»[٣١].

لقد دعا الإمام علي عليه السلام إلى اعتماد التاريخ لإعداد أفراد المجتمع عِبْرَ الاطلاع على تجاربه، في سبيل مواجهة الحياة بواقعية وصدق، وتجنب اللهاث وراء الأحلام الكاذبة وغرور الدنيا. وهو ما يتوضح مما ورد في إحدى خطبه: «ألستُمْ فِي مَسَاكِنِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَاراً وأَبْقَى آثَاراً وأَبْعَدَ آمَالًا وأَعَدَّ عَدِيداً وأَكْثَفَ جُنُوداً تَعَبَّدُوا لِلدُّنْيَا أَيَّ تَعَبُّدٍ وآثَرُوهَا أَيَّ إِيْثَارٍ... فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَخَتْ لَهُمْ نَفْساً بِفِدْيَةٍ... فَبِئْسَتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهِمْهَا ولَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا فَاعْلَمُوا وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ بِأَنَّكُمْ تَارِكُوهَا»[٣٢].

وهذا يعني أنّ الإمام عليه السلام كان قد وضع نصب عينيه عاملين، عامل التغيير والتقلب في أحوال الحياة، وعامل الزمن الذي يغير أحوال الحياة بصورة مستمرة، لأن وعي الإنسان بهذين العاملين وإدراكه لأثرهما في حياته يجعله قادراً على مواجهة الحياة بكل تقلباتها الايجابية والسلبية. وتكمن فلسفة التاريخ في فكر الإمام عليه السلام بتقديم تجربة ناضجة للإنسان وعظة وعبرة، دلّ على ذلك الإشارات التاريخية التي وردت في تراثه الفكري عن الأقوام القديمة، مثل العمالقة، والفراعنة، وأصحاب مَدين[٣٣]. وفَسّر ذكره لها في وصيته للناس عامةً: «إنَّ لكم في القرون

السالفة لعبرة! أين العمالقة، وأبناء العمالقة! أين الفراعنة، وأبناء الفراعنة! أين أصحاب مدائن الفرس الذين قتلوا النبيين، وأطفئوا سنن المرسلين، واحيوا سنن الجبارين! أين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا الألوف، وعسكروا العساكر، ومدنوا المدائن»[٣٤].

والذي يفهم من النص المذكور آنفاً أنّ من الرؤى الفلسفية في مجال التاريخ عند الإمام عليه السلام، التنبؤ بدورة حياة الأمم وحضاراتها، والإجابة عن أسئلة كثيرة تتعلق بهذا الخصوص، منها: ما المراحل التي تمر بها الحضارة؟ وكيف يمكن لها أن تستقر؟

وما السبب الرئيس في استقرار الحضارات وخلودها؟ وغيرها من الأسئلة، ومفاد إجابته لها هو أن استقرار الأمم وخلودها يرتبط ارتباطاً مباشراً بالتزامها بالأخلاق والمبادئ السامية التي تضمن حقوق الأفراد كافة وتمنع عنهم الظلم، فالإمام يرى أن من سنة الله تعالى في الحياة أن تبلغ الأمم قمة ازدهارها وقوتها المادية، فإذا لم تحافظ على شخصيتها الروحية، سارت في طريق الذبول والفناء.

وبهذا الصدد ألف المفكر الأوربي المعاصر (كولن ويلسون) كتاباً نال شهرة عظيمة، حمل عنوان (اللا منتمي) تنبأ فيه بسقوط الحضارة المعاصرة، كما تنبأ بذلك قبله الفيلسوف (شبنجلر) الذي ذهب إلى أن الحضارة مثلها كمثل أي كائن حي، تبدأ وتنمو وتقوى ثم تذبل وتموت[٣٥]، وهذا ليس بجديد على الفكر الإنساني، فالقران الكريم قد طرح هذه النظرية وناقشها وطرح المعالجات كذلك، قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا

حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾[٣٦].

وهو ما سار بأثره أمير المؤمنين عليه السلام وحاول تبصير الناس به عِبْرَ خطبه ووصاياه ومنها: «أوليس لكم في آثار الأولين مزدجر وفي آبائكم الماضين تبصرة ومعتبر إن كنتم تعقلون، أو لم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون، وإلى الخلف الباقين لا يبقون، أو لستم ترون أهل الدنيا يصبحون ويمسون على أحوال شتى، فميت يبكى وآخر يعزى، وصريع مبتلى، وعائد يعود وآخر بنفسه يجود، وطالب للدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وعلى أثر الماضي ما يمضي الباقي ألا فاذكروا هادم اللذات، ومنغص الشهوات، وقاطع الأمنيات»[٣٧]. وربط الإمام علي عليه السلام يقظة الأمم والمجتمعات بإمكانيات قادتها، لذا أشار إلى صنع رجال المرحلة القادرين على تحمل أعباء الأمة، مثل رسول الله وأصحابه المنتجبين الذين تحملوا متاعب نشر الدعوة الإسلامية وإعلاء كلمة الله تعالى، كما في وصيته: «إن من أبغض الرجال إلى الله لعبدا وكله الله إلى نفسه، جائرا عن قصد السبيل، سائرا بغير دليل، إن دعي إلى حرث الدنيا عمل، وإن دعي إلى حرث الآخرة كسل، كأن ما عمل له واجب عليه، وكأن ما ونى فيه ساقط عنه وذلك زمان لا ينجو فيه إلا كل مؤمن نومة إن شهد لم يعرف وإن غاب لم يفتقد. أولئك مصابيح الهدى، وأعلام السرى... يفتح الله لهم أبواب رحمته، ويكشف عنهم ضراء نقمته»[٣٨].

وتطرق الإمام عليه السلام في بعض خطبه إلى الملامح العامة لحياة العرب قبل البعثة، مفلسفًا حدوثها ومبينًا علتها، فنسب علة سوء حالتهم الاقتصادية إلى عدم الدولة التي تجمعهم أو وحدة سياسية نظمت حياتهم القبلية، عبر عنها

بتصريحات عديدة، منها: «ظل ألفه يعتمدون على عزها... الأحوال مضطربة، والأيدي مختلفة، والكثرة متفرقة»[٣٩]. وهو ما سهل أن يكونوا لقمة سائغة بيد الأكاسرة والقياصرة، الذين صادروا خيراتهم فجعلوهم «أذل الأمم داراً... وأجدبهم قراراً»[٤٠]، مما ترتب على ذلك آثار سلبية أجملها بقوله: «بلاء أزل، وأطباق جهل، من بنات مؤودة، وأصنام معبودة، وأرحام مقطوعة، وغارات مشنونة»[٤١].

كما أشار الإمام عليه السلام إلى تاريخ معتقدات العرب الدينية قبل البعثة، محاولاً استجلاءها وتوضيح صورتها بوصفها إحدى أسباب تردي أحوال العرب وتشتتهم إلى قبائل متناحرة جعلت منهم أمة ضعيفة، بقوله: «أهل الأرض يومئذ ملل متفرقة»[٤٢].

وقد أوضح (ابن أبي الحديد) أن الإمام عليه السلام قسم العرب إلى المعطلة وغير المعطلة، وقصد بالمعطلة من أنكر الخالق والبعث والإعادة، وقال تعالى على لسانهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[٤٣]. ومن اعترف بالخالق وأنكر البعث، وهم الذين نزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[٤٤].

ومن اقروا بالخالق وأنكروا الرسل، وعبدوا الأصنام التي عدوها شفعاء عند الله في الآخرة، وحجوا إليها وقربوا القرابين لها، الذين قال عنهم القرآن: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾[٤٥].

والمشبهة والمجسمة، ومنهم (أمية بن أبي الصلت)[٤٦] الذي من شعره: من فوق عرش جالس قد حط رجليه إلى كرسيه

المنصوب[٤٧]. فضلاً عن من اعتقد بالتناسخ وتنقل الأرواح في الأجساد، ومنهم أرباب الهامة، والهامة شيء يخرج من القبر على شكل صوت، وقد أنكره رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله: «لا عدوى ولا هامة ولا صفر»[٤٨]. ومن مال منهم لليهودية كملوك اليمن، أو إلى النصرانية كبني تغلب والعبادين وأهل نجران، والى الصابئة والقول بالنجوم[٤٩].

أما غير المعطلة فهم أصحاب الورع والتحرج عن القبائح، وقسمهم إلى أفراد مثل: عبد المطلب وولديه عبد الله وأبي طالب، وزيد بن عمرو بن نفيل[٥٠]، وقيس بن ساعدة الأيادي وغيرهم[٥١]، وجماعات مثل: (بنو فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة)[٥٢]، إذ تمنى أن يكون له ألف فارس منهم بدلاً من الألوف التي كانت معه، وجدهم هو (ربيعة بن مكدم بن حرتان بن جذيمة بن علقمة بن فراس)، وعرف بأنه حامي الضعن حياً وميتاً، لأنه بعد أن أصيب نصب رمحاً واتكأ عليه، وأشار إلى الضعائن بالرواح، ومات، وتصور أعدائه انه حي فلم يهاجموا الضعائن حتى سلمت[٥٣].

ومن الأمور الأخرى التي تحدث عنها الإمام علي عليه السلام في مجال تاريخ العرب قبل البعثة، أنهم كانوا مجتمع أمي لا يعرف القراءة والكتابة إلا عدد قليل منهم قد لا يتجاوزون أصابع اليد، كما في خطبته: «إِنَّ اللَّه بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً»[٥٤].

رابعاً: فوائد التاريخ عند الإمام علي عليه السلام

كثيرة فوائد التاريخ التي وردت في التراث الفكري للإمام علي عليه السلام، وقد تنوعت بين ترغيب وترهيب وإنذار واعتبار وتسلي وتأسي ونصح وغيرها، وفي طليعتها استعمال

المادة التاريخية لتحقيق الغاية الأسمى من نزول القران الكريم ومجيء الإسلام، وهي دفع الأفراد إلى التوحيد والاعتراف بوحدانية الباري جل جلاله، بهدف خلق مجتمع مستقر تسوده العدالة والتكافل، وذلك في ضوء تقلب الأدوار، إذ إنَّ في ذلك تنبيه للغافلين وعظة للمتعظين، كما في وصيته: «واصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم لما بدل أكثر خلقه عهد الله إليهم فجهلوا حقه، واتخذوا الأنداد معه... فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته ويحتجوا عليهم بالتبليغ ويثيروا لهم دفائن العقول... ومضت الدهور وسلفت الآباء وخلفت الأبناء إلى أن بعث الله سبحانه محمدا رسول الله صلى الله عليه وآله لإنجاز عدته وتمام نبوته»[٥٥]. ومن فوائده أيضاً استخدام سير الأنبياء والأولياء الصالحين في تهذيب النفس وتحويل تاريخهم إلى منهاج أخلاقي يتبعه المؤمن في مسيرة حياته اليومية، وهو ما أشار إليه صراحة في خطبته: «أيها الناس إني قد بثت لكم المواعظ التي وعظ الأنبياء بها أممهم، وأديت إليكم ما أدت الأوصياء إلى من بعدهم»[٥٦].

وان معرفة كيفية الخلود في الأولى وكسب الآخرة تتأتى من حسن سيرة الفرد وأعماله الحسنة التي تترك تأثيراً في نفوس الآخرين، وهو ما يفهم من وصاياه عليه السلام، ومنها: «وعظتم بمن كان قبلكم»[٥٧]، و«فانقضوا عباد الله بالصبر النوافع»[٥٨]، و«احذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المشكلات بسوء الأفعال وذميم عمال»[٥٩]. ومن فوائد التاريخ الأخرى التي أشار إليها الإمام علي عليه السلام معرفة التوقيت الذي يفيد في أمور الدنيا المختلفة، من أمور

دينية متعلقة بالصلاة والصيام والزكاة إلى أمور أخرى متعلقة بالعمل، وهو الأمر الذي دفعه إلى تقديم مشورته للخليفة عمر بن الخطاب بتسجيل التاريخ الإسلامي من تاريخ الهجرة[٦٠].

وعد الإمام عليه السلام معرفة أخبار الأمم الماضية والأقوام السالفة، كقوم نوح وقوم موسى وهارون وفرعون وغيرهم، من الفوائد المهمة للتاريخ، كما في خطبته: «إن لكم في القرون السالفة لعبرة! أين العمالقة، وأبناء العمالقة! أين الفراعنة، وأبناء الفراعنة! أين أصحاب مدائن الفرس الذين قتلوا النبيين، وأطفئوا سنن المرسلين، واحيوا سنن الجبارين! أين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا الألوف، وعسكروا العساكر، ومدنوا المدائن»[٦١].

مما يوفر للإنسان فرصة للاعتبار والحكمة من حوادث الماضي لأنها دلالات للتفكير، فضلاً عن تقديمها الذكرى والتبصرة والإرشاد الى الصواب وتجنب الخطأ في ضوء الإفادة من تجارب الإنسان في الماضي، التي أكدها بأكثر من وصية، ومنها: «وعظتم بمن كان قبلكم... واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم»[٦٢]. ومن فوائد التاريخ الأخرى وعي الناس بالزمن امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[٦٣].

وقد سعى أمير المؤمنين عليه السلام إلى إعمامها بين الناس بهدف منفعتهم بها، وهو ما يظهر واضحاً من خطبه ووصاياه، ومنها: «فإني أحذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة حفت بالشهوات وتحببت بالعاجلة، وراقت بالقليل، وتحلت بالآمال، وتزينت بالغرور، لا تدوم حبرتها، ولا تؤمن فجعتها، غرَّارة ضرَّارة، حائلة زائلة نافدة بائدة، أكالة غوالة»[٦٤].

وعد عليه السلام صنع المجتمعات المتحضرة التي يمكن لها أن تستمر باستمرار أخلاقها ومبادئها الفاضلة، كالتوحيد والتقوى والعدالة والإيثار والمحبة والتعاون والصبر والأمر، بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن بقاءها مرهون بأخلاقها، من فوائد التاريخ ومهامه الرئيسة، وهو ما يفهم من وصيته: «ألستم في مساكن من كان قبلكم أطول أعمارا، وأبقى آثارا وأبعد آمالا، وأعد عديدا، وأكثف جنودا، تعبدوا للدنيا أي تعبد، وآثروها أي إيثار، ثم ظعنوا عنها بغير زاد مبلغ ولا ظهر قاطع فهل بلغكم أن الدنيا سخت لهم نفسا بفدية، أو أعانتهم بمعونة أو أحسنت لهم صحبة»[٦٥]. إن هذه الفوائد الكثيرة التي حاول الإمام علي عليه السلام استظهارها للناس لتعم فائدتها في خلق سعادة الفرد، ومن ثَمّ استقرار المجتمع وتحضره، إذ وضع في حسبانه تعليم التاريخ. ولعلنا لا نغالي إذا ما قلنا إنه إجراء حضاري انفرد عليه السلام باتخاذه، ولم يقلده فيه أي حاكم - بحسب ما تناهى إليه علمنا - حتى ساعة كتابة هذا البحث، وهي نشر الثقافة التاريخية بين أفراد المجتمع، ويتحمل مسؤولية ذلك والي المدينة المكلف بإدارتها، وهو ما تجلى بوصيته عليه السلام إلى عامله على مكة (قثم بن العباس)[٦٦]، وورد فيها: «أما بعد فأقم للناس الحج وذكرهم بأيام الله»[٦٧]؛ والأيام هو التاريخ، إذ إنّ هذا المصطلح كان مرادفًا للفظة التاريخ عند العرب.

الخاتمة

١. لم يتعامل الإمام علي عليه السلام مع التاريخ معاملة المؤرخ والباحث عن القصص، أو معاملة السياسي الباحث عن الحيل السياسية وأساليب التمويه، بل معاملة رجل الدين والعقيدة ورجل الدولة والقائد والمفكر المستقبلي.

٢. تعامل الإمام عليه السلام مع التاريخ بوصفه المحرّك، تتشكل معه حركة الإنسانية باتجاه أعماله وهي التي تحرك نوازعه الداخلية، وتؤثر من ثم في حركة الإنسان واتجاهه سواء أكان خيراً أم شراً.

٣. اتخذ الإمام عليه السلام من التاريخ موعظةً ودروساً تهيئ الفرصة أمام الناس ليتعظوا بمن سبقوهم من الأمم، ويعتبروا بتجاربهم، لذا شدّد على الاعتبار من هذا وكرر على الناس تلك الدروس، حتى لا يقعوا في محظور الأمور فتؤدي بهم إلى التهلكة.

٤. يُعد التراث الفكري للإمام علي عليه السلام، في أحد وجوهه، مصدراً مهماً لدراسة التاريخ، ولا سيما ما تعلق منه بتاريخ العرب قبل البعثة، إذ إنَّ معظم معلوماتنا عن هذه المدة الزمنية تعتمد اعتماداً كبيراً على القرآن الكريم، وسبب ذلك هو قلة المدونات التي وصلت إلينا عن تلك المدة الزمنية.

٥. نوصي بتفعيل الدراسات الأكاديمية عن أهل البيت عليهم السلام ودورهم في تطوير الحضارة الإنسانية، وأن يدرس هذا الموضوع (مفهوم التاريخ عند الإمام علي) برسالة ماجستير أو أطروحة دكتوراه.

---

(١) الرضي، نهج البلاغة، ج٣/ ص٤١.

(٢) فكرة التاريخ، ص٤١ - ص٤٣.

(٣) ينظر: الدليمي، فلسفة التاريخ والحضارة، ص٥٦ - ص٥٧.

(٤) صبحي، في فلسفة التاريخ، ص١٢٣.

(٥) الدليمي، فلسفة التاريخ والحضارة، ص٥٨.

(٦) الشريف الرضي، نهج البلاغة، ج٣/ ص٣٩. وينظر: ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص٦٩؛ المتقي الهندي، كنز العمال، ج١٦/ ص١٦٨.

(٧) الرضي، نهج البلاغة، ج٣/ ص٤١.

(٨) المصدر نفسه، ج٢/ ص١٠٧.

(٩) النيسابوري، المستدرك، ٣/١٥؛ السخاوي، الإعلان بالتوبيخ، ١٤٢؛ السيوطي، الشماريخ، ٢٣.

(١٠) نهج البلاغة، ج٣/ ص٨٣.

(١١) عُرف الملوك عبر التاريخ برغبتهم في قراءة التاريخ وأخذ ما يفيدهم منه فقط، وكان معاوية بن أبي سفيان "يستمر الى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها، وسير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها، وغيرها ذلك من أخبار الأمم السالفة". المسعودي، مروج الذهب، ج٣/ ص٤١.

(١٢) نهج البلاغة، ج١/ ص١٣.

(١٣) شمس الدين، حركة التاريخ عند الإمام علي، ص٢٨.

(١٤) الروم: ٤٢.

(١٥) ابن سعد، الطبقات، ج٢/ ص٣٣٨؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ص٩٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣/ ص٦٣٨.

(١٦) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج١/ ص٣٢٢؛ السيوطي، الإتقان في علوم القران، ج٢/ ص٤٩٣.

(١٧) شمس الدين، حركة التاريخ عند الإمام علي، ص٣٤.

(١٨) المرجع نفسه، ص٣٥.

(١٩) الطبراني، المعجم الكبير، ج١١/ ص٥٥؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ج٣/ ص١١٠٢.

(٢٠) المفيد، الاختصاص، ص٥٧٢.

(٢١) ابن عبد البر، الاستيعاب، ج٣/ ص١١٠٤؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ج٤/ ص٢٢؛ العاملي، أعيان الشيعة، ج١/ ص٣٤١.

(٢٢) شمس الدين، حركة التاريخ عند الإمام علي، ص٣١.

(٢٣) المرجع نفسه، ص٣٤ -٣٧.

(٢٤) نهج البلاغة، ج٣/ ص٤١.

(٢٥) شمس الدين، حركة التاريخ عند الإمام علي، ص٣٤ -٣٧.

(٢٦) الرضي، نهج البلاغة، ج١/ ص١٦.

(٢٧) شرح نهج البلاغة، ج١/ ص٨٠.

(٢٨) شمس الدين، حركة التاريخ عند الإمام علي، ص٥٠.

(٢٩) الأحزاب: ٦٢.

(٣٠) الرضي، نهج البلاغة، ج٢/ ص١٨١.

(٣١) المصدر نفسه، ج٢/ ص ١٨١.

(٣٢) الرضي، نهج البلاغة، ج١/ ص ٢١٩.

(٣٣) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١/ ص٩٣ - ص٩٥.

(٣٤) الرضي، نهج البلاغة، ج٢/ ص١٠٧.

(٣٥) خفاجي، فلسفة التاريخ الإسلامي، ص٤٧ - ص٤٨.

(٣٦) يونس: ٢٤.

(٣٧) الرضي، نهج البلاغة، ج١/ ص١٩٢.

(٣٨) المصدر نفسه، ج١/ ص ١٩٨.

(٣٩) الرضي، نهج البلاغة، ج٢/ ص ١٥٣.

(٤٠) المصدر نفسه، ج٢/ ص١٥٣.

(٤١) المصدر نفسه، ج٢/ ص ١٥٣.

(٤٢) المصدر نفسه، ج١/ ص٢٥.

(٤٣) المؤمنون: ٣٧.

(٤٤) سورة يس: ٧٨.

(٤٥) سورة الفرقان: ٧.

(٤٦) هو من العرب المشبهة والمجسمة. ينظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ج٢/ ص٢٤٢.

(٤٧) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١/ ص١١٩.

(٤٨) المصدر نفسه، ج١/ ص١١٩.

(٤٩) الالوسي، بلوغ الأرب، ج٢/ ص١٩٧ - ٢٥٢.

(٥٠) احد الأحناف قبل البعثة. ينظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ج٣/ ص٢٢٧ - ٢٣٥.

(٥١) الالوسي، بلوغ الأرب، ج٢/ ص٢٢٣ - ص٢٢٤.

(٥٢) هم انجد العرب، والواحد يعدل بعشرة. ابن عبد ربة، العقد الفريد، ج١/ ص١٣٦

(٥٣) ينظر: أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج١٦/ ص٦٦؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١/ ص٢٣٣ - ج٢/ ص٣٤١.

(٥٤) الرضي، نهج البلاغة، ج١/ ص ٨١.

(٥٥) الشريف الرضي، نهج البلاغة، ج٣/ ص٢٣ - ص ٢٤.

(٥٦) المصدر نفسه، ج٢/ ص ١٠٨.

(٥٧) الشريف الرضي، نهج البلاغة، ج٣/ ص ١٤٨.

(٥٨) المصدر نفسه، ج٣/ ص ١٤٨.

(٥٩) المصدر نفسه، ج٢/ ص ١٥٠ - ص١٥١.

(٦٠) ينظر: الحاكم النيسابوري، المستدرك، ج٣/ ص١٥؛ السخاوي، الإعلان بالتوبيخ، ص١٤٢.

(٦١) الرضي، نهج البلاغة، ج٢/ ص١٠٧.

(٦٢) المصدر نفسه، ج٣/ ص١٥٠.

(٦٣) البقرة: ٢١٩.

(٦٤) الشريف الرضي، نهج البلاغة، ج١/ ص ٢١٦ ص٢١٧.

(٦٥) المصدر نفسه، ج١/ ص ٢١٨ - ص ٢١٩.

(٦٦) قثم بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، كان واليا للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام على مكة فلم يزل عليها حتى أستشهد الإمام عليه السلام. توفي بسمرقند. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٧/ ص٣٦٨.

(٦٧) البقرة: ٢١٩.

مصادر البحث ومراجعه

- القران الكريم

- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الشيباني (ت٦٣٠ هـ)/ أسد الغابة في معرفة الصحابة، المكتبة الإسلامية، (طهران د.ت).

- الآلوسي، محمود شكري البغدادي (ت ١٣٤٢ هـ)/ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تصحيح: محمد بهجت الأثري، ط٣، (مصر ١٣٤٢ هـ).

- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩ هـ)/ أنساب الأشراف، تحقيق: محمد حميد الله، دار المعارف، مصر.

- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ)/ أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.

- الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٤٠٥هـ)/ المستدرك على الصحيحين، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط١، (بيروت ١٩٩٠م).

- ابن أبي الحديد، عز الدين عبد الحميد بن هبة الله المدائني (ت٦٥٦هـ)/ شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار الجيل، (بيروت ١٩٨٧م).

- الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد (ت٧٤٨هـ)/ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٧م.

- الشريف الرضي، أبو الحسن بن الحسين (ت ٤٠٦هـ)/ نهج البلاغة، شرح محمد عبده، مطبعة النهضة، (قم - ١٤١٢هـ).

- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت٩٠٢هـ)/ الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، تحقيق: فرانز روزنثال، ترجمة: د. صالح احمد العلي (بغداد ١٩٦٣م).

- ابن سعد، محمد بن سعد (ت٢٣٠هـ)/ الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٨م.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١هـ)/ الإتقان في علوم القران تحقيق: سعيد المندوب، ط١، دار الفكر، بيروت ١٩٩٦م.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١هـ)/ الشماريخ، تحقيق: محمد بن إبراهيم الشيباني، المطبعة السلفية، الكويت ١٣٩٩هـ.

- ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي بن الحسين (ت ق٤هـ)/ تحف العقول عن آل الرسول، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، ط٢، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، (قم ١٤٠٤هـ).

- شمس الدين، محمد مهدي/ حركة التاريخ عند الإمام علي عليه السلام، ط١، مؤسسة نهج البلاغة، ١٤٠٥هـ.

- ابن شهر آشوب، محمد بن علي المازندراني (ت ٥٨٨هـ)/ مناقب آل أبي طالب، تحقيق وتصحيح: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، المكتبة الحيدرية، (النجف الأشرف ١٩٥٦).

- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨ هـ)/ الملل والنحل، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٨).

- الطبراني، سليمان بن احمد بن أيوب (ت٣٦٠هـ)/ المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- العاملي، محسن الأمين (ت١٣٧١هـ)/ أعيان الشيعة، تحقيق: حسن الأمين، دار التعارف، (بيروت ١٩٨٦).

- ابن عبد البر، أبو بكر يوسف (ت٤٦٣ هـ)/ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، (القاهرة ١٩٦٠).

- ابن عبد ربه، احمد بن محمد (ت٣٣٤هـ)/ العقد الفريد، تحقيق: احمد أمين وآخرين، دار الشروق، (القاهرة ١٩٤٠).

- أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين (ت٣٥٦هـ)/ الأغاني، شرح: عبد علي سمير جابر، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦م.

- المتقي الهندي، علاء الدين بن علي (ت٩٧٥هـ)/ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ط٢، حيدر آباد الدكن، الهند ١٩٦٧م.

- المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت٣٤٦هـ)/ مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: مصطفى السيد، المكتبة التوفيقية، (القاهرة د.ت).

- المفيد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان (ت٤١٣هـ)/ الاختصاص، تحقيق: علي أكبر الغفاري ومحمود الزرندي، ط٢، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت ١٩٩٣م).

قال رسول الله

علي مع الحق والحق مع علي

اسد الله الغالب

باب حطة
من دخل
منه كان
مؤمنا

٣ محمد الحسني ٤

انا وانت من شجرة واحدة وسائر الناس من شجر شتى

الأساليب البلاغية في خطب أصحاب الإمام علي عليه السلام في معركة صفين

م. د. عبد الهادي عبد الرحمن الشاوي

جامعة الكوفة / مركز دراسات الكوفة

شكلت الخطابة في الأدب العربي قديمه وحديثه فناً مميزاً من فنون النثر العربي، فقد ظهرت الخطابة عند العرب في عصورهم القديمة حاجة ووسيلة للتعبير عن شتى صنوف الإحساس العاطفي والنفسي والعقلي، مما أكسبها حضوراً متميزاً في أغلب محافل الفعل والقول، واستطاع العرب أن يقدموا في هذا اللون الأدبي نماذج دلّت على براعة وتمكّن وحسن اختيار في التعبير القولي الذي يستند إلى مقدّمات ودواعٍ انبتت هذا اللون من فن القول فأثمر وأينع؛ وقد تلونت ضروب هذا الفن وتعددت تبعاً للسياق الذي ولدت فيه.

المقدمة

شكلت الخطابة في الأدب العربي قديمه وحديثه فناً مميزاً من فنون النثر العربي، فقد ظهرت الخطابة عند العرب في عصورهم القديمة حاجة ووسيلة للتعبير عن شتى صنوف الإحساس العاطفي والنفسي والعقلي، مما أكسبها حضوراً متميزاً في أغلب محافل الفعل والقول، واستطاع العرب أن يقدموا في هذا اللون الأدبي نماذج دلّت على براعة وتمكّن وحسن اختيار في التعبير القولي الذي يستند إلى مقدّمات ودواعٍ انبتت هذا اللون من فن القول فأثمر وأينع؛ وقد تلونت ضروب هذا الفن وتعددت تبعاً للسياق الذي ولدت فيه.

فصرنا نجد خطباً للحرب وأخرى للسلم وثالثة جاءت ملبية لحاجات اجتماعية من فرح أو حزن، أو شكوى أو تودد ومجاملة، والذي يهمنا في هذا البحث الذي اختص بدراسة خطب أصحاب الإمام علي عليه السلام هو أن نقف على تنوع الأساليب التي اعتمدها منشؤها في تقديم الحجة أو في إسداء النصح والإرشاد أو في إثارة العزيمة وإنهاض الهمة، وقد وقع اختيارنا على هذه الخطب من دون سواها لأننا وجدنا أن هذه الخطب لم تدرس دراسة فنية تكشف جماليتها وتبين دلالتها وتضعها في مقامها اللائق بين الخطب العربية، فأصحابها هم صحابة أجلاء، ويزيدهم فخراً أنهم كانوا على إيمان راسخ وعقيدة صادقة، وموقف صلب ذاك الذي وقفوه في وقعة صفين، فقد ذكر لهم المنقري في كتابه هذا (وقعة صفين) خطباً مختلفة، صورت لحظة زمنية من عمر التاريخ الإسلامي وأرخت لحادثة من حوادثه العظام التي كتب عنها المؤرخون، ودرسها من اهتم بدراسة الخطب والأشعار التي أوردها المنقري في كتابه هذا، ولم يتطرق لها دارس، أو

باحث عن جمال الكلمة وعمق التعبير الذي يولد في لحظة الحسم وساعة القرار الصائب الذي يكشف عنه القول المعتمد الحجة التي تصاغ بأسلوب يفرضه السياق ومنحه القوة التي تتكشف للباحث في تراكيب القول وفي أسلوب الخطاب الصريح القوي أحياناً والموحي الدال في أحايين أُخَر؛ لذلك سيهتم البحث بكشف الجوانب الفنية بإيضاح أثر السياق الداخلي والخارجي في الأسلوب المتبع والطريقة الموصلة إلى الغاية التي ينشدها مُنْشئ النص، وبإبانة ما لهذه المحدّدات من فعل إيجاباً كان أم سلباً في جمالية الخطبة وفي قدرتها الإبلاغية والفنية.

المبحث الأول

الأساليب الخبرية

جاءت الأساليب الخبرية في الكلام العربي على ضربين تبعاً لبناء التراكيب، فما كان تركيبه يبدأ بالفعل سمي جملة فعلية، وما بدأ بالاسم سمي جملة اسمية، ولكل منهما سماته الخاصة وظروف استعماله الواجبة، لذلك لا بد من توضيح ما الخبر في الكلام العربي.

الخبر لغة

خبرت بالأمر أي علمته، وخبرت الأمرَ أَخْبُرُهُ إذا عرفته على حقيقته، والخبرُ بالتحريك واحد الأخبار، والخبر: ما أتاك من نبأ عمن تستخبر[1]. وقد عرفه المبرد (ت ٢٨٦هـ) إذ قال: «الخبر ما جاز على قائلهِ التصديق والتكذيب»[2].

فيما نظر ابن فارس في تعريف الخبر عند أهل اللغة وأهل البلاغة فأهل اللغة لا ينظرون إلى الخبر إلا بوصفه إعلاماً للآخرين أما أهل البلاغة فيقسمونه على كلام صادق أو كاذب يقول ابن فارس: (أما أهل اللغة فلا يقولون في الخبر أكثر من أنه إعلام ... والخبر هو العلم. وأهل النظر يقولون: الخبر ما جاز تصديق قائله أو تكذيبه وهو إفادة المخاطب أمراً في

ماضٍ من زمان أو مستقبل دائم)[٣]؛ وأهل النظر عنده هم أهل البلاغة.

أما القزويني فقد علّق على آراء القدماء وبيَّن معنى الصدق والكذب في الخبر فقال: (اختلف الناس في انحصار الخبر في الصادق والكاذب، فذهب الجمهور إلى أنه منحصر فيهما ثم اختلفوا، فقالوا الأكثر منهم: صِدْقُهُ مطابقة حكمه للواقع وكذبه عدم مطابقة حكمه، وهذا هو المشهور وعليه التأويل)[٤]. الخبر لا يأتي إلا من خلال تركيب لغوي يحمله ويوضح دلالته على وفق السمات التي ينماز بها هذا التركيب أو ذاك، ولقد أبانت لنا القراءة المتأنية لنصوص هذه الخطب أنّ الأخبار يأتي به نوعان من التراكيب هما:

أولاً: الجملة الخبرية الاسمية

يأتي الخبر أحياناً بصيغة جمل اسمية لها سماتها الفارقة، ولها السياق الذي فرض مجيئها أو سوغ حمله للدلالة التي يقصدها منشئ النص الأدبي، وفي تقصينا لخطب أصحاب الإمام علي عليه السلام الذين شاركوه في معركة صفين وكان لهم حضور واضح في ساحة المعركة بشقيه العسكري والخطابي، لأن المتحاربين في أي معركة من معارك العرب كثيراً يبدؤونها بالخطب التي يتناوب فيها الوعظ والتهديد، ولكل قائدٍ طريقته في تقديم أفكاره التي يحارب عنها، وفي مثل هذه الحالة يكون الخطيب المحارب قد استعد فأحسن العدة، فهو لا يقول إلا ليبلغ عن أمر جلل يستدعي منه قوة بيان وبلاغة في التعبير واختياراً دقيقاً للأسلوب وانتقاء للألفاظ والتراكيب؛ لذلك وجدنا أنّ الخطاب قد تنوعت تراكيبه واختلفت أساليبه، ومنها أن المعاني جاءت محمولة على تركيب اسمي أي جملة اسمية لها خاصية الثبوت في المعنى والدلالة لأن (الاسم يدل على الثبوت والاستمرار والفعل يدل على

التجدد والحدوث، ولا يحسن وضع أحدهما موضع الآخر)[٥] وقد يأتي الخبر يؤدي أغراضاً بلاغية تساعد القرائن السياقية والمقامية على تحقيقها، ومنها:

١. الخبر لتحريك الهمة

إنّ هذا الأسلوب معروف عند العرب فمما جاء على لسان العرب (نفس عصام سوّدت عصاماً)[٦]. فهذا المثل العربي المشهور ورد بأسلوب الخبر لتحريك الهمة وحفزها لكي يقتدي الناس بعصام الذي ساد بجهده ودأبه، ومن الشواهد على هذا النوع من التراكيب نجد قول عبد الله بن عباس (رضوان الله تعالى عليه) في إحدى خطبه يصف الإمام عليه السلام فيقول: (علي بن أبي طالب، ابن عم رسول الله وصهره، وأول ذكر صلى معه. بدري قد شهد مع رسول الله صلى الله عليه كل مشاهده التي فيها الفضل)[٧].

يبدو من هذا النص أنّه نص تكّون من جمل اسمية تشكّلت من مبتدأ وخبر؛ لذلك صار من الأنسب أن تكون الجمل الاسمية هي الأدق في نقل الدلالة وإيصال المعنى بأبلغ صورة إلى المتلقي الذي يبحث عن الإجابة لحالة يعيشها، ومحنة قد تختلط فيها الرؤى وتضيق مساحة الفهم الصائب؛ لذلك عُدّ الإخبار بالجملة الاسمية أبلغ وأدق.

٢. إظهار القوة

قد يأتي الخبر لا ليقدم خبراً محضاً إنّما ليؤكد حقيقةٍ ما وإظهارها بقوة، وهذا ما لمسناه في مواضع كثيرة في خطب أصحاب الإمام عليه السلام، من ذلك قول الأشتر النخعي (رضوان الله تعالى عليه) مخاطباً الإمام علي عليه السلام قائلاً: (جميع من ترى من الناس شيعتك)[٨]. قد قدم صورة لحالة الجيش التي عليها فهي توصف بالثبات ولا يؤديه إلا التركيب الاسمي؛ ولذلك نراه أيضاً يصف نفسه ومن معه بأسلوب مؤكد فيقول: **«وانا لعلى بينة**

من ربنا»[٩] فقد أكد خبره بأداة التوكيد (أن) وبلام التوكيد، حتى يرسخ الصورة عند الإمام عن أصحابه ولكي يشعر نفسه بأنه قد أدى الإخبار بأفضل أساليبه وأدقها في إيصال الدلالة وإبلاغ المعنى.

٣. للتوبيخ

وهو غرض يخرج إليه الخبر أحياناً، لأن يصف حالة سيئة أو مكروهة، أو هي عيب أو صفة مرذولة لأنّها بعيدة عن قيم الدين الإسلامي ومبادئه العظيمة، وهذا ما نلمسه في قول صحابي جليل آخر هو عمار بن ياسر (رضوان الله تعالى عليه) يكشف فيه عن حالة أعدائهم الذين احبّوا الدنيا فزلّت بهم قدم فيقول (ولكنّ القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمروها)[١٠].

فوصفه لهم يعطي دلالة تمكن الدنيا منهم ومن نفوسهم بعدما ذاقوا حلاوتها فاستعذبوا مذاقها فأنستهم ما للآخرة عليهم من حق وأبعدتهم عن معرفة ؤ الحق وإتباعه.

ولكن الخبر يظل يحمل دلالته الرئيسة وهي الإخبار وعرض الحقائق والوصف، وهذا يأتي عندما حال القوم مختلف ودرجة الثبات على الإيمان متفاوتة وهي سنة الله في خلقه؛ لذلك فإننا لا نعدم أن نرى في معسكر الإمام عليه السلام من يشعرنا بوهن وتردد ومن ذلك ما صوره الأشعث بن قيس[١١]. لحالته وقد أجاد لأنه نقل ما يعانيه بجمل اسمية فيها دلالة الثبوت على وجع يعانيه وحالة يكابدها، اذ يقول واصفاً نفسه ((ولكني رجل مسن، أخاف على النساء الذراري إذا فنينا)) فكان من كان حوله لا يشعرون بالغيرة على النساء، ويفصح القول الآخر له حالة التردد والشك إذ يقول (الرأي يخطئ ويصيب) وفي هذه الجمل الاسمية فيها صورة واضحة لحالة الخطيب النفسية التي كان يمر بها، وقد أثبتتها الوقائع التاريخية بعد ذلك فصدقت قوله هذا.

والشواهد على الجمل الاسمية التي استعملها الخطباء أثناء معركة صفين كثيرة، وإنما اخترنا ما فيه كشف للواقع وإيضاح للحالة النفسية التي كان يعانيها من اشترك في المعركة، فجاءت صادقة في الوصف، معبرة ودالة، كاشفة وفاضحة، وهذه هي اللغة التي يحسن استعمال إمكاناتها وما تمنحه من دلالات صريحة أو موحية في مواضع تتطلب هذا اللون أو ذاك من الاستعمال.

ثانياً: الجملة الخبرية الفعلية

مثلما يمنح الاسم النص سمات معلومة عند استعماله كذلك يقدم الفعل خاصية مميزة في الاستعمال؛ لأنه يعبر عن دلالة تغير وتحول وتبدل؛ لاقترانه بمتغير أنه الزمن؛ لذلك صار التعبير عن الأفكار أو الحالات بالتعبير الفعلي يعني عدم الثبات ويشير إلى النمو والتغير والحركة، وهو ما نلمسه في أقوال أصحاب الإمام علي عليه السلام وهم يخطبون في ساحة المعركة، ومن ذلك قول الصحابي الجليل عبد الله بن عباس واصفاً قدرة الله تعالى: «سمك فوقنا سبعاً، ثم خلق فيما بينهن خلقاً، وأنزل لنا منهن رزقاً، ثم جعل كل شيء يبلى ويفنى غير وجهه»[١٢]. الخطيب هنا استعمل جملاً فعلية أفعالها ماضية، في دلالة على قدم الخلق والإرادة الإلهية في الكون، ثم أردف جمله الفعلية ذات الزمن الماضي بأخرى تدل على القدم من الزمن إذ قال: «ثم جعل كل شيء يبلى ويفنى إلا وجهه»؛ فالخلق قديم والفناء حاصل في كل حين للأشياء والمخلوقات على هذه الأرض، فالجمل الفعلية تشع السامع بحركة الكون بالتجدد لمظاهر الوجود بالفناء الكائن في كل لحظة للموجودات، فيما يقابلها بقاء سرمدي للخالق جلّ وعلا. وفي خطبة للأشتر النخعي يصف فيها الإمام علي عليه السلام فيقول مستعملاً جملاً فعلية

واصفة (لم يسبقه في الصلاة ذكر حتى كان شيخاً، لم يكن له صبوة ولا نبوة ولا هفوة)[١٣].

ففي هذا التركيب اللغوي استعاض الخطيب عن أساليب أُخر بأسلوب الإخبار بالجمل الفعلية؛ لأن فيها دلالة الحدث الذي أراد الإشارة إليه مقروناً بالزمن الماضي حتى تترسخ الدلالة ولكي يضمن لنصه أن يحقق نوعين منها هما الدلالة الصريحة المتمثلة في قدم إسلام الإمام عليه السلام والدلالة الضمنية في أحقيته للخلافة من سواه (وهاتان الدلالتان متلازمتان، فالدلالة الصريحة جوهرية ومحددة وينذر أن يختلف فيها إنسان عن آخر، وتكفي فيه المعرفة الأولية في اللغة، بينما الدلالة الضمنية تحتاج إلى معرفة ذهنية ذوقية في اللغة وآدابها كي يتمكن المرء من إدراكها)[١٤].

ولعل المتلقي في ذلك الزمان على دراية بهذه الأساليب وله المقدرة على التمييز ومعرفة المعنى من دون عناء.

ونجد صحابياً آخر يستعمل الجمل الفعلية في الدلالة على قصده وهو سعد بن قيس الهمداني فيقول مخاطباً أصحابه وحاثاً لهم على الثبات ومبشراً لهم بالنصر «ألا إنكم ستلقون عدوكم...إلا أنكم تفوزون بقتلهم، ويشقون بقتلكم»[١٥]، وهذا القول فيه إخبار لما سيأتي وهو نابع من ثقة مقاتل بقضيته التي يدافع عنها، فهو يبشر أصحابه بالفوز بعد أن أوضح لهم ما هم عليه من الصواب الذي يسيرون عليه، وفي الخطبة ما أبان هذا القول وعضده، فهو متأت من سياق لغوي ومقامي يفصح عن الدلالة ويؤكد القول بما أدخله على تركيبه الفعلي من مؤكدات ومنها أداة التوكيد (أن) وفي تقديمه لكاف الخطاب أضاف مؤكداً آخر، عضّد الدلالة بما لا تقبل الشك، ولكي ينزع من قلوب مخاطبيه الوهن

ويثبت أقدامهم في مواجهة عدوهم. وحين ننظر في خطبة الصحابي الجليل عمار بن ياسر (رضوان الله تعالى عليه) نجده استعان بالتراكيب الفعلية في تصوير حال أصحاب معاوية فهو يقول عنهم: ((لم يكن للقوم سابقة في الإسلام، يستحقون بها الطاعة والولاية، فخدعوا أتباعهم بأن قالوا: قُتل إمامنا مظلوماً، ليكونوا بذلك ملوكاً وجبابرة))[١٦]. فعندما وصف حالهم الماضي استعمل لذلك الوصف الفعل المضارع المنفي (لم يكن) ليدل به على ما انصرف من حالهم، وحين نظر إلى حالهم ومستقبلهم وجدهم (لا يستحقون الطاعة) وبذلك استطاع أن يسلبهم ما يحاججون دونه ويموتون في سبيله. ولو استقصينا الجمل الفعلية في خطب أصحاب الإمام علي عليه السلام لوجدناها تشكل حيزاً كبيراً من هذه النصوص، لكنا استشهدنا ببعض منها ونظن أنّ ذلك باستطاعته أن يوصل الفكرة التي نبحث عنها ونريد توضيحها وإبانتها من خلال هذا البحث على ما نعتقد.

ثالثاً: أسلوب الشرط

قد يأتي الإخبار بأسلوب الشرط الذي له سماته الخاصة والفارقة عن الأساليب الأخرى في الكلام العربي لأجل غرض دلالي، فقد نظر اللغويون في هذا الأسلوب فاختلفوا فيه، لذلك سنلقي نظرة سريعة على بعض الآراء التي قيلت في أسلوب الشرط، إذ قال بعضهم إن الجملة الخبرية تأتي على أربعة أضرب ومنهم أبو علي الفارسي (ت٣٧٧هـ) إذ يرى أن الجملة عنده على أربعة اضرب وتابعه في ذلك الزمخشري (٥٣٨هـ) إذ يقول (أربعة أضرب: فعلية، اسمية، ظرفية، شرطية)[١٧]، وهذا لا يعني أن هنالك إجماع على هذا الرأي فقد عارض ذلك ابن يعيش(٦٤٣هـ) الذي عُدّ جملة الشرط

المتكونة من جملة الشرط وهي عنده مبتدأ وجملة جواب الشرط وهي خبر[١٨]. أما الباحثون المحدثون فيرى أحدهم (أن جملة الشرط تستحق أن تعد قسماً قائماً بذاتهِ بين الجمل، لأن في طبيعة صيغتها، وفي أداء معناها ما يميزها عن جملتي الخبر والإنشاء والجملة الفعلية والاسمية)[١٩]، وقد سبق إلى ذلك الشيخ عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) حين قال (الشرط كما لا يخفى في مجموع الجملتين، لا في كل واحدة منهما على الإنفراد ولا في واحدة منهما دون الأخرى)[٢٠]، وهذا يدل على أن الفكرة التي يدلان عليها الشرط والجزاء هي فكرة واحدة يحملها تركيب لغوي قادر على الإخبار عن فكرة مهينة قد تكون قابلة للتحقق، ومن أمثلة ذلك ما نجده في خطبة عمار بن ياسر (رضوان الله تعالى عليه) إذ يقول واصفاً أصحاب معاوية (هؤلاء الذين لا يبالون إذا سلمت لهم دنياهم)[٢١]، فقد استعمل الأسلوب الشرطي في الإخبار عن سمة أصحاب معاوية واستعمل في ذلك أداة الشرط الجازمة (إذا)، وأحدث تغييراً في نمطية بناء الجملة الشرطية عندما قدم جملة جواب الشرط (لا يبالون) على جملة فعل الشرط (سلمت لهم دنياهم، في قصدية إثارة انتباه متلقية وفي التركيز على سمت اللّامبالاة التي هي تشير من طرف خفي إلى قلة الإيمان عند أولئك القوم، وتقدم غرضاً بلاغياً خرج إليه أسلوب الشرط وهو الاستهانة بالموصوفين بهذه الصفة، وقد تمت له هذه المزية بطريقة غير مباشرة، وهي أبلغ من التصريح على رأي البلاغيين. وفي هذه الخطبة نجد توظيفاً آخر لأسلوب الشرط في الإخبار عن حال القوم المعادين؛ فيقول: ((وتلك مكيدة قد بلغوا بها ما ترون، ولولا هي، ما بايعهم من الناس رجلان))[٢٢].

ويبدو من هذا التركيب الشرطي الذي اعتمد على أداة الشرط (لولا) وهي حرف امتناع لوجود الذي جاء بعده بضمير منفصل مرفوع لأن ((لولا لا يليها من المضمرات إلا المنفصل المرفوع))[٢٣]، على رأي المبرِّد الذي احتج بقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾[٢٤]، قد وفر للنص الشمولية في الإبلاغ عن حالتهم، وتلك سمة أخرى يضيفها الخطيب إلى سمات القوم السيئة، وهي تؤدي حجة إقناعية من طرف آخر.

وفي نص خطبة الصحابي جرير البجلي (رضوان الله تعالى عليه)[٢٥] نجد استعملاً لأسلوب الشرط في الإخبار عن حالة أصحاب القوم الذين بايعوا الإمام علي عليه السلام إذ يقول (وقد بايعت العامة علياً، ولو ملّكنا الله أمورنا، لم نختر غيره، ومن خالف هذا استعتب، فادخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس)[٢٦].

في هذا النص نجد استعمالاً لأسلوب الشرط مكثف فقد استعمل جملتين شرطين متلاحقتين، ربطهما بأداة الربط (الواو) العاطفة التي عمقت الدلالة، وكثّفت المعنى، لأن المعنى الذي يقدمه أسلوب الشرط هو من المعاني العامة فهو يصلح لتقديم الأفكار وعرض المعاني العامة، والبيعة هنا عامة، وكأنما حدث في النص ما يشبه الإيحاء الذي يولده الأسلوب وتتعاضد الألفاظ على إبانة مدلولاته التي أسهم في كشف قيمها السياق الذي حدث فيه القول، والسياق هنا البيعة، ولا بديل عنها لأن الخطيب قد قدم أدلته العقلية، وأوضح الحالة التي عليها اجمع المسلمون، فكأنه يشير إلى حديث نبوي شريف، **«يد الله مع الجماعة»**، وهي دعوة لوحدة الأمة التي كانت تعيش مأزق الفتنة، والفرقة، وإلى مثل هذه الأساليب، يستطيع البحث أن يقدم شواهد كثيرة لكنه اقتصر على هذه مراعاة لمحددات البحث الفنية.

المبحث الثاني

الأساليب الانشائية

الإنشاء لغة

يشير لسان العرب لابن منظور إلى أن المعاني اللغوية للإنشاء تدور حول (الابتداء أو الخلق، أو الابتداع)[٢٧].

الإنشاء اصطلاحاً

يعرف القزويني الإنشاء فيقول: «ووجه الحصر أنَّ الكلام إما خبر أو إنشاء لأنه إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه أو لا يكون لها خارج، الأول: الخبر، والثاني: الإنشاء[٢٨].

وينقسم الإنشاء على قسمين: طلبي وغير طلبي. ولكل منهما سماته الخاصة ذكرها البلاغيون وفصّلوا فيها[٢٩].

يقول التفتازاني: (فالإنشاء إن لم يكن طلباً كأفعال المقاربة وأفعال المدح والذم وصيغ العقود والقسم ورب ونحو ذلك، فلا يبحث عنها ههنا، لقلة المباحث البيانية المتعلقة بها أو لأن أكثرها في الأصل إخبار نقلت إلى معنى الإنشاء)[٣٠].

والمراد بقوله: (أكثرها) أنَّ أغلب الإنشاء غير الطلبي خبر، وهنا يستثنى أفعال الرجاء والقسم، وأمّا قصده بقلة المباحث البيانية قلة ورودها في لسان العرب.

ولذلك يقوم الباحث بالتركيز على الإنشاء الطلبي المتمثل في خمسة أساليب: الأمر والنهي، والاستفهام، والتمني، والنداء التي وجد منها في نصوص خطب أصحاب الإمام علي عليه السلام ثلاثة أساليب هي:

أولاً: أسلوب الأمر

الأمر في البلاغة طلب فعل الشيء على وجه الاستعلاء. قال العلوي: (هو صيغة تستدعي الفعل أو قول ينبئ عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء)[٣١].

وأظهر الأمور عند السكاكي أنَّ أسلوب الأمر وضع لطلب الأمر على

وجه الاستعلاء إلا أنه يخرج إلى معانٍ تعرف من قرائنه فقال: (للأمر حرف واحدٌ هو اللام الجازم في قولك: (ليفعل) وصيغ مخصوصة سبق الكلام في ضبطها في علم الصرف وعدة أسماء ذكرت في علم النحو)[٣٢]، وقد وجد الباحث ثلاثة صيغ مستعملة في النصوص المدروسة سيكشف البحث عنها ويد على استعمالاتها، ومنها صيغة فعل الأمر (افعل)، وهذه الصيغة من أسلوب الأمر هي الصيغة الأكثر استعمالاً في الخطب المدروسة، وهي تأتي لتؤدي غرضاً بلاغياً معيناً يتطلبه الموقف ويحتمله السياق، ومن هذه الأغراض البلاغية:

١. النصح والإرشاد

وهو غرض بلاغي قد يخرج إليه الأمر ويعني (الطلب الذي لا إلزام فيه دائما وإنما النصيحة الخاصة)[٣٣]، وإن النصح والإرشاد يدل على حسن نية الأمر لأن (النصح والنصيحة كلمة جامعة يعبر بها عن حسن النية وإرادة الخير من قول أو عمل)[٣٤]، وهذا هو حال أصحاب الإمام عليه السلام إذ نراهم ينصحون أعدائهم ويريدون بذلك إصلاحهم، وهذا ما نلمسه في قول الصحابي الجليل عمار بن ياسر (رضوان الله تعالى عليه) مخاطباً أصحابه (امضوا معي عباد الله إلى قوم يطلبون فيما يزعمون بدم الظالم لنفسه)[٣٥]، وقد جاء أسلوب الأمر هنا ليؤدي غرضاً بلاغياً هو النصح والإرشاد لأصحابه والحث لهم على التزام طريقه الذي اختاره في الوقوف خلف الإمام عليه السلام، إذ دلت لفظة معي على المصاحبة التي يريدها لهم في جانب الحق الذي يدافع عنه.

ومن أمثلة هذا الغرض ما نجده في قول الصحابي (مالك الأشتر النخعي مخاطبا أصحابه (اتقوا الله وعليكم

بالحزم والجد، واعلموا أنكم على الحق)[٣٦]، إذ استعمل الفعل (اتقوا) والفعل (اعملوا) لغرض إرشاد أصحابه إلى الطريق القويم، وفيه أيضاً حث على التقيد بالدين الذي أشارت إليه لفظة (اتقوا) فهي تمنح النص دلالة إيحائية، استطاعت أن تعضد المعنى بضلال إيمانية دينية.

وقد يأتي النصح والإرشاد محمولاً على صيغة أمر أخرى مثل صيغة (اسم المصدر) وهذا ما نلمسه في قول الصحابي عبد الله بن عباس لأصحابه (عليكم بتقوى الله والجد والحزم والصبر)[٣٧] أي ألزموا الجد والحزم والصبر.

٢. غرض الوجوب

وهو أن يكون الأمر واجباً، وهو ما يصدر عن قائد لرعيته ولذلك نجد الأشتر النخعي يخاطب أصحابه فيأمرهم بقول: (شدوا شدة المحرج الراجي الفرج)[٣٨]، فهنا يكون فعل الأمر قد خرج إلى غرض بلاغي هو الوجوب، وهو ما يعزز السمة القيادية للأمر، إذ يشير إلى قوة تأثيره في جنده ورعيته، ومن الأمثلة الأخرى على هذا الغرض الذي جاءت به صيغة أخرى من صيغ الأمر وهي صيغة (الفعل المضارع المقرون بلام الأمر) وذلك في قول الأشعث بن قيس مخاطباً جمعاً من المسلمين في وقعة صفين قائلاً: (ألا فليبلغ الشاهد الغائب)[٣٩].

فقد أوجب على أصحابه التبليغ لمن لم يكن حاضراً في ساعة خطابه، وهذا ما يدل على أنّ القصد الذي سعى إلى إيصاله إلى مخاطبيه قصد واجب يتحمله كل من سمعه.

ونجد في نص خطبة ابن عباس مثالاً على خروج أسلوب الأمر إلى غرض الوجوب، فهو إذ يخاطب أصحابه يؤكد حقيقة واجبة وبأدلة واضحة وبأسلوب امتزج فيه الأمر بالقسم، وهذا جلي في قوله (واعلموا والله الذي ملك الملك

وحده فبان به وكان أهله ، لقد قاتل علي ابن أبي طالب مع رسول الله صلى الله عليه ، وعلي يقول صدق الله ورسوله...)[٤٠].

فقد أكّد الخطيب هذه الأحقية وأثبت وجوب الالتزام بها بالدليل وبالأسلوب الذي تضمّن القسم بـ(الله)، ومن ثم التأكيد بلام مؤكدة ارتبطت بحرف تحقيق في لفظة (لقد) كل هذه البراعة في الأسلوب قد وظفت لإخراج أسلوب الأمر إلى الغرض البلاغي ألا وهو الوجوب.

٣. غرض الانذار

قد يخرج أسلوب الأمر بصيغه المختلفة إلى غرض بلاغي هو الإنذار عندما يكون الأمر في حالة الحرب مع من يوجه إليه الكلام الذي لا يحقق هذا الغرض إلا بتوافر مجموعة من القرائن السياقية والمقامية المرشحة للغرض البلاغي وهو في هذه الحالة غرض الإنذار، ومن أمثلة هذا الغرض ما نجده في قول الصحابي (جرير بن عبد الله البجلي) مخاطباً معاوية في قضية البيعة التي تحققت للإمام علي عليه السلام بإجماع الأمة بعد ما أوضح له حال المسلمين تلك ودل على عصيانه وخروجه عن إجماع الأمة فإنه يسوق له أسلوب الأمر هذا لأجل إنذاره لعلّه يتعظ، ومن ذلك قوله (فادخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس)[٤١]، ففي هذا الأسلوب يبدو الإنذار واضحاً لأن من يخالف إجماع الناس استحق أن يأمر بهذه الطريقة.

٤. غرض الدعاء

للدعاء في اللغة معان ودلالات عدة (منها الدعاء بمعنى النداء: دعاه ناداه وطلبه، ومنها العبادة يقال دعاه أي عبده، ومنها التسمية دعوت ابني أي سميته، ومنها التضرع إلى الله دعا الله يدعوه دعاء: سأله كشف ضر أو سوق نفع)[٤٢]، وإنّ أسلوب الأمر الذي ورد

في الخطب هذه قد خرج في أحيانٍ كثيرة إلى دلالات الدعاء إلى الله عزّ وجل بالنصر وبالتأييد، وبأسلوب يتسم بالخضوع؛ لأن الدعاء هو (الطلب على سبيل التضرع والخضوع لله تعالى، ذلك بأن يكون صادراً من الأدنى إلى الأعلى)[٤٣]، وقد يسمى هذا الأسلوب بـ(المسألة)، وهذا ما ذكره ابن فارس في كتابه (الصاحبي)[٤٤]، وقد ورد هذا الأسلوب في القرآن الكريم كثيراً، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**ربنا اغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنّا سيأتنا وتوفنا مع الأبرار**﴾[٤٥].

ونجد له شواهد في خطب أصحاب الإمام علي عليه السلام، ومن ذلك قول عبد الله بن عباس في إحدى خطبه (ربنا أعنا ولا تخذلنا، وانصرنا على عدونا ولا تُخلعنا، وافتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين)[٤٦]، فأسلوب الأمر الذي استعمل فيه أفعال الأمر (أعنا) و(انصرنا) و(وافتح) كلها صادرة من الأدنى وهو الخطيب إلى الأعلى سبحانه وتعالى، فهي تودي غرضا مجازيا هو الدعاء والاستعانة.

وقد يأتي أسلوب الأمر الدال على الدعاء ضمن تراكيب لغوية شرطية، ويبدو ذلك واضحاً في قول الصحابي عمّار بن ياسر (رضوان الله تعالى عليه) الذي قدم أسلوب الدعاء الصريح في استعماله الدقيق له وذلك حين قال (اللهم إنْ تنصرنا فطالما نصرت، وإنْ تجعل لهم الأمر فادخر لهم بما أحدثوا لعبادك العذاب الأليم)[٤٧] وإنْ كان هذا الأسلوب صريحاً في الدعاء إلاّ أنّه تضمن فعل أمر (ادّخر) جاء ضمن الجملة الشرطية، وهذا يعزز التماسك النصي للجمل التي كانت مترابطة بوسائل ربط لفظية مثل (الفاء) ومعنوية أو منطقية وهي علاقة الشرط بجوابه،

فالأمر هنا من الأدنى إلى الأعلى وهو دعاء من عبد لربه يريد النصر والغلبة لقيم الإسلام على من جانبها وأنكر بيعة في عنقه. ويلحظ في هذا الأسلوب (التقديم لضمير الداعي على المفعول وهو ذات الدعاء أملاً في الإجابة وطمعاً في الرحمة وتصويراً لأشواق النفس حين تضع أمالها على باب الكريم المنان)[٤٨] وهذا التصرف في التركيب يمنح النص القدرة على التأثير في المتلقي وهو يخيف من توجه عليه هذه الدعوة لأنّ الناس وإنْ اختلفت أهواؤهم وجذبتهم الدنيا بمباهجها فأنهم قريبي العهد بالإسلام وهم لا من أنْ يحدث فيهم الدعاء رهبة وخوفا وربما أثر في نفوسهم وأصلح من توجههم وقاد إلى رشادهم، فالأسلوب بهذا يكون قد أدّى أغراضه.

ثانيا: أسلوب النهي

إنَّ أسلوب النهي واحداً من الأساليب البلاغية التي تكثر في كلام العرب، وهويعَدّ من أنواع الطلب، وهو طلب الكف عن الفعل، استعلاءً، قال السكاكي (ت٦٢٦هـ): (للنهي حرف واحد وهو (لا) الجازم في قولك (لا تفعل)، والنهي محذو به حذو الأمر في أنَّ أصل استعمال (لا تفعل) أن يكون على سبيل الاستعلاء بالشرط المذكور فإنْ صادف ذلك أفاد الوجوب وإلا أفاد طلب الترك فحسب)[٤٩].

فالوجوب والإلزام شرطان يلازمان أسلوب النهي ويعنيان وجوب إلزام المخاطب بما ينهى عنه، والسكاكي يوازن بين أسلوب الأمر وأسلوب النهي فيرى أنَّ الأسلوبَين يشتركان في عَدِّ الاستعلاء والآخر، ونقصد بالآخر أنَّ الأمر والنهي يقصدان الآخر فلا يمكن لإنسان أن ينهى نفسه ويأمرها.

أما وجه الخلاف بين الأسلوبين فهو أنَّ لكل منهما صيغة خاصة به.

وهذا ما أشار إليه العلوي بقوله (الأمر دالٌ على الطلب، والنهي دالٌ على المنع، وأنَّ الأمر لا بدَّ من إرادة مأمورة، وأنَّ النهي لابد فيه من كراهية منهيّة)[٥٠].

وإنّ أسلوب النهي لا يؤدي غرضاً واحداً في الكلام العربي بل نراه يخرج إلى معان مجازية كثيرة تعرف من السياق وقرائن الأحوال، ومنها:

١. الدعاء

تأتي صيغة النهي لكي تؤدي غرضاً مجازياً هو الدعاء الذي هو طلب من الأدنى إلى الأعلى وهذا ما نلمسه في الأسلوب القرآني قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[٥١] وعلى وفق هذا الاستعمال لأسلوب النهي في تحقيق غرض الدعاء نجد قول الصحابي عبد الله بن عباس في آخر خطبته التي ختمها بالدعاء (اللهم ربنا اعنا ولا تخذلنا، وانصرنا على عدونا، ولا تخّل عنا، وافتح بيننا بالحق وأنت خير الفاتحين)[٥٢] يبدو من خلال النص استعمال أسلوب النهي الذي تحقق في قوله (لا تخذلنا) وفي (ولا تخل) وهو نهي قد خرج إلى الدعاء من الله عز وجل أنْ يمد أصحابه بالنصر ويجنبهم الخذلان.

٢. تحريك الهمة

إنّ هذا الغرض البلاغي قد ذكره البلاغيون وعدُّوه ممن يخرج إليه أسلوب الأمر والنهي عند توفر القرائن ومعاضدة السياق لذلك، وعن هذا الغرض يقول ابن طباطبا العلوي (الإلهاب والتهييج مقولان على كل كلام دال على الحث على الفعل لمن لا يتصور منه تركه وعلى ترك الفعل لمن لا يتصور منه فعله، ولكن يكون صدور الأمر والنهي ممن هذه حاله على جهة الإلهاب والتهييج له على الفعل أو الكف لا غير)[٥٣].

ثم يوضح هذا المفهوم أكثر، إذْ يقول (فهذان نوعان من الكلام يردان في الكلام الفصيح والخطب البالغة، ولولا موقعهما

في البلاغة أحسن موقع لما وردا في كتاب الله الذي أعجز الثقلين بمثله أو بأقصر سورة من سوره)[٥٤].

ثم يستشهد بآيات قرآنية خرج فيها النهي إلى هذا الغرض، ونحن نلمس هذا الغرض قد جاء في قول الصحابي عبد الله بن عباس مخاطباً أصحابه الذين اختبرهم فألفاهم متمسكين بمبادئهم عازمين على ملاقاة عدوهم، وهو على ثقة مما هم عليه لذلك خاطبهم قائلاً: (فلا يكونن أولى بالجد في باطلهم منكم في حقكم) وهو بهذا الخطاب أراد أن يلهب حماسهم ويدفعهم إلى ملاقاة الأعداء.

لذلك استعمل أسلوب النهي الذي ساعدت القرائن السياقية والمقامية على خروجه إلى غرض بلاغي قصده الخطيب في التأثير على مخاطبيه وإلهاب الحماس لديهم لأنّ المقام هو ساحة حرب أو ساعة استعداد وتهيؤ إلى خوض غمار الحرب التي تداعى لها الطرفان في قضية معروفة عند أصحابه فهم على يقين في حربهم وسلمهم؛ لأنهم مع ابن عم الرسول الأكرم وهم على بيعة صحيحة أجمع عليها المسلمون.

٣. التحقير

إن أسلوب النهي قد يخرج إلى غرض آخر ويعتمد ذلك على ما يحيط بالنص من مؤثرات وما يجتمع فيه من قرائن، وهو يصدر من الخطيب إلى من قصد في دلالة على أن القول أو الفعل غير ذي بال ولا يستحق الاهتمام، ومن ذلك ما نلمسه في قول الصحابي مالك الأشتر (رضوان الله تعالى عليه) مخاطباً الإمام علي عليه السلام ومشيراً إلى قول أعدائه وخصومه وفعلهم فهو يقول (لا يهدنك ما رأيت، ولا يؤسفك من نصرنا ما سمعت من مقالة هذا الشقي الخائن)[٥٥]، فقد استعمل في قوله

أسلوب النهي الذي جاء عن طريق الفعلين المضارعين المجزومين بأداة الجزم (لا) وهما (يهدنك) و(يؤسفك) وهذا الاستعمال جاء مركزاً ؛ لأنه ربط بين أسلوبين من النهي أي بين جملتين أفادتا النهي ثم دلالة التحقير المؤكدة من خلال الربط بينهما بأداة الربط الواو العاطفة في عملية أراد بها تأكيد القول، وتحقير الفعل الصادر من شخص خائن شقي.

ثالثا:أسلوب الاستفهام

الفهم لغة

يشير لسان العرب لابن منظور إلى الدلالة اللغوية للفهم فيقول (وفهمت الشيء، عقلته وعرفته، وأفهمه الأمر وفهمه إياه: جعله يفهمه، واستفاهمهُ سأله أن يفهمه، وقد استفهمني الشيء فأفهمته وفهمته تفهيماً)[٥٦].

الاستفهام اصطلاحاً بلاغياً

فهو طلب العلم بالشيء المجهول، وهو من صيغ الإنشاء الطلبي، قال السكاكي: (الاستفهام لطلب حصول في الذهن، والمطلوب حصوله في الذهن إما أن يكون حكما بشيء على شيء أو لا يكون. والأول هو التصديق ويمتنع انفكاكه من تصور الطرفين، والثاني هو التصور ولا يمتنع انفكاكه من التصديق)[٥٧].

وأسلوب الاستفهام من الأساليب البلاغية التي تعبر عن الانفعال بصورة دقيقة لأنَّ (الاستفهام أوفر أساليب الكلام معاني، وأوسعها تصرفاً وأكثرها في مواقف الانفعال وروداً، ولذا نرى أساليبه تتوالى في مواطن التأثر وحيث يراد التأثير وهيج الشعور للاستمالة والاقناع، وإذا صح القول: إنَّ للكلام قمة عليا في البلاغة كان أسلوب الاستفهام محتلاً أعلى مكان في تلك القمة)[٥٨]. فإذا كان التردد في الوقوع أو اللاوقوع فهو التصديق وإذا كان التردد في المفرد فهو التصور المعنوي كقولنا: (أقام زيد يكون الاستفهام للتصديق أي لوقوع

الفعل أما إذا قلنا: (أقام زيد أم عمرو) يكون الاستفهام للتصور والفرق بين الهمزة التي يطلب بها التصور أو التصديق أنَّ كل ما صلح أن يؤتى بعده بأم المتصلة فهو استفهام عن التصور. ويتم الاستفهام باستعمال أدوات معروفة له[٥٩]، غير إنا لم نجد في خطب أصحاب الإمام علي عليه السلام الا استعمالاً لأداة واحدة هي (كيف)، ومن الأغراض التي يخرج إليها أسلوب الاستفهام:

غرض التعجب

وهذا الغرض نلمسه في قول الصحابي سعد بن قيس الهمداني (رضي اله عنه) متعجباً ومستنكراً فعل وقول من لا ينصر الإمام عليه السلام فيقول (فكيف وإنما رئيسنا ابن عم نبينا، بدري صدق، صلى صغيراً، وجاهد مع نبيّه كبيراً)[٦٠] فالخطيب هنا استعمل أداة الاستفهام (كيف) التي تستعمل للدلالة على الحال، فقد أوضح أن حاله وأصحابه مع النصرة وعلى الثبات في الموقف الذي تعاهدوا عليه في نصرة الحق والدفاع عنه خلف ابن عم الرسول الأكرم صلى الله عليه واله وعلى وفق هذا الغرض البلاغي نجد قول الصحابي مالك الأشتر (رضوان الله تعالى عليه) عندما صوَّرَ حاله وأصحابه تعجب ممن يظن أنّه لا ينصر الإمام أو يخذله، فهو يقدم هذا الأسلوب الاستفهامي في غاية بلاغية ودلالية أجمع السياق الحالي والمقامي على تصديقها إذ يقول (فكيف لا نقاتل قوماً هم كما وصف أمير المؤمنين)[٦١] فالسياق اللغوي يؤيد ذلك إذ تدل الألفاظ (كما وصف أمير المؤمنين) على وصف سابق يوضح بطلان إدعائهم وسوء أفعالهم، فهو وأصحابه يستنكرون ذلك ويعجبون لمن يظن بنصرتهم الإمام عليه السلام.

الخاتمة

تناول البحث الأساليب البلاغية التي

اتّبعها أصحاب الإمام علي عليه السلام في خطبهم في وقعة صفين ولقد توصل البحث إلى مجموعة من النتائج التي تؤكد على مجموعة من الخواص الأسلوبية التي استعملت بدقة لحاجة الخطاب لها وللملائمة السياق المقامي لمقتضاها، فقد استعمل أصحاب الإمام علي عليه السلام الأساليب الخبرية في المواضع التي يُراد بها تثبيت حقيقة وتوكيدها أو في حالة وصف ما لديهم من قضية تتطلب الوصف الدقيق القاطع في حجيته ولا يتحقّق ذلك إلاّ باتباع أسلوب الجملة الخبرية الإسمية، وقد دل البحث على أوجه هذا الاستعمال وأبان أهميته في تصوير الحالة أو في الدفاع عن قضية.

ومن نتائج البحث أنّ الأساليب الانشائية التي اتبعها أصحاب الإمام علي عليه السلام في خطبهم جاءت لتحقق أغراضاً مجازية تطلبها سياق الحال، فكانت دقيقة في الكشف وصادقة في التعبير عن النفس وذات قدرة تصويرية تحمل في طياتها مقدرة الخطباء على تنويع الأساليب على وفق الحالة التي استدعت الخطبة، غير متناسين ما توفره هذه الأساليب الانشائية من جمالية يبدو تأثيرها في المتلقي أكثر عندما تقترن مع صدق المشاعر الممزوج بالإيمان بالقضية التي دافعوا عنها.

وقد توصّل الباحث إلى أنّ الخطب قد استطاعت أنْ تتنوع في أساليبها لتؤدي أغراضاً بلاغية مجازية لها فعلها في المتلقي لذلك تنوعت هذه الأغراض المجازية بين تحذير وتحريك همة ودعاء وتوبيخ، كل تلك الأغراض وقف عندها الباحث ودل عليها ولم يغفل إلاّ عن النزر اليسير منها، وذلك لقلة ورودها في نصوص خطب أصحاب الإمام علي عليه السلام، ولربما كان للظرف المنتج لهذه الخطب أثر في تحديد

هذه الأغراض من دون سواها.

(١) ينظر: لسان العرب: مادة (خبر).
(٢) المقتضب: ٨٩/٣. وينظر: نظم الدرر: ٤٤٥/٣.
(٣) الصاحبي: ١٧٩.
(٤) الإيضاح: ٨٦/١، والتلخيص: ٣٨.
(٥) الإتقان في علوم القرآن - للسيوطي: ٢٨٦/٢
(٦) جمهرة الأمثال: ٣١٢/٢، ولسان العرب مادة (عصم).
(٧) وقعة صفين – للمنقري: ٣١٨
(٨) وقعة صفين: ٩٥
(٩) م.ن: ٩٢
(١٠) م.ن: ٣١٩
(١١) الاشعث بن قيس اسمه معديكرب قيس وسمي أشعث لشعث شعره وهو من كندة وفد النبي في سبعين رجلا واسلم توفي سنة ٤٠هـ ينظر: الكنى والألقاب للشيخ عباس القمي: ٢٤/٢
(١٢) وقعة صفين: ٣١٨
(١٣) م.ن: ٢٣٩
(١٤) الخطيئة والتكفير –للغذامي: ١١٤
(١٥) وقعة صفين: ٢٣٧
(١٦) م.ن: ٣٢٠
(١٧) شرح المفصل: ٨٨/١
(١٨)ينظر: م.ن: ٨٩/١
(١٩) ينظر: في النحو العربي نقد وتوجيه: ٢٨١
(٢٠) دلائل الإعجاز: ٢٤٦
(٢١) وقعة صفين: ٣١٩
(٢٢) م.ن: ٣١٩
(٢٣) ينظر: شرح الرضي للشافية: ١٩/٢
(٢٤) سورة سبأ -الآية ٣١
(٢٥) هو جربر بن عبد الله ويكنى ابا عمرو اسلم في السنة التي قبض فيها النبي (صلى الله عليه وآله) قدمه عمر على جميع بجيلة وكان لهم اثر عظيم في فتح القادسية، ثم سكن الكوفة وأرسله علي رسولا إلى معاوية ،ثم اعتزل الفريقين، ينظر: طبقات ابن سعد: ج٦/ ٢٢ والاصابة في معرفة الصحابة: ج١/ ٤٧٥
(٢٦) وقعة صفين: ٣١
(٢٧) ينظر: لسان العرب: مادة (نشأ).

(٢٨) الإيضاح: ١/ ٨٥، والتلخيص: ١٥١، والطراز: ١/ ٦١، والإتقان: ٨٧٧ – ٨٧٥.

(٢٩) ينظر الإيضاح في علوم البلاغة: ١/ ٨٦

(٣٠) تهذيب السعد: ٣/ ٢٩.

(٣١) الطراز: ٣/ ٢٨١.

(٣٢) مفتاح العلوم: ١٥

(٣٣) أساليب بلاغية: ١١٢

(٣٤) التحرير والتنوير - لابن عاشور: ٨/ ١٩٤

(٣٥) وقعة صفين: ٣١٩

(٣٦) م.ن: ٢٣٩

(٣٧) م.ن: ٣١٨

(٣٨) م.ن: ١٧٤

(٣٩) م.ن: ٤١٨

(٤٠) م.ن: ٣١٨

(٤١) م.ن: ٣١

(٤٢) المفردات –للراغب الاصفهاني: ١٦٩

(٤٣) الإيضاح في علوم البلاغة – للقزويني: ١/ ٣٤٣

(٤٤) ينظر الصاحبي في فقه اللغة: ١٨٤

(٤٥) سورة آل عمران: ١٩٣

(٤٦) وقعة صفين: ٣١٩

(٤٧) م.ن: ٣١٩

(٤٨) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القران الكريم: ٦٧.

(٤٩) مفتاح العلوم: ١٥٢ – ١٥٣. وينظر: الإيضاح: ٢٤٤

(٥٠) الطراز: ٣/ ٢٨٥.

(٥١) سورة البقرة: ٢٨٦

(٥٢) وقعة صفين: ٣١٩

(٥٣) الطراز: ٣/ ١٦٥

(٥٤) م.ن: ٣/ ١٦٧

(٥٥) وقعة صفين: ٦٥

(٥٦) لسان العرب مادة (فهم).

(٥٧) مفتاح العلوم: ١٤٦

(٥٨) فن البلاغة: ١٣٧

(٥٩) ينظر: الإيضاح: ١/ ٢٢٨.

(٦٠) وقعة صفين: ٢٣٧

(٦١) م.ن: ١٧٤.

المصادر

- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ت ٩١١هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث،

القاهرة، ط٣، ١٤٠٥هـ.

- الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القران الكريم، د.صباح عبيد دراز – مطبعة الأمانة –ط١ - مصر -١٩٨٦ :٦٧

- أساليب بلاغية – أحمد مطلوب – وكالة المطبوعات الكويت – ١٩٨٠

- أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، د. قيس إسماعيل الأوسي، جامعة بغداد، بيت الحكمة للنشر والترجمة والتوزيع، بغداد ١٩٨٨.

- الإيضاح في علوم البلاغة –القزويني – شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي -دار الكتب اللبناني - ط٥ -١٩٨٠

- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية - ١٩٨٤.

- جمهرة الأمثال، الحسن بن عبد الله، أبو هلال العسكري، ت ٣٩٥هـ، تحقيق عبد المجيد قطامش ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٨.

- دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) تعليق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، مصر، (د.ت).

- شرح المفصل، موفق الدين بن علي بن يعيش (ت٦٤٣هـ)، المطبعة المنيرية، مصر.

- الصاحبي في فقه اللغة، لأبي الحسين أحمد بن زكريا أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ)، تحقيق د. احمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاءه، القاهرة، ١٩٧٧م.

- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني (ت٧٤٩هـ)، مطبعة المقتطف، مصر، ١٣٣٢هـ –١٩١٤م. ودار الكتب العلمية

(بيروت)، ١٩٨٢م.

- فن البلاغة، د، عبد القادر حسين ،دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة، د.ت.

- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، لبنان، ط٢، (د.ت).

- المقتضب، أبو العباس المبرد (ت٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٦٣م.

- المفردات في غريب القران -أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالأصفهاني(٥٠٢هـ) تحقيق محمد سيد الكيلاني -مطبعة البابي الحلبي -مصر ١٩٦١م.

- مفتاح العلوم، لأبي يعقوب محمد بن علي السكاكي (ت٦٢٦هـ)، مطبعة المكتبة العلمية الجديدة، بيروت، (د.ت).

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (ت٨٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد المعين خان، طبعة مجلس المعارف الإسلامية، حيدر آباد الدكن الهند، ط١، ١٩٦٩م.

- وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقري (ت ٢١٢هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون -دار الجيل، لبنان، ط١.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

علي بن أبي طالب باب حطة

مَنْ دَخَلَ مِنْهُ كَانَ آمِنًا
وَمَنْ خَرَجَ مِنْهُ كَانَ كَافِرًا

بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ٤٠، ص ٧٦

قال أمير المؤمنين عليه السلام

لَمْ يُخْلِ اللهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ
مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ
أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ
أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ

نهج البلاغة ص ٢٠

وظائف النبوة

دراسة في نهج البلاغة

م. د. انتصار عدنان عبد الواحد

جامعة البصرة/ كلية الآداب

يمثل كتاب (نهج البلاغة) رافداً ثراً للعربية، فهو كتاب في غاية الإتقان، يتلو السنة والفرقان، لأنه ضم الكلم ونوادر البلاغة ممن نزل عليه القرآن، فلذلك لا يسع أحد وصف ما فيه من فنون الفصاحة ووجوه البلاغة، لأنه ركب منها أعلى ذروة السنام. ثم أن جامعه يعد من أقطاب الفكر الإسلامي ألا وهو الشريف الرضي الذي برز في الأدب العربي، مركزا على دراسة كلام الله ورسوله وأمير المؤمنين صلوات الله عليهما وعلى آلهما، ففي ما يخص كلام الله ناقش مسألة التأويل في كتاب سماه (حقائق التأويل في متشابه التنزيل) الذي قيل فيه: (صنف الرضى كتابا في معانى القرآن يتعذر وجود مثله)

المقدمة

يمثل كتاب (نهج البلاغة) رافداً ثراً للعربية، فهو كتاب في غاية الإتقان، يتلو السنة والفرقان، لأنه ضم الكلم ونوادر البلاغة ممن نزل عليه القرآن، فلذلك لا يسع أحد وصف ما فيه من فنون الفصاحة ووجوه البلاغة، لأنه ركب منها أعلى ذروة السنام[١].

ثم أن جامعه يعد من أقطاب الفكر الإسلامي ألا وهو الشريف الرضي الذي برز في الأدب العربي، مركزا على دراسة كلام الله ورسوله وأمير المؤمنين صلوات الله عليهما وعلى آلهما، ففي ما يخص كلام الله ناقش مسألة التأويل في كتاب سماه (حقائق التأويل في متشابه التنزيل) الذي قيل فيه: (صنف الرضي كتابا في معاني القرآن يتعذر وجود مثله)[٢].

أما عن كلام رسول الله صلى الله عليه وآله فناقش مسألة المجاز في كلام النبي صلى الله عليه وآله في كتاب سماه (المجازات النبوية)، وهو مطبوع، في حين كانت البلاغة نصب عينيه فيما يخص كلام الإمام أمير المؤمنين صلوات الله عليه فوضع كتابه الذي سماه (نهج البلاغة) الذي خصصه لما أثر عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه من خطب ورسائل وقصار الكلمات، وهكذا جاء الكتاب في فصول ثلاثة[٣].

وجدير بالذكر إن نهج البلاغة لم يحتو على جميع ما صدر عن الإمام أمير المؤمنين صلوات الله عليه؛ لان هدف مؤلفه لم يكن جمع المتناثر من كلامه صلوات الله عليه بل كان ينتقي ما يراه في قمة الفصاحة والبلاغة.

فكان يلتقط كلام أمير المؤمنين صلوات الله عليه التقاطا، ولا يقفو مع الكلام المتوالي لان غرضه ذكر فصاحته صلوات الله عليه لا غير، ولو أتى بخطبه كلها على وجهها لكانت أضعاف كتابه الذي جمعه[٤].

ومع ذلك جاء هذا الكتاب فريدا من نوعه، وأصيلا في بابه، لذا تلاقفته عقول المفكرين وأقلامهم قديما وحديثا تحقيقا وشرحا وتعليقا ودراسة، حتى تجاوز ما كتب عنه المئات من الدراسات في مختلف صنوف المعرفة، وكان كل من غاص في خضم بحره وجده أعظم مما ظن وأعمق مما تصور لذا جاءت عبارات الذهول والإعجاب والعجز تترى على ألسنة المبحرين في عوالمه، كيف لا وكلامه صلوات الله عليه (قبس من نور الكلام الإلهي وشمس تضيء بفصاحة المنطق النبوي)[٥].

فكان بحق (دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق)[٦].

وأمام هذا (الكلام العلوي) يقف الباحث متهيبا متخضعاً لجلالة النص وعظمته، لذا كانت خطواتنا مع هذا الموضوع بطيئة جدا وهادئة وحذرة لما يحمله من صعوبات تكمن في عظمة هذا الكلام وصعوبة سبر أغواره بأدواتنا المعرفية المتواضعة، ومن الطبيعي أن لا تشوب الأعمال العجلة في بدايتها حتى اتسقت لنا الأمور فأخذنا نحث السير قدما وننهض سريعا، رغم يقيننا إن كل ما نقدمه يبقى قاصرا ومقصرا في إكماله على الوجه الأتم لكن (ما لم يدرك كله لا يترك جله).

لقد تناول أمير المؤمنين عليه السلام مختلف الموضوعات وفي علوم شتى كعلوم القرآن والحديث والكلام والفقه وغيرها.

ويتضح أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قد أبدى اهتماما بالنبوة والأنبياء، فكثرت إشارته إليها وإلى مقامها السامي ومهام الأنبياء وما لاقوه من أقوامهم من أذى وتكذيب.

ومن بين المفردات التي كان لها حضورٌ في كلام أمير المؤمنين عليه السلام في ما يخص الأنبياء مفردة (وظائف

الأنبياء) لذا آثرنا دراستها دراسة مستقلة مستعينين بما جاء لدى المفسرين وشراح نهج البلاغة وعلماء اللغة والكلام في بيان مراده عليه السلام.

المبحث الأول

مفهوم النبوة وضرورتها

النبي لغة

النبي: (مأخوذ من نبا ينبو فهو اسم من النبوة، وهي الأرض المرتفعة، أو من نبئ، فهو اسم من النبأ وهو الخبر، ولعله مأخوذ من الاثنين من النبأ والإنباء، ويقرئ بلا همزة تخفيفا[٧].

أما اصطلاحا

(النبي هو الإنسان المخبر عن الله تعالى بغير واسطة احد من البشر)[٨].

إنه شخص من البشر ومن الناس أنفسهم، يجتبيه الله تعالى على سائر بني نوعه، ويختصه بهدايته وعنايته، فيوحي إليه، أو يحدثه من وراء حجاب، أو يرسل إليه ملكا يكلمه. وهذه هي طرق الوحي التي يحصل بها الاتصال بالله تعالى، ويتلقى عبرها المعارف الحقة التي فيها السعادة، وفي خلافها الشقاء والضلال[٩].

وقد أشار إليها القرآن بقوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[١٠].

يجد المتأمل في نهج البلاغة تركيزاً واضحاً من قبل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على مسألة (النبوة)، ويمكن أن يلاحظ على ما جاء في كلامه عليه السلام:

أولا: أنه عليه السلام تناول مفهوم النبوة على مستويين، المستوى العام والخاص، فتارة يتحدث عن النبوة كحركة أو تيار واحد من جهة أن الأنبياء كلهم مصطفون من الله سبحانه

ومبعوثون من قبله، وأن أساس دعوتهم التوحيد، وأن أهداف بعثتهم واحدة. وكل منهم جاء بشريعة سماوية أو دعا إليها لإنقاذ الناس، وتحقيق سعادتهم، وإن كانت طرائق دعواتهم ومنهجهم ينبغي أن يتغير بتقدم الزمن، إلا أن الأصول والنتائج تبقى على حالها.

وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بشكل عام عن النبوة في مظان كلامه المتناثر في خطبه وكلماته الشريفة.

وتارة نجده يخص بالذكر بعض الأنبياء، وان كان بإيجاز كحديثه عن النبي آدم عليه السلام وصفة خلقه[١١]، وعلة خلقه من تراب[١٢]، واصطفاء الأنبياء من ذريته[١٣]، وقصته مع إبليس[١٤].

أما نبي الله موسى عليه السلام فقد تطرق لبعض أحواله بتعدد الإشارات إلى ذكره. في أكثر من موضع من كلامه عليه السلام، فقد تحدث عن زهده وتواضعه وصفاته الجسمانية ولباسه، وبضعة تفصيلات حول لقائه هو وأخوه هارون عليهما السلام مع فرعون، فضلاً عن تأويل بعض الآيات الخاصة بموقف النبي موسى عليه السلام[١٥].

وفي حديثه عن نبي الله داود عليه السلام أشار إلى زهده وطبيعة عمله وعبادته، وأنه قارئ أهل الجنة[١٦].

وورد ذكر النبي سليمان عليه السلام إذ تحدث الإمام عن نبوته، وعظيم زلفته، وطول عمره، وسعة سلطانه، وتسخير الجن والإنس له[١٧].

وكذلك نجد ذكر النبي عيسى عليه السلام وبضعة إشارات عن كيفية معيشته وبعض أحواله الاجتماعية ومظاهر زهده عليه السلام[١٨].

كما انه وبما يتصل بموضوع نبوة الأنبياء تحدث عن بعض أقوامهم في إشارة موجزة لكنها مركزة؛ كحديثه عن ثمود قوم صالح، وبني إسماعيل، وبني

إسحاق، وبني إسرائيل، والفراعنة، والعمالقة، وأصحاب الرس، والمؤمنين الذين اتخذهم الفراعنة عبيداً واليهود. وهذا الذكر منه لهذه الأقوام كان على سبيل الوعظ والتذكير والاعتبار بما أصابهم بغية تجنب العوامل التي أدت إلى انحطاطهم ووقوع البلاء فيهم[١٩].

أما حديثه عن النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد جاء بشكل أكثر تركيزاً وخصوصية لكثير من جوانب سيرته الشريفة التي عكست رؤية الإمام لشخص النبي الأعظم صلى الله عليه وآله.

إن طبيعة المادة المختصة بالنبوة وتوافرها بمستوى عام وخاص في نصوص النهج، فرض علينا – في حال غياب النص الصريح المختص بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم - تطبيق بعض الإشارات العامة عن الأنبياء على خصوص النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك لانسجام دعوتهم جميعاً ووحدة وظائفهم وسماتهم عدا بعض المزايا التي اختص بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كونه خاتماً للأنبياء ومهيمنا عليهم وغيرها.

ثانيا: نلاحظ أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام نعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأوصاف عديدة في معرض حديثه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فتارة يقول عنه نبي[٢٠]، وتارة رسول[٢١]، فضلاً عن النعوت الأخرى من قبيل البشير[٢٢]، والنذير[٢٣]، والشاهد[٢٤]، والأمي[٢٥]، وعبد الله[٢٦]، والأمين[٢٧]، والصفي[٢٨]، والرضي[٢٩]، والإمام[٣٠]، والرشيد[٣١]، والنجيب[٣٢]، والمصطفى[٣٣]، والخاتم[٣٤]، والمجتبى[٣٥]، والأطيب[٣٦]، والأطهر[٣٧]، والأمين[٣٨]، والمأمون[٣٩] إلى غيرها من تلك الصفات التي تارة تأتي منفردة، وأخرى مترادفة مع عبارة ما، لتؤدي معناها بشكل أوفى[٤٠].

في إشارة واضحة وردت في كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيها: «ولَمْ يُخْلِ اللَّه سُبْحَانَه خَلْقَه مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ»[٤١].

فوجود النبي المرسل[٤٢] يُعد من ألطاف الله بعباده، ولئلا يكون للناس على الله حجة، ولابد أن يكون هذا اللطف شاملا لجميع الخلائق ولا يختص بزمان دون آخر.

فالنبي المرسل في المرتبة الأولى، إذ بعث الله رسله وجعلهم حجة له على خلقه: «لِئَلَّا تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ»[٤٣].

وقال عليه السلام في حق النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم: «أَرْسَلَه لإِنْفَاذِ أَمْرِه وإِنْهَاءِ عُذْرِه وتَقْدِيمِ نُذُرِه»[٤٤].

وقد اتفق المسلمون وأكثر الملل[٤٥] على ضرورة بعثة الأنبياء إلى الناس، بمعنى إن حكمة الله تقتضي إرسال الرسل لهداية البشر وإرشادهم إلى مسالك السعادة، وتجنيبهم مهاوي الضلال والشقاء[٤٦]. لكن ما الأدلة على ذلك؟

الدليل الأول

حكمته تعالى وتنزهه عن العبث واللغو في فعله

لو لم يرسل الأنبياء إلى الناس حاملين نظم الحياة الاجتماعية الصحيحة، ومبينين لهم سبل العبادات المقربة إليه تعالى، لاضمحل المجتمع الإنساني، ولضل البشر في متاهات الشرك والفساد، وهذا مبطل لغرضه تعالى من الخلقة، ومستلزم للغو والعبث في فعله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

الدليل الثاني

النبوة طريق إلى سعادة الآخرة

إن الهدف من خلق الإنسان تحليه بالكمالات المعنوية، وتهذيب النفس وتطهيرها من الشوائب، لبلوغ أعلى

درجات القرب من الله تعالى، ونيل السعادة الأبدية، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٤٧].

وهذا لا ينال إلا بالوقوف على المعارف الحقة، وطرق الأعمال العبادية الصالحة، ومدارج نبذ التعلق بالأغراض الدنيوية الزائلة، فلابد حينئذ تحقيقا لحكمة الله تعالى في خلق البشر من إرسال شخص، لم يحصل له ذلك التعلق المانع، فيعلمهم المعارف الحقة، ويزيل عنهم ما علق من شبهات في عقولهم، ويعضد ما اهتدت إليه عقولهم بهدي الله وفطرته التي فطر الناس عليها، ويبين لهم مالم يهتدوا إليه، ويذكرهم بالنعيم الموعود، ويحذرهم من العقاب وسوء المآل[٤٨]. وهذا ما ورد في كلام أمير المؤمنين عليه السلام مما نصطلح على تسميته (وظائف الأنبياء).

المبحث الثاني
وظائف الأنبياء

يمكن أن نستشف من كلام أمير المؤمنين عليه السلام مجموع الوظائف التي انيطت بالأنبياء والرسل عليهم السلام:

أولا: أداء ميثاق الفطرة الإلهية[٤٩]

إن الأنبياء طالبوا بأداء ميثاق الفطرة، وهو ميثاق التوحيد، إذ يقول الله سبحانه: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[٥٠].

فالتوحيد له وجود نقي خالص من كل شائبة داخل نفس الإنسان، وأما الانحرافات فأمر عارض، ووظيفة الأنبياء إزالة هذه الأمور العارضة، وفسح المجال لفطرة الإنسان في الإشراق[٥١].

ويشهد على ذلك أنه لما سئل الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام عن هذه

الآية، قال: «فطرهم على التوحيد عند الميثاق على معرفته انه ربهم»[٥٢].

وفي رواية أنه سئل الإمام الصادق عليه السلام، فقال: «هي الإسلام، فطرهم الله حين أخذ ميثاقهم على التوحيد، فقال: ألست بربكم؟ وفيهم المؤمن والكافر»[٥٣].

وما عبر عنه الإمام علي عليه السلام هنا وفي مواضع أخرى من خطب وتوجيهات هو تعبير عن حقيقة كبرى من الحقائق القرآنية، ورد التنبيه عليها أو الإشارة إليها في عدة آيات.

منها قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾[٥٤].

ويذهب باحث معاصر إلى إن نفس الإنسان خلقت صحيفة بيضاء لا شيء فيها، ولا توحي بشيء على الإطلاق، ولكنها تقبل كل ما يكتب فيها ويرسم، سواء أكان وحيا من الرحمن أم كان تضليلا من الشيطان، وبالبداهة إن الوحي من خالق الفطرة، وهو وحده الذي يجب أن يرسم فيها ما يرسم، وأن تؤمن به وتعمل[٥٥].

وما يدل على صحة هذا التفسير إن الإنسان يولد، ولا يولد معه شيء إلا حواسه الخمس، ومعدة تطلب الطعام والشراب - لما هو مشاهد - بالحس والوجدان، ثم يكتسب معارفه مما يحيط به شيئا فشيئا عن طريق هذه الحواس، وفي أقوال أهل البيت ما يعزز ذلك ويدل عليه، إذ روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: كان الناس قبل نوح أمة واحدة على فطرة الله، لا مهتدين ولا ضالين، فبعث الله النبيين[٥٦].

وبهذا فالمراد من قول الإمام عليه السلام : «لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِه» أي إن الأنبياء طلبوا من الناس أن يؤمنوا، ويعملوا بما أوحاه الله سبحانه إلى الفطرة على لسان أنبيائه، وليس معناه - كما يظن - إن الأنبياء طلبوا من الناس أن يؤمنوا بما توحيه الفطرة نفسها. كلا، لأنها صحيفة بيضاء لا توحي بشيء على الإطلاق[٥٧].

أشار عليه السلام إلى السبب الرئيس الذي استوجب بعثة الأنبياء، فقال عليه السلام: «لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِه عَهْدَ اللَّه إِلَيْهِمْ، فَجَهِلُوا حَقَّه واتَّخَذُوا الأَنْدَادَ مَعَه، واجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِه، واقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِه»[٥٨].

إذن هناك عهد لله قد تبدل، وحق لله قد جهل من المخلوقين، مما أدى بهم في أودية الشرك والضلال، وتلقفتهم الشياطين، فصدتهم عن معرفة الله وطاعته، أما عن ماهية هذا العهد.

فيظهر إن المراد به ميثاق عالم الذر والمشار إليه في الآية القرآنية: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾[٥٩].

ويظهر إن المراد من هذا العالم وهذا العهد هو عالم الاستعداد والكفاءات، وعهد الفطرة والتكوين والخلق، فعند خروج أبناء آدم من أصلاب آبائهم إلى أرحام الأمهات، وهم نطف لا تعدو الذرات الصغار وهبهم الله الاستعداد لتقبل الحقيقة التوحيدية، وأودع ذلك السر الإلهي في ذاتهم وفطرتهم بصورة إحساس داخلي، كما أودعه في عقولهم وأفكارهم بشكل حقيقة واعية بنفسها. وبناءً على هذا، فان جميع أبناء البشر يحملون روح التوحيد، وما أخذه الله من عهد منهم أو سؤاله إياهم : ألست

بربكم؟ بلسان التكوين والخلق، وما أجابوه كان باللسان ذاته[٦٠]!

إن هذا العهد هو (عهد فطري)، وهو ما يعبر عنه بـ(الشعور الديني) الذي هو من الإحساسات الأصيلة في العقل الباطني للإنسان. وهذا الإحساس يقود الإنسان على امتداد التاريخ البشري إلى طريق معرفة الله ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[٦١][٦٢].

ولما كان الغالب على الخلق حب الدنيا، والإعراض عن مقتضى الفطرة الأصيلة التي فطرهم الله عليها، والتحول عن القبلة الحقيقية التي أمروا بالتوجه إليها، وذلك بحسب ما ركب فيهم من القوى البدنية المتنازعة إلى كمالاتها، لا جرم كان من شأن كونهم على هذا التركيب المخصوص أن يبدل أكثرهم عهد الله سبحانه إليهم من الدوام على عبادته والاستقامة على صراطه المستقيم وعدم الانقياد لعبادة الشيطان.

كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾[٦٣].

وان يجهلوا حقه للغفلة بحاضر لذاتهم عما يستحقه من دوام الشكر، وأن يتخذوا الأنداد معه لنسيانهم العهد القديم، وان تجتذبهم الشياطين عن معرفته التي هي ألذ ثمار الجنة، وان تقتطعهم عن عبادته التي هي المرقاة إلى اقتطاف تلك الثمرة.

ولما كان من شأنهم ذلك وجب في الحكمة الإلهية أن يختص صنفا منهم بالكمالات الشريفة التي يقتدر معه أبناء ذلك الصنف على ضبط الجوانب المتجاذبة، وعلى تكميل الناقصين ممن دونهم، وهم صنف الأنبياء عليهم السلام، والغاية منهم ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام: «ليستأدوهم ميثاق الله فطرته»، أي ليبعثوهم على أداء ما خلقوا لأجله وفطروا عليه من

الإقرار بالعبودية لله، ويجذبوهم عما التفتوا إليه من إتباع الشهوات الباطنة واقتناء اللذات الوهمية الزائلة[٦٤].

يبدو من كلام أمير المؤمنين عليه السلام إن العهد التاريخي للإنسانية بدأ بظاهرة وجود النبوات في المجتمع البشري، هذه النبوات التي تقود مجتمعاتها نحو حياة أفضل، ووجود إنسان أكمل[٦٥].

إذ يشير عليه السلام في معرض حديثه عن قصة آدم «...وأَهْبَطَه إِلَى دَارِ الْبَلِيَّةِ وتَنَاسُلِ الذُّرِّيَّةِ، واصْطَفَى سُبْحَانَه مِنْ وَلَدِه أَنْبِيَاءَ، أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ، وعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ، لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِه عَهْدَ اللَّه إِلَيْهِمْ، فَجَهِلُوا حَقَّه واتَّخَذُوا الأَنْدَادَ مَعَه، واجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِه، واقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِه فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَه...»[٦٦].

هذا النص يوقفنا على كيفية بدء ظاهرة النبوة وإرسال الرسل، ولو عدنا إلى القرآن الكريم لوجدنا في آياته ما يشير إلى هذا المعنى.

يقول تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٦٧].

فالآية تبين السبب في تشريع أصل الدين وتكليف النوع الإنساني به، وسبب وقوع الاختلاف فيه ببيان: إن الإنسان - وهو نوع مفطور على الاجتماع، والتعاون- كان أول اجتماعه امة واحدة، ثم ظهر فيه بحسب الفطرة

الاختلاف في اقتناء المزايا الحيوية، فاستدعى ذلك وضع قوانين ترفع الاختلافات الطارئة، والمشاجرات في لوازم الحياة، فألبست القوانين الموضوعة لباس الدين، وشفعت بالتبشير والإنذار بالثواب والعقاب، وأصلحت بالعبادات المندوبة إليها ببعث النبيين، وإرسال المرسلين، ثم اختلفوا في معارف الدين أو أمور المبدأ والمعاد، فاختل بذلك أمر الوحدة الدينية، وظهرت الشعوب والأحزاب، وتبع ذلك الاختلاف في غيره، ولم يكن هذا الاختلاف الثاني إلا بغيا من الذين أوتوا الكتاب، وظلما وعتوا منهم بعدما تبين لهم أصوله ومعارفه، وتمت عليهم الحجة، فالاختلاف اختلافان: اختلاف في أمر الدين مستند إلى بغي الباغين دون فطرتهم وغريزتهم، واختلاف في أمر الدنيا وهو فطري وسبب لتشريع الدين، ثم هدى الله سبحانه المؤمنين إلى الحق المختلف فيه بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم[٦٨].

إن ظاهر الآية يدل على إن هذا النوع قد مر عليهم في حياتهم زمان كانوا على الاتحاد والاتفاق، وعلى السذاجة والبساطة لا اختلاف بينهم بالمشاجرة والمدافعة في أمور الحياة، ولا اختلاف في المذاهب والآراء، وما يدل على نفي الاختلاف قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[٦٩]، فقد رتب بعثة الأنبياء وحكم الكتاب في مورد الاختلاف على كونهم امة واحدة، فالاختلاف في أمور الحياة ناشئ بعد الاتحاد والوحدة، والدليل على نفي الاختلاف الثاني قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا

﴿جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا﴾[٧٠]، فالاختلاف في الدين إنما نشأ من قبل حملة الكتاب بعد إنزاله بغياً[٧١].

ثانيا
تذكيرهم بالمنسي من نعم الله[٧٢]

هنا يقصد بالنعمة، ما يمنّ الله بها على العباد في عالم الذر والميثاق، أو لعله يقصد جميع النعم المغفول عنها، والرأي الأول هو الظاهر؛ نظراً إلى ظاهر لفظ النسيان[٧٣].

إذ إن الإنسان ينطوي على نعم مادية ومعنوية جمة ولو استغلها كما ينبغي فانه سيشيد صروح سعادته وفلاحه، في حين سيفقد مثل هذه السعادة إذا ما نساها وتجاهل استعمالها واستغلالها[٧٤].

ثم إن هذا التذكير تارة يكون بالترغيب فيما عقده سبحانه مما أعده لأوليائه الأبرار، وتارة بالترهيب مما أعده لأعدائه الظالمين من عذاب النار، تارة بالتنفير عن خسائس هذه الدار، وبيان وجوه الاستهانة بها والاستحقار[٧٥].

ثالثاً
احتجاجهم بالتبليغ[٧٦]

إتمام الحجة على الناس من خلال الأدلة العقلية -إلى جانب المسائل الفطرية - وإرشادهم إلى الكمال في ظل التعاليم السماوية والأوامر والأحكام الشرعية[٧٧].

رابعاً
إثارتهم دفائن العقول[٧٨]

هذه القضية تعني بعث القوى العقلية والنفسية في الإنسان لانجاز عملية التقدم الصحيح والتغيير الايجابي في المجتمع عن طريق الحركة التاريخية المستبطنة للوعي الإيماني المستقيم[٧٩].

إذ إن الناس قد يستطيعون فهم أمور بصورة مبهمة ونصف واعية، لكن استكمال فهمها، والارتفاع إلى مستوى

الوعي التام بها يحتاج إلى مذكر يخرجهم من حالة الغفلة التي كانوا عليها، إذ يلاحظ إن القرآن في كثير من الموارد يسمي نفسه أو سائر الكتب السماوية بأسماء يكون طابعها الذكر والتذكرة ومن هذه الأسماء: الذكر[٨٠]، ذكرى[٨١]، تذكرة[٨٢].

وهذه التسمية ناشئة من تلك الملاحظة. فعملية التذكر تعني إن إنسانا يعرف شيئا ثم نسيه أو غفل عنه أي أصبحت معرفته له نصف واعية، ولا يؤثر العلم في انتخاب الإنسان إلا إذا التفت إليه.

وقد تنحط بعض المجتمعات - نتيجة لعوامل مختلفة - لتعم الغفلة كل حياتها، فيصاغ الجو الاجتماعي بشكل لا تكون فيه هذه المسائل مطروحة للبحث، والطريق للناس إلى معرفتها، ها هنا يبرز دور الأنبياء في إخراج الناس من هذه الغفلة إلى حالة الوعي[٨٣].

إن استعمال كلمة (الدفائن) في كلام أمير المؤمنين عليه السلام في نصه السابق إنما هو استعارة لطيفة، فإنه لما كانت جواهر العقول ونتائج الأفكار موجودة في النفوس بالقوة فأشبهت الدفائن، فحسن استعارة لفظ الدفينة لها، ولما كان الأنبياء هم الأصل في استخراج تلك الجواهر لإعداد النفوس لإظهارها حسنت إضافة إثارتها إليهم[٨٤].

إذ إن مهمة الأنبياء تكمن في أن يكشفوا للناس كنوز العلوم والمعارف الكامنة في عقولهم، فقد أودع الله هذه العقول كنوزا عظيمة قيمة، لو ظهرت واستغلت لشهدت العلوم والمعارف نهضة عظيمة وجبارة غير إن هذه الكنوز استترت اثر هذه الغفلة والتعاليم الفاسدة والذنوب والمعاصي والتلوث الأخلاقي، فبعث الأنبياء لإزالة هذه الحجب وإثارة تلك الكنوز المفعمة بالعلوم والمعارف[٨٥].

خامساً

يرونهم آيات المقدرة(٨٦)

أي جعل الطبيعة موضوعا للبحث والتأمل، فإن مراقبة الطبيعة لفهمها والتعامل معها واكتشافها تعزز قضية الإيمان، لأنها تقدم مزيدا من الأدلة التجريبية على ما أدركته الفطرة السليمة من قضايا الألوهية.

كذلك يعين التعامل مع الطبيعة بصورة مباشرة على انجاز عملية التقدم، بل شرط أساسي لانجاز التقدم المادي، وإذ تتحد قضية الإيمان في ذات الإنسان مع حركته التاريخية في الطبيعة والمجتمع فيكون تقدماً على هدى الإيمان، وأخلاقيات الروح والعقل، ويكون إيماناً يستجيب للحياة الدنيا ولا يقف منها موقف الرفض والعداء(٨٧).

وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى ست آيات من تلك الآيات، وبينها بقوله: «مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ ومِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ، ومَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ وآجَالٍ تُفْنِيهِمْ وأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ، وأَحْدَاثٍ تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ»(٨٨).

فالأنبياء يرشدونهم إلى التأمل في آيات القدرة الإلهية من سقف فوقهم موضوع مشتمل على بدائع الصنع وغرائب الحكم، ومهاد تحتهم موضوع فيه ينتشرون وعليه يتصرفون، ومعائش بها يكون قوام حياتهم الدنيا، وبلاغ لمدة بقائهم لما خلقوا له، وآجال مقدرة بها يكون فنائهم ورجوعهم إلى بارئهم، وأعظم بالأجل آية رادعة وتقديرا جاذبا إلى الله تعالى، ولذلك قال النبي عليه السلام: «أكثروا من ذكر هادم اللذات»(٨٩).

إلى غير ذلك من الأمراض التي تضعف قواهم وتهرمهم، والمصائب التي تتابعت عليهم، فإن كل هذه الآثار موارد احتجاج الأنبياء على الخلق ينبهونهم بصدورها عن العزيز

الجبار عز سلطانه على انه هو الملك المطلق الذي له الخلق والأمر، ليقروا في أذهانهم صورة ما نسوه من العهد المأخوذ عليهم في الفطرة الأصلية من انه سبحانه هو الواحد الحق المتفرد باستحقاق العبادة، والى ذلك أشار القرآن الكريم بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾[٩٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[٩١]؛ وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ * وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٩٢]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على احتجاج الخالق سبحانه على خلقه بألسنة رسله، وتراجمة وحيه، وجذبهم بهذه الألطاف إلى القرب من ساحل عزته، والوصول إلى حضرة قدسه سبحانه وتعالى عما يشركون: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[٩٣][٩٤].

سادساً

التبشير والإنذار

من مهام الأنبياء التي وردت الإشارة إليها في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام مهمة (التبشير والإنذار)، وهما من أهم مهام الأنبياء والرسل وضرورتها محسوسة جدا، لما لها من آثار في تحريك رغبات الناس ببيان ألوان العذاب الإلهي، وألوان النعم الإلهية. وقد ورد ذكر هاتين

الصفتين في أكثر من مقطع من كلامه الشريف إذ يقول عليه السلام في معرض حديثه عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله سلم: «بَلَّغَ عَنْ رَبِّه مُعْذِراً، ونَصَحَ لأُمَّتِه مُنْذِراً، ودَعَا إِلَى الْجَنَّةِ مُبَشِّراً، وخَوَّفَ مِنَ النَّارِ مُحَذِّراً»[٩٥].

وقوله عليه السلام: «أَمِينُ وَحْيِه، وخَاتَمُ رُسُلِه، وبَشِيرُ رَحْمَتِه، ونَذِيرُ نِقْمَتِه»[٩٦]، «شَهِيداً وبَشِيراً ونَذِيراً»[٩٧]، وقوله عليه السلام: «فَإِنَّ اللَّه جَعَلَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله عَلَماً لِلسَّاعَةِ، ومُبَشِّراً بِالْجَنَّةِ ومُنْذِراً بِالْعُقُوبَةِ»[٩٨]، وقوله عليه السلام: «وأَنْذَرَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ»[٩٩]، وقوله: «أَرْسَلَه لإِنْفَاذِ أَمْرِه، وإِنْهَاءِ عُذْرِه، وتَقْدِيمِ نُذُرِه»[١٠٠]، وقوله «إِنَّ اللَّه بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ»[١٠١].

إن إشارات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام المذكور آنفاً، وان كان قد عنى بها عليه السلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا أنها لا تختص به وحده، فان الإنذار والتبشير من ميزات جميع الأنبياء عليهم السلام، ومن أهم المهام المناطة بهم عليهم السلام وهذا ما نجده ماثلاً في آيات الذكر الحكيم[١٠٢].

ومع أن البشير والنذير وصفان متقارنان في الآيات السابقة، وفي كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، إلا أن بعض الآيات تذكر النبي بعنوان انه (نذير) فحسب، ولا نجد هذا الحال ينطبق على (البشير)، إذ لم يرد في آيات القرآن وفي كلام الإمام عليه السلام كما هو واضح أعلاه، ذكر (البشير) وحده إطلاقاً.

ولهذا سرٌّ يتعلق بالمجال النفسي والتربوي، فهو يدلّ على إن الإنذار أهم من التبشير في مجال التربية الإنسانية، وبعبارة أخرى فإنّ لعامل (الخوف) تأثيراً أكبر في نفس الإنسان من عامل (الأمل) لا سيما إذا أردنا إيجاد تغيير في حياته

ليكف عن سلوكه السابق بإرادته، ويختار ما يقترحه عليه المربي، فالإنذار مؤثر أكثر من التبشير. ولعل هذه الملاحظة هي وراء ذكر القرآن (النذير) وحده صفة للمبعوث من قبل الله، دون أن يفعل ذلك في (البشير)[١٠٣].

وهذا ما نلمسه بوضوح أيضا في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام كما هو بين في أعلاه، وذلك لان الإمام عليه السلام سائر على نهج القرآن في أدق تفصيلاته.

وقد خص عليه السلام الإنذار بالذكر واختارها على البشارة إذ المقصود في هذا المقام التوبيخ للعرب وترقيق قلوبهم المشتملة على الغلظة والفظاظة، ولا ريب إن الإنذار أقوى في الترقيق والردع، وذلك لان عامة الخلق إلا قليلا منهم أنظارهم مقصورة على زخارف الدنيا وشهواتها غافلون عن نعم الآخرة ولذاتها، فلا يرغبون عن النعم الحاضرة بما يبشرون بها من النعم الغائبة، ولا يقابلون اللذائذ الموجودة بلذائذ موعودة، لكون هذه عندهم نقدا وتلك نسيئة، وكان السبب الأقوى في الردع والالتفاف إلى الله إنما هو الإنذار والتخويف، فاختار كونه نذيرا على كونه بشيراً[١٠٤].

وهنا ينبغي ألا ننسى بأنّ إنذار النبي صلى الله عليه وآله وسلم يشمل كافة الكائنات الأمر الذي يدل على عالمية الدين الإسلامي وخلوده، لان العالمين مفهوم واسع يشمل كافة أفراد البشرية في كل عصر ومصر[١٠٥].

---

(١) عبد الكريم السعداوي: غريب نهج البلاغة ص ١٧ – ١٨.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/٢٤٣.

(٣) ينظر: نهج البلاغة ص٧.

(٤) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٣ / ١٥٣.

(٥) النويري: بلوغ الإرب: ١٨١/٣

(٦) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ٢٤/١.

(٧) ينظر: ابن سيدة: المخصص: ٣٢١/٣/٣. ابن منظور: لسان العرب: ٣٠٣/١٥.

(٨) الطوسي: الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد ص٢٤٤. العلامة الحلي: الباب الحادي عشر: ص٨٥. المقداد السيوري: النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر: ص٣٣٣.

(٩) ينظر: العاملي: بداية المعرفة ص١٩٥. مرتضى العسكري: المصطلحات الإسلامية: ص٦٣.

(١٠) سورة الشورى الآية ٥١.

(١١) وذلك في قوله عليه السلام: «ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَه مِنْ حَزْنِ الأَرْضِ وسَهْلِهَا، وعَذْبِهَا وسَبَخِهَا، تُرْبَةً سَنَّهَا بِالْمَاءِ حَتَّى خَلَصَتْ، ولَاطَهَا بِالْبَلَّةِ حَتَّى لَزَبَتْ، فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةً ذَاتَ أَحْنَاءٍ ووُصُولٍ وأَعْضَاءٍ، وفُصُولٍ أَجْمَدَهَا حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ، وأَصْلَدَهَا حَتَّى صَلْصَلَتْ لِوَقْتٍ مَعْدُودٍ وأَمَدٍ مَعْلُومٍ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِه، فَمَثُلَتْ إِنْسَاناً ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُهَا، وفِكَرٍ يُتَصَرِّفُ بِهَا وجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا، وأَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا ومَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ والْبَاطِلِ، والأَذْوَاقِ والْمَشَامِّ والأَلْوَانِ والأَجْنَاسِ، مَعْجُوناً بِطِينَةِ الأَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ، والأَشْبَاهِ الْمُؤْتَلِفَةِ والأَضْدَادِ الْمُتَعَادِيَةِ، والأَخْلَاطِ الْمُتَبَايِنَةِ مِنَ الْحَرِّ والْبَرْدِ، والْبَلَّةِ والْجُمُودِ..». الشريف الرضي: نهج البلاغة ص١٧ - ١٩.

(١٢) كما في قوله عليه السلام: «ولَوْ أَرَادَ اللَّه أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ، يَخْطَفُ الأَبْصَارَ ضِيَاؤُه ويَبْهَرُ الْعُقُولَ رُوَاؤُه، وطِيبٍ يَأْخُذُ الأَنْفَاسَ عَرْفُه لَفَعَلَ، ولَوْ فَعَلَ لَظَلَّتْ لَه الأَعْنَاقُ خَاضِعَةً، ولَخَفَّتِ الْبَلْوَى فِيه عَلَى الْمَلَائِكَةِ، ولَكِنَّ اللَّه سُبْحَانَه يَبْتَلِي خَلْقَه بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَه، تَمْيِيزاً بِالاخْتِبَارِ لَهُمْ ونَفْياً لِلاسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ، وإِبْعَاداً لِلْخُيَلَاءِ مِنْهُمْ». نهج البلاغة: ص ٣٨٥ – ٣٨٦.

(١٣) «واصْطَفَى سُبْحَانَه مِنْ وَلَدِه أَنْبِيَاءَ...». نهج البلاغة: ص ١٩.

(١٤) منها قوله عليه السلام: «واسْتَأْدَى اللَّه سُبْحَانَه الْمَلَائِكَةَ وَدِيعَتَه لَدَيْهِمْ، وعَهِدَ وَصِيَّتَه إِلَيْهِمْ فِي الإِذْعَانِ بِالسُّجُودِ لَه، والْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِه، فَقَالَ سُبْحَانَه ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، اعْتَرَتْه الْحَمِيَّةُ، وغَلَبَتْ عَلَيْه الشِّقْوَةُ، وتَعَزَّزَ بِخِلْقَةِ النَّارِ واسْتَوْهَنَ خَلْقَ الصَّلْصَالِ، فَأَعْطَاه اللَّه النَّظِرَةَ اسْتِحْقَاقاً لِلسُّخْطَةِ، واسْتِتْمَاماً لِلْبَلِيَّةِ وإِنْجَازاً لِلْعِدَةِ، فَقَالَ: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾. ثُمَّ أَسْكَنَ سُبْحَانَه آدَمَ دَاراً أَرْغَدَ فِيهَا عَيْشَه وآمَنَ فِيهَا مَحَلَّتَه وحَذَّرَه إِبْلِيسَ وعَدَاوَتَه، فَاغْتَرَّه عَدُوُّه نَفَاسَةً عَلَيْه بِدَارِ الْمُقَامِ، ومُرَافَقَةِ الأَبْرَارِ، فَبَاعَ الْيَقِينَ بِشَكِّه والْعَزِيمَةَ بِوَهْنِه، واسْتَبْدَلَ بِالْجَذَلِ وَجَلًا وبِالاغْتِرَارِ نَدَماً، ثُمَّ بَسَطَ اللَّه سُبْحَانَه لَه فِي تَوْبَتِه، ولَقَّاه كَلِمَةَ رَحْمَتِه ووَعَدَه الْمَرَدَّ إِلَى جَنَّتِه، وأَهْبَطَه إِلَى دَارِ الْبَلِيَّةِ وتَنَاسُلِ الذُّرِّيَّةِ» نهج البلاغة: ص ١٨ - ١٩. وأيضا قوله عليه السلام: «ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذَلِكَ مَلَائِكَتَه الْمُقَرَّبِينَ، لِيَمِيزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَقَالَ سُبْحَانَه وهُوَ الْعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ، ومَحْجُوبَاتِ الْغُيُوبِ: ﴿إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ، فَإِذا سَوَّيْتُه ونَفَخْتُ فِيه مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَه ساجِدِينَ، فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، اعْتَرَضَتْه الْحَمِيَّةُ فَافْتَخَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِه، وتَعَصَّبَ عَلَيْه لأَصْلِه». نهج البلاغة: ص ٣٨٥. وفي إشارة أخرى: «أَمَّا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدَمَ لأَصْلِه، وطَعَنَ عَلَيْه فِي خِلْقَتِه، فَقَالَ أَنَا نَارِيٌّ وأَنْتَ طِينِيٌّ» نهج البلاغة: ص ٣٩٨.

(١٥) قال في موضع: «وإِنْ شِئْتَ ثَنَّيْتُ بِمُوسَى كَلِيمِ اللَّه - صلى الله عليه وسلم، حَيْثُ يَقُولُ، ﴿رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، واللَّه مَا سَأَلَه إِلَّا خُبْزاً يَأْكُلُه، لأَنَّه كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ الأَرْضِ، ولَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنِه، لِهُزَالِه وتَشَذُّبِ لَحْمِه» نهج البلاغة: ص٢٩٧. وفي موضع ثان قال

عليه السلام: «ولَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ ومَعَه أَخُوه هَارُونُ عليه السلام، عَلَى فِرْعَوْنَ وعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ الصُّوفِ، وبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ فَشَرَطَا لَه إِنْ أَسْلَمَ، بَقَاءَ مُلْكِه ودَوَامَ عِزِّه، فَقَالَ أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ هَذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ، وبَقَاءَ الْمُلْكِ، وهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ والذُّلِّ، فَهَلَّا أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، إِعْظَاماً لِلذَّهَبِ وجَمْعِه، واحْتِقَاراً لِلصُّوفِ ولُبْسِه»، نهج البلاغة: ص٣٩٣. وفي قول ثالث: «الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيماً وأَرَاه مِنْ آيَاتِه عَظِيماً، بِلَا جَوَارِحَ ولَا أَدَوَاتٍ ولَا نُطْقٍ ولَا لَهَوَاتٍ» نهج البلاغة: ص٣٥١. وجاء في كلام له: «لَمْ يُوجِسْ مُوسَى عليه السلام خِيفَةً عَلَى نَفْسِه، بَلْ أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الْجُهَّالِ ودُوَلِ الضُّلَّالِ» نهج البلاغة: ص٣٣.

(١٦) وذلك في قوله عليه السلام: «وإِنْ شِئْتَ ثَلَّثْتُ بِدَاوُدَ صلى الله عليه وسلم، صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ، وقَارِئِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سَفَائِفَ الْخُوصِ بِيَدِه، ويَقُولُ لِجُلَسَائِه أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا، ويَأْكُلُ قُرْصَ الشَّعِيرِ مِنْ ثَمَنِهَا» نهج البلاغة: ص٢٩٧ – ٢٩٨. «إِنَّ دَاوُدَ عليه السلام قَامَ فِي مِثْلِ هَذِه السَّاعَةِ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ إِنَّهَا لَسَاعَةٌ لَا يَدْعُو فِيهَا عَبْدٌ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَه، إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَشَّاراً أَوْ عَرِيفاً أَوْ شُرْطِيّاً، أَوْ صَاحِبَ عَرْطَبَةٍ وهِيَ الطُّنْبُورُ أَوْ صَاحِبَ كَوْبَةٍ وهِيَ الطَّبْلُ، وقَدْ قِيلَ أَيْضاً إِنَّ الْعَرْطَبَةَ الطَّبْلُ، والْكَوْبَةَ الطُّنْبُورُ». نهج البلاغة: ص ٦٧٣.

(١٧) وذلك في قوله عليه السلام: «فَلَوْ أَنَّ أَحَداً يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُلَّماً أَوْ لِدَفْعِ الْمَوْتِ سَبِيلًا، لَكَانَ ذَلِكَ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ عليه السلام الَّذِي سُخِّرَ لَه مُلْكُ الْجِنِّ والإِنْسِ، مَعَ النُّبُوَّةِ وعَظِيمِ الزُّلْفَةِ، فَلَمَّا اسْتَوْفَى طُعْمَتَه واسْتَكْمَلَ مُدَّتَه، رَمَتْه قِسِيُّ الْفَنَاءِ بِنِبَالِ الْمَوْتِ، وأَصْبَحَتِ الدِّيَارُ مِنْه خَالِيَةً، والْمَسَاكِنُ مُعَطَّلَةً وورَثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ» نهج البلاغة: ص٣٥٢.

(١٨) يقول عليه السلام: «وإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ الْحَجَرَ، ويَلْبَسُ الْخَشِنَ ويَأْكُلُ الْجَشِبَ، وكَانَ إِدَامُه الْجُوعَ وسِرَاجُه

بِاللَّيْلِ الْقَمَرَ، وظِلَالُه فِي الشِّتَاءِ مَشَارِقَ الأَرْضِ ومَغَارِبَهَا، وفَاكِهَتُه ورَيْحَانُه مَا تُنْبِتُ الأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ، ولَمْ تَكُنْ لَه زَوْجَةٌ تَفْتِنُه ولَا وَلَدٌ يَحْزُنُه، ولَا مَالٌ يَلْفِتُه ولَا طَمَعٌ يُذِلُّه، دَابَّتُه رِجْلَاه وخَادِمُه يَدَاه» نهج البلاغة: ص ٢٩٨. وفي موضع ثاني: قال في مدح الزاهدين السائرين على نهج المسيح عليه السلام: «طُوبَى لِلزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا، الرَّاغِبِينَ فِي الآخِرَةِ، أُولَئِكَ قَوْمٌ اتَّخَذُوا الأَرْضَ بِسَاطاً، وتُرَابَهَا فِرَاشاً ومَاءَهَا طِيباً، والْقُرْآنَ شِعَاراً والدُّعَاءَ دِثَاراً، ثُمَّ قَرَضُوا الدُّنْيَا قَرْضاً عَلَى مِنْهَاجِ الْمَسِيحِ». نهج البلاغة: ص ٦٧٢ - ٦٧٣.

(١٩) جاء الحديث عن هؤلاء الأقوام ودعوة الإمام عليه السلام للاعتبار بحالهم في عدة مواضع منها: - «وإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً، أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ، أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ، أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ، وأَطْفَئُوا سُنَنَ الْمُرْسَلِينَ وأَحْيَوْا سُنَنَ الْجَبَّارِينَ، أَيْنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالْجُيُوشِ وهَزَمُوا بِالأُلُوفِ، وعَسْكَرُوا الْعَسَاكِرَ ومَدَّنُوا الْمَدَائِنَ» نهج البلاغة: ص٣٥٢. البلاغة: «رُوا بِمَا أَصَابَ الأُمَمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، مِنْ بَأْسِ اللَّه وصَوْلَاتِه ووَقَائِعِه ومُثُلَاتِه، واتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ ومَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ». نهج البلاغة: ص٣٩١ – ٣٩٢. وقد جاءت متفقة في سننها تاريخيا١٥٠، ذكره القرآن ينظر مثلاً: موسى نصار: الالقرآن: ن التاريخ في ضوء القرآن: ص٢٣١ -٢٥٥.

(٢٠) الشريف الرضي: نهج البلاغة: ص١٥٠، ١٨٧، ٢٤٤، ٤٠٧، ٥٠٢، ٥٩٦.

(٢١) نهج البلاغة: ص٩٢، ١٠٢، ١٠٧، ١٠٨، ١٨٥، ١٩٨، ٢١١، ٢٣٨، ٢٧٥، ٢٨٣، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٤، ٣٢٨، ٣٣٣، ٣٤٢، ٣٦١، ٣٧٦، ٣٨٠، ٤٠٢، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤١٧، ٤٢٢، ٤٣٣، ٤٣٩، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٧، ٤٨٦، ٥٢٧، ٥٢٧، ٥٧٦، ٦١٠.

(٢٢) م. ن: ص ١٩٣، ٣٢٩.

(٢٣) م.ن: ص ٥٦، ١٩٤، ٣٢٩، ٦٢٦.

(٢٤) م.ن: ص ١٠٨، ١٩٣، ١٩٨، ٢٢٥، ٦٢٦.

(٢٥) م.ن: ص ١٨٧.

(٢٦) إن صفة العبد هي أرقى وسام وأعلى مرتبة ينالها الإنسان في معراج تكامله المعنوي وقد منح القرآن هذا اللقب للرسول صلى الله عليه وآله وسلم في عدة مواضع من القرآن الكريم، ينظر مثلا سورة الجن آية ١٨ – ١٩ وأيضا الكهف آية ١، أما في نهج البلاغة: ص ١٠٦، ١٨٥، ٢٧٥، ٣٤٢، ٣٦١، ٣٧٦، ٣٨٠، ٤١٧، ٤٤٧.

(٢٧) نهج البلاغة: ص ٥٦، ١٠٨، ١٨٥، ١٩٨، ٣٢٩، ٣٦١.

(٢٨) م.ن: ص٣٦١.

(٢٩) م.ن: ص ٣٦١.

(٣٠) م.ن: ص ١٧٦، ٢٢٦.

(٣١) م.ن: ص ١٨٥.

(٣٢) م.ن: ص ٢٧٥.

(٣٣) م.ن: ص ٣٤٢، ٣٦١.

(٣٤) م.ن: ص ١٠٧، ٢٥١، ٣٢٩.

(٣٥) م.ن: ص ٣٤٢.

(٣٦) م.ن: ص ٢٩٨.

(٣٧) م.ن: ص ١٩٤، ٢٩٨.

(٣٨) م.ن: ص ٥٦، ١٠٨، ١٨٥، ١٩٨، ٣٢٩، ٣٦١.

(٣٩) م.ن: ص ١٠٨، ١٩٨.

(٤٠) م.ن: ص ١٠٧، ١٩٤، ٢٢٥، ٣٢٩، ١٩٧، ١٩٨.

(٤١) م.ن: ص ٢٠.

(٤٢) والتقيد بكونه: مرسلاً إشارة إلى أنه لا بد من كونه صاحب شريعة وكتاب وذلك لا يكون إلا في المرسلين، من دون الأنبياء فقط، أو الأنبياء في الحقيقة كانوا مروجّين لشرايع المرسلين. الخراساني: مفتاح السعادة ١/٣٧١– ٣٧٢.

(٤٣) م.ن: ص ٢٦٢.

(٤٤) م.ن: ص ١١٧.

(٤٥) ما عدا البراهمة والاشاعرة، أما البراهمة: فأنكروا النبوات ضرورة وحسنا، وأما الاشاعرة فأنكروا ضرورتها، ولكن لم ينكروا حسن البعثة. الطوسي: الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد: ص٢٤٥ - ٢٤٩. المقداد السيوري: النافع يوم الحشر: ص٣٣٣. العاملي: بداية المعرفة: ص١٩٧، ٢٠٣ - ٢٠٦.

(٤٦) - العاملي: بداية المعرفة: ص١٩٧. وعن فلسفة النبوة، السيد الرسالة: الصدر: المرسل، الرسول، الرسالة: ص٥٩ - ٦١.

(٤٧) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

(٤٨) لمزيد من التفاصيل ينظر: المقداد السيوري: النافع يوم الحشر: ص٣٣٣ - ٣٣٥. الشيرازي: المقدمة العقائدية: ص١٤- ١٥. حسن مكي العاملي: بداية المعرفة: ص ١٩٧ -٢٠١. طارق محمد علي: عقائدنا (الحلقة الأولى والثانية): ص٦٦ - ٧١.

(٤٩) إشارة الى قوله عليه السلام: «لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِه». نهج البلاغة: ص ٢٠.

(٥٠) سورة الروم: الآية ٣٠.

(٥١) التوحيد: ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل: ١٢ / ٣٨٠.

(٥٢) ينظر: الصدوق: التوحيد: ص٣٣٠. ابن سليمان الحلي: مختصر بصائر الدرجات: ص١٦٠. الفيض الكاشاني: التفسير الأصفى: ٩٥٩/٢، ١٣٢/٤. البحراني: البرهان في تفسير القرآن: ٣٤٤/٤. المجلسي: البحار: ٦٤/ ٤٤. نعمة الله الجزائري: نور البراهين: ٢١٤/٢.

(٥٣) الكليني: الكافي: ١٢/٢. الفيض الكاشاني: الوافي: ٥٨/٤. الحر العاملي: الفصول المهمة: ٤٢٣/١. المجلسي: مرآة العقول: ٥٦/٧. الحويزي: نور الثقلين: ٩٥/٢. - سورة: كنز الدقائق: ص٢٣٣.

(٥٤) سورة الأعراف الآية ١٧٢ - ١٧٣.

(٥٥) مغنية: في ظلال نهج البلاغة: ١ / ٥٨ — ٥٩.

(٥٦) ينظر: المشهدي، كنز الدقائق ٢/ ٣١٧. مغنية: الكاشف: ٣١٧/١. لمزيد من التفاصيل عن المراد بالآية ينظر المحمداوي: الإسلام قبل البعثة المحمدية: ص ٢١ — ٨٠.

(٥٧) مغنية: في ظلال نهج البلاغة: ١ / ٥٩.

(٥٨) نهج البلاغة: ص١٩ - ٢٠.

(٥٩) سورة الأعراف الآية ١٧٢.

(٦٠) الشيخ مكارم الشيرازي: التفسير الأمثل: ٥ / ١٩٦.

(٦١) سورة الروم الآية ٣٠.

(٦٢) ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل: ٥ / ١٩٧ – ١٩٨ .

(٦٣) سورة يس الآية ٦٠.

(٦٤) ابن ميثم: شرح نهج البلاغة: ١ / ٣٤٩ – ٣٥٠ .

(٦٥) شمس الدين: حركة التاريخ عند الإمام علي عليه السلام: ص ٧٢ .

(٦٦) نهج البلاغة : ص١٩ -٢٠ .

(٦٧) سورة البقرة الآية ٢١٣.

(٦٨) الطباطبائي: الميزا٢١٣. تفسير القران: ٢ / ١٠٤ .

(٦٩) سورة البقرة الآية ٢١٣ .

(٧٠) سورة البقرة الآية ٢١٣.

(٧١) ينظر: الطباطبائي: الميزان: ٢ / ١١٦ – ١١٧ .

(٧٢) إشارة الى قوله عليه السلام: **«ويُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِه»**. نهج البلاغة: ص٢٠.

(٧٣) ينظر: حبيب الله الخوئي: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ٢/ ١٢١.

(٧٤) ينظر: ناصر مكارم الشيرازي: نفحات الولاية: ١ / ١٤١ .

(٧٥) ابن ميثم: شرح نهج البلاغة: ١ /٣٥٠. الآملي: تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم: ٢/٣٠٦.

(٧٦) إشارة إلى قوله عليه السلام: «وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ». نهج البلاغة: ص٢٠.

(٧٧) ناصر مكارم الشيرازي: نفحات الولاية: ١ / ١٤٢.

(٧٨) إشارة إلى قوله عليه السلام: «ويُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ». نهج البلاغة: ص٢٠.

(٧٩) شمس الدين: حركة التاريخ: ص٨٠.

(٨٠) كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ سورة الحجر/ الآية ٩.

(٨١) كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ . سورة الأنعام/ آية ٩٠.

(٨٢) كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ سورة المدثر الآية ٥٤.

(٨٣) محمد تقي مصباح: النبوة في القرآن: ص٢٩.

(٨٤) ينظر: ابن ميثم: شرح نهج البلاغة: ١ / ٣٥٠ – ٣٥١. الآملي: تفسير الشيرازي: أعظم: ٣٠٦/٢.

(٨٥) ناصر مكارم الشيرازي: نفحات الولاية: ١ / ١٤٢.

(٨٦) إشارة إلى قوله عليه السلام: «ويُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ». نهج البلاغة: ص ٢٠

(٨٧) شمس الدين: حركة التاريخ عند الإمام علي عليه السلام: ص ٨٠.

(٨٨) نهج البلاغة: ص٢٠.

(٨٩) أبو طالب المكي: قوت القلوب: ٤٢/٢؛ السلام: لصدوق: عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٧٥/٢. ابن سلامة: مسند الشهاب: ٣٩١/١. ابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٤/ ٤٢. ابن قدامة: المغني: ٢/ ٣٠٢. ابن أبي جمهور الأحسائي٣٢. الى اللئالي: ١/ ٢٤٧.

(٩٠) سورة الأنبياء الآية ٣٢ .

(٩١) سورة البقرة الآية ١٦٤.

(٩٢) سورة الذاريات الآيات ٤٧ - ٤٩ .

(٩٣) سورة إبراهيم الآية ٣٤.

(٩٤) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ١ / ٣٥١ – ٣٥٢ .

(٩٥) م.ن: ص٢١٠ .

(٩٦) م.ن: ص٣٢٩.

(٩٧) م.ن: ص١٩٣ – ١٩٤.

(٩٨) م.ن: ص٣٠٠.

(٩٩) م.ن: ص١٣٧.

(١٠٠) م.ن: ص١١٧.

(١٠١) م.ن: ص٥٦ .

(١٠٢) يقول الله تعالى: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ سورة البقرة/ ٢١٣، وقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ سورة سبأ ٢٨، وقوله: ﴿ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ سورة ص الآية٧٠، وقوله: ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ سورة فاطر الآية٢٤ .

(١٠٣) ينظر: محمد تقي مصباح: النبوة في القرآن: ص ١٦٦.

(١٠٤) حبيب الله الخوئي: منهاج البراعة: ٣ / ٣١٥.

(١٠٥) ناصر مكارم الشيرازي: نفحات الولاية: ٢ / ٧٢.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الآملي: السيد حيدر بن علي ٧٢٠ -٧٨٢ هـ/ المحيط الأعظم والبحر الخضم في تفسير تأويل كتاب الله العزيز المحكم، حققه وقدم له معلق عليه: السيد محسن الموسوي التبريزي، ط٤، قم، ١٤٢٨هـ.
- البحراني: السيد هاشم التوبلي الموسوي ت ١١٠٧هـ/ البرهان في تفسير القرآن، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، قم، ب.ت.
- الجزائري: السيد نعمة الله الموسوي ت ١١١٢ هـ/ نور البراهين في أخبار السادة الطاهرين، تحقيق السيد الرجائي، ط١، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٧ هـ.
- ابن أبي جمهور الاحسائي ت نحو ٨٨٠هـ/ عوالي اللئالي، تحقيق المرعشي، العراقي، ط١، قم، ١٩٨٣.
- حبيب الله الخوئي: الميرزا الهاشمي ت ١٣٢٤ هـ/ منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، تحقيق علي عاشور، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٨.
- الحر العاملي: محمد بن الحسن ١٠٣٣ - ١١٠٤ هـ/ الفصول المهمة في أصول الأئمة، تحقيق محمد القائيني، ط١، مؤسسة معارف الإمام الرضا عليه السلام، قم، ١٤١٨هـ.
- العلامة الحلي: أبي منصور الحسن بن يوسف بن المطهر (٦٤٨ - ٧٢٦هـ)/ الباب الحادي عشر، انتشارات تمدن إسلامي، قم، ١٣٨٢ش.
- الحويزي: عبد علي بن جمعة العروسي ت ١١١٢هـ/ نور الثقلين، تحقيق هاشم المحلاتي، ط١، قم، ١٤١٢ هـ.

- الخراساني: محمد تقي النقوي القايني/ مفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة، مكتبة المصطفوي، طهران، ب.ت.

- الزمخشري: محمود بن عمر ت ٥٣٨هـ/ الفائق في غريب الحديث، ط١، بيروت، ١٤١٧هـ.

- ابن سلامة: أبو عبد الله محمد القضاعي ت٤٥٤ هـ/ مسند الشهاب، حققه وخرج أحاديثه: حمدي عبد المجيد السلفي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥.

- ابن سليمان الحلي: الشيخ حسن (ق٩هـ)/ مختصر بصائر الدرجات، ط١، النجف، ١٩٥٠.

- ابن سيدة: أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي ت٤٥٨ هـ/ المخصص، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ب.ت.

- الشريف الرضي: أبو الحسن محمد بن الحسين (٣٥٩ -٤٠٦هـ)/ نهج البلاغة، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية: صبحي الصالح، ط٦، دار الأسوة، طهران، ١٤٢٩هـ.

- شمس الدين: محمد المهدي/ حركة التاريخ عند الإمام علي عليه السلام، ط٤، المؤسسة الدولية، بيروت، ١٩٩٧م.

- الشيرازي: السيد صادق الحسيني/ المقدمة العقائدية، ط١، دار صادق، كربلاء المقدسة، ٢٠٠٤م.

- الصدر: محمد باقر ت١٩٨٠م/ الرسول - المرسل - الرسالة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ٢٠٠٣.

- الصدوق: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسن بن بابويه القمي ت ٣٨١هـ/ التوحيد، تحقيق هاشم الحسيني، ط١، جماعة المدرسين، ط١، ١٣٨٧ هـ.

- الصدوق: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسن بن بابويه القمي/ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ط١، مط شريعت، المكتبة الحيدرية، قم، ١٤٢٥هـ

- أبو طالب المكي: محمد بن علي الحارثي ت ٣٨٦ هـ/ قوت القلوب في معاملة المحبوب، تحقيق سعيد نسيب مكارم، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م.

- الطباطبائي: السيد محمد حسين ت ١٤٠٢هـ/ الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ب.ت.

- الطبرسي: أبو علي الفضل بن الحسن ت٥٤٨ هـ/ مجمع البيان في تفسير القرآن، حققه وعلق عليه: لجنة من العلماء، ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩٥.

- الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسن (٣٨٥ ـ ٤٦٠هـ)/ الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد، ط٢، دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٦.

- العاملي: حسن مكي/ بداية المعرفة، ط ٢، ذوي القربى، قم، ١٤٢٧هـ.

- ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله الشافعي (٤٩٩ - ٥٧١هـ)/ تاريخ مدينة دمشق، تحقيق علي شيري، ب.ط، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.

- العسكري: مرتضى/ المصطلحات الإسلامية، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، ط١، بيروت، ٢٠١٠.

- علي: طارق محمد/ عقائدنا، ب. ط، ب. مكا، ١٤١٨هـ.

- الفيض الكاشاني: محمد محسن (١٠٠٧– ١٠٩١هـ)/ الأصفى في تفسير الأصفى، تحقيق محمد درايتي ومحمد

نعمتي، ط١، مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية، قم، ١٤١٨هـ.

- الوافي، بلا محقق، مكتبة أمير المؤمنين عليه السلام، ط١، أصفهان، ١٤٠٦هـ.

- ابن قدامه: موفق الدين أبي محمد عبد الله بن احمد ت ٦٢٠هـ/ المغني، ب.محق، دار الكتاب العربي، ب.ت.

- الكليني: أبي جعفر محمد بن يعقوب ت ٣٢٩ هـ/ الكافي، تح علي اكبر غفاري، ط٣، دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٨ هـ.

- المجلسي: محمد باقر ت١١١١هـ/ بحار الأنوار، ط٢، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣.

- مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، ط٢، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٤٠٤ هـ.

- المحمداوي: علي صالح رسن/ الإسلام قبل البعثة المحمدية رؤية قرآنية، ط ١، طبع دار ومكتبة البصائر بيروت ٢٠١٣ م.

- المشهدي: الميرزا محمد القمي ت ١١٢٥هـ/ تفسير كنز الدقائق، تحقيق آقا مجتبى العراقي، ط١، قم، ١٤٠٧هـ.

- مصباح: محمد تقي / النبوة في القرآن، نقله إلى العربية: محمد الخاقاني، ط١، مطبعة أفق، قم، ١٤٢٦هـ.

- أبو المعالي: محمد بن إسحاق صدر الدين القونوي(٦٠٧ -٦٧٣هـ)/ الفكوك في أسرار مستندات حكم الفصوص، ط١، مطبعة فارابي، انتشارات مولى، ١٤١٣هـ.

- مغنية: محمد جواد/ التفسير الكاشف، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١م.

- مغنية: محمد جواد / في ظلال نهج البلاغة، محاولة لفهم جديد، ط٢، مطبعة ستار، قم، ١٤٢٨هـ.

- المقداد السيوري ت٨٢٦ هـ/ النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر، تحقيق مشتاق الزيدي، ط١، النجف الأشرف، ٢٠١٠.

- ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ت ٧١١هـ/١٣١١م/ لسان العرب، ط١، دار أحياء التراث العربي، أدب الحوزة، ب. ت.

- ابن ميثم: كمال الدين بن علي البحراني ت٦٧٩هـ/ شرح نهج البلاغة، ط١، مطبعة وفا، قم، ١٤٢٧هـ.

- ناصر مكارم الشيرازي/ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٥م.

- ناصر مكارم الشيرازي/ نفحات الولاية (شرح نهج البلاغة شرح عصري جامع لنهج البلاغة)، بمساعدة مجموعة من الفضلاء، إعداد: عبد الرحيم الحمراني، ط٢، دار جواد الأئمة عليهم السلام، بيروت، ٢٠٠٩م.

- نصار: موسى / الطغاة وسنن التاريخ في ضوء القران، مشاهد الصراع، مجلة المصباح، العدد الثامن، ٢٠١٣م، ص٢٣١ – ٢٥٥.

تربية الطفل

في فكر الإمام علي عليه السلام

م. م. عقيل رشيد عبد الشهيد الأسدي

جامعة الكوفة/ كلية التربية الأساسية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد وعلى آل بيته أنوار الظُلَم وينابيع الحِكَم. وبعد: تضطلع الأسرة بدور أساسي في التربية، لأن الإنسان يقضي شطراً طويلاً من حياته بين أحضانها وبهذا تتشكل روحه وشخصيته من خلالها، وإنَّ السنوات الخمس الأولى التي يقضيها الطفل في الأسرة هي عماد تكوين شخصيته، وما يكون عليه الفرد في المستقبل هو انعكاس لتلك المرحلة. فإذا كانت الأسرة صالحة فإنها ستنتج أولاداً صالحين.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد وعلى آل بيته أنوار الظُلَم وينابيع الحِكَم.

وبعد: تضطلع الأسرة بدور أساسي في التربية، لأن الإنسان يقضي شطراً طويلاً من حياته بين أحضانها وبهذا تتشكل روحه وشخصيته من خلالها، وإنَّ السنوات الخمس الأولى التي يقضيها الطفل في الأسرة هي عماد تكوين شخصيته، وما يكون عليه الفرد في المستقبل هو انعكاس لتلك المرحلة. فإذا كانت الأسرة صالحة فإنها ستنتج أولاداً صالحين.

فثقافة الأسرة وتدينها وتماسكها الاجتماعي من أهم عناصر ربط الفرد بالمجتمع ومنعه من الانحراف، وتنشئته نشأة سليمة قوامها الخلق الرفيع والحب والتسامح، وتعمل على غرس بذور السلطة الداخلية التي يطلق عليها (الضمير) في نفس الطفل الذي يأخذ في النمو ويقوى بالتدريج مع نمو الطفل ونضجه عِبر مراحل نموه المتعاقبة، أما إذا فسدت الأسرة فإنّ الأبناء سيكونون كذلك.

إن الأسرة ذات قوة ضاغطة ونظام للضبط، وتعتمد فاعليتها وتأثيرها على أفرادها عن طريق ما تشبعه من حاجات ودوافع نفسية ومادية، فإذا توافر الجو الأسري الملائم الذي يشبع حاجات الطفل البيولوجية والنفسية أدى ذلك إلى تحقيق نموه السليم وتوافقه الشخصي والاجتماعي، وعلى العكس إذا ساد جو أُسري غير سليم مليء بمواقف الكبت والحرمان والحقد والبغضاء فإنّ ذلك ينعكس على الطفل في جميع أنشطته في كل مراحل حياته، وفي كل المجتمعات بصرف النظر عن مستوى تعقيدها وتطورها.

إنَّ النظرة المستقبلية للطفولة تستدعي العناية بدراسة طرائق التنشئة الأسرية وأساليبها للأطفال الذين هم عماد المستقبل، وأساس تنمية المجتمع وتطوره ولكي نهيئ للأطفال اليوم مكاناً في المستقبل ونعدّهم بشكل صحيح وبما ينسجم مع متطلبات العصر الحديث يجب علينا أن نراعي في عملية تنشئتهم وتربيتهم أسالياً وأنماطاً اجتماعية مدروسة وعلمية تلبي احتياجات الطفل الضرورية كافة.

وتراث أهل البيت عليهم السلام ثر في أساليب التربية السليمة، وأخص بالذكر الإمام علي عليه السلام فكانت أفعاله وأقواله معيناً لا ينضب في هذا المجال؛ لذا جاء هذا البحث إسهامة متواضعة لتسليط الضوء على دور الأسرة في التربية الصالحة، وضبط سلوك الفرد، وتحقيق توافقه النفسي والعقلي، بما أشار إليه الإمام عليه السلام سابقاً فيه العلم الحديث وما جاءت به الدراسات النفسية والاجتماعية في عصرنا الحالي.

اشتمل البحث على مبحثين تسبقهما مقدمة وتليهما خاتمة. تناولت في المبحث الأول: تعريف الأسرة وبيان أهميتها، وأهمية مرحلة الطفولة في الأسرة، ووظيفة الأسرة تجاه أبنائها، أما المبحث الثاني فقد تناولت فيه تربية الطفل في فكر الإمام علي عليه السلام، من خلال عرض مجموعة من الأحاديث الشريفة في هذا المجال وتحليلها بما ينسجم مع عصرنا الحالي مستفيداً من الدراسات النفسية والاجتماعية ذات العلاقة، ثم انتهى البحث بخاتمة مع مجموعة من الاستنتاجات والتوصيات، وثَبْت بالمصادر.

المبحث الأول

التعريف بالأسرة وأهميتها ووظيفتها

للأسرة دور مهم وريادي في بناء المجتمع الصالح من خلال إعداد الأبناء إعداداً

سليماً ينسجم مع الرؤى والتطلعات التربوية الهادفة، وسنبيّن في السطور القادمة هذا الدور بشيء من الإيجاز.

أولا: الأسرة

الأسرة هي أحدى الأنساق الاجتماعية الأساسية في البناء الاجتماعي تقوم على نظام الزواج، وتنقل معايير المجتمع إلى أعضائها الصغار وتلقّن أفرادها الاتجاهات والقيم المرغوب فيها، وهي الأساس الذي تقوم عليه الأنساق الأخرى، إذ تعتمد معظم الأنساق في استمرارها وأدائها على ما يتعلمه الفرد داخل نطاق الأسرة من نماذج السلوك المرتبط بالأدوار الاجتماعية والأنماط السلوكية الأخرى التي يحتذى بها خارج الأسرة[١].

والأسرة هي أساس التنشئة الاجتماعية ومصدر الاستقامة أو الانحراف في فطرة الطفل وعقيدته التي هي مبعث ثقافته، وفي مراحل النمو يتعرض الطفل لنماذج سلوكية مباشرة في أسرته، أو للمحيطين به، أو لنماذج سلوكية رمزية من وسائل الإعلام والقصص والحكايات التي تقدم في الأسرة من كبارها وصغارها معاً. ففي هذا النوع من التعليم يلاحظ الطفل الشخص النموذج، ويصوغ ما يشاهده ويختزنه وينتظر الوقت المناسب لكي ينتج السلوك نفسه.

فالأسرة هي الوعاء الثقافي الذي تتبلور داخله شخصية الطفل تشكيلاً فردياً واجتماعياً ودينياً وهي بهذا تمارس عمليات تربوية وتثقيفية هادفة من أجل تحقيق نمو الفرد نمواً سليماً[٢].

وقد تعرضت الأسرة للتغير في وظائفها نتيجة للتحضر والتصنيع وما رافقها من أثار مارست دورها بصورة مباشرة وغير مباشرة على عملية التنشئة الاجتماعية التي تقوم بها الأسرة، وأبلغ دليل على ذلك كان الاتجاه العام قديماً

يؤكد معاملة الأطفال معاملة البالغين أي بالحزم، بل بالقسوة أحياناً، على حين يؤكد علماء التربية والنفس والاجتماع أهمية مصادقة الأطفال ومنحهم الحب والعطف والحنان، كذلك لم يُنصح بالتفرقة على أساس الجنس أو السن، إلا أنَّ هذا لا يعني أن المجتمع بأسره يلتزم هذه الأيدلوجية الجديدة في التربية والتنشئة لأن الاختلاف بين فئات المجتمع اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً ينعكس على مدى الإبقاء على الأساليب القديمة أو الأخذ بالمناهج الجديدة[٣].

ثانياً: وظيفة الأسرة تجاه أبنائها

يولد الطفل ضعيفاً عاجزاً عن تأمين المتطلبات الضرورية لحياته، ومنذ اللحظات الأولى تظهر حاجته الأساسية إلى الغذاء والأمان العاطفي اللذين من دونهما لا يمكن للطفل أن ينمو ويبقى في الحياة؛ أما حاجاته الأخرى فتستمر في الظهور خلال مراحل نموه من الطفولة إلى الرشد. وكل حاجاته تُعد ضرورية لاكتمال نموه وتفتح قدراته وملكاته وتحوله من كائن بايولوجي إلى إنسان ناضج وقادر على التكيف مع وسطه.

ولعلّ أهم حاجاته في مرحلة الطفولة الأولى هي الغذاء والشراب والرعاية والطمأنينة والحب والعاطفة، وبإشباع هذه الحاجات يتحقق للكائن الإنساني النمو المتوازن؛ إذ يتمكّن من الحفاظ على بقائه وتكيفه مع ظروف الحياة بينما عدم إشباعها أو إشباع بعضها ينتج عنه توترات عضوية أو نفسية أو اجتماعية أو ذهنية أو كلها جميعاً مما يعيق نموه وتحقيق تكيفه[٤].

ويمكن القول أيضاً إنّ الأسرة بوظيفتها الاقتصادية تتمكن من إشباع حاجات الفرد من الغذاء والكساء والشراب لكنها لا تزوده بذلك فحسب، بل تعلّمه كيف يحقق إشباعاته على وفق آداب وقواعد سلوكية معينة ومقبولة[٥].

وإنّها بوظيفتها النفسية العاطفية تشبع حاجاته إلى الحب والحنان والاهتمام وذلك يضمن للفرد توازنه الانفعالي والعاطفي[٦].

وبناءً على ما تقدم يمكن عرض وظيفة الأسرة في محورين أساسيين هما: الوظيفة الاقتصادية في الأسرة وأثرها في إشباع الحاجات الأساسية لأعضائها. والوظيفة النفسية العاطفية في الأسرة وأثرها في إشباع الحاجات الاجتماعية لأعضائها.

١. وظيفة الأسرة الاقتصادية وأثرها في إشباع الحاجات الأساسية لأعضائها

الأسرة تشبع الحاجات الأساسية من طعام وشراب وملبس ومسكن، وكل هذه الحاجات لا يمكن للشخص الاستغناء عنها أو تعويضها بوصفها تحقق للشخص استقراره النفسي والاجتماعي[٧]؛ ولا شك أي خلل في هذه الوظيفة سينعكس على وحدة الأسرة وتضامنها، فالأزمة الاقتصادية تؤثر في متانة العلاقات والروابط الاجتماعية داخل الأسرة، وتبين أن قدرة الأسرة على التوافق من دون حدوث تأثيرات قوية في العلاقات الاجتماعية يعتمد على درجة ارتباط أفراد الأسرة بمستوى معين للمعيشة، فإذا تأثرت المستويات المادية بصورة كبيرة تفكّكت العلاقات الاجتماعية[٨].

وضعف حجم الإشباع النفسي والعاطفي الذي يحتاجه كل فرد في الأسرة ليحقق استقرار سلوكه أو علاقاته مع الآخرين المحيطين به[٩].

فضلاً عن أن الأزمة الاقتصادية تضعف الشعور بالأمن والطمأنينة وتسبب القلق والخوف والإحباط وذلك لفشل المعيل وعجزه عن إشباع الحاجات الأساسية له وللآخرين الذين يعولهم، وبتواتر الظروف ذاتها تزداد مشاعر

الضيق للمعيل وتضعف علاقاته بالآخرين وتضعف مكانته الاجتماعية أيضاً وقد يحس أنّه عبء على الآخرين وغير مرغوب فيه[١٠].

مما يفقده احترامه لنفسه واحترام الآخرين له ويفقده أيضاً هيبته وسطوته الاجتماعية على زوجته وأبنائه فتكثر الصراعات بين أعضاء الأسرة أو يكثر توجيه اللوم والتأنيب إلى الأب بوصفه المتسبب عن ذلك.

وقد يتخذ الأب مواقف معينة، منها عدم الاهتمام واللامبالاة والهروب من المسؤوليات الملقاة على عاتقه، ومن ثمّ الانسحاب من الحياة العائلية أو يتجه نحو الاستسلام والقبول بالواقع[١١].

٢. وظيفة الأسرة النفسية العاطفية وأثرها في إشباع الحاجات الاجتماعية لأعضائها

تتضمن الوظيفة النفسية العاطفية حالة من التفاعل العميق والتعاطف بين الأبوين من جهة، وبينهم وبين الأبناء من جهة اخرى. ويلاحظ أن القرآن الكريم قدّم المودّة على الرحمة من قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[١٢]، وذلك لأهمية المشاعر العاطفية في تعميق الشعور بالأمن والطمأنينة، فالأسرة المتماسكة هي المنبع الرئيس للإشباعات العاطفية لجميع أفراد الأسرة[١٣].

وترتبط الوظيفة النفسية العاطفية بإشباع الحاجات الاجتماعية مثل الحاجة إلى الحب والانتماء والحاجة إلى الاحترام والتقدير الاجتماعي والحاجة إلى الأمن.

ولكي يشبع الإنسان حاجته إلى الحب يتطلب عليه أن يعيش في ضمن علاقات اجتماعية طيبة مع غيره.

فمشاعر الحب المتبادل تقوي لدى الفرد الشعور بالأمن والطمأنينة وتعطيه نوعاً من الاستقرار الانفعالي فيشعر إن هناك من يخاف ويعطف عليه فتقوى فيه مشاعر الأمن والأمان، بينما الفرد

الـذي لا يشـبع هـذه الحاجـة يكـون في حالة خـواء عـاطفي تبعـده عـن التفاعـل الإيجابي مع الآخرين.

أمـا الحاجـة إلى الانتمـاء إلى جماعـة معينة فهي شعور الفرد بوصفه عضـواً في هـذه الجماعـة تقـدره وتشـعره بقيمتـه ومكانتـه فيحظـى بالتقـدير الاجتمـاعي الـذي أساسـه الشـعور بالانتمـاء، ومـن دون التقدير الاجتماعي الذي يناله الفرد فانه قد يبحث عن مخرج للتوتر الانفعالي الـذي يعانيـه وقـد يجـد ذلـك بأسـاليب السلوك المنحرف[١٤].

لذا يمكن القول إنّ الحرمان من إشباع الحاجـات يـؤدي بـالفرد إلى الشـعور بالنقص أو إلى العقد النفسية[١٥].

أو قد يدفع به إلى التمرد والعصيان والانفلات من الضـوابط الاجتماعية أو عـدم أدائـه للواجبـات والالتزامـات الاجتماعية[١٦].

والحق أنّ رعاية الأم وعطفها وحبها لطفلـها لـه أهميـة كـبيرة في نجـاح عمليـة التنشـئة الاجتماعيـة، وتـبين أن أخطـر نقص في تنشئة الطفل هـو فقـدان عطف الأم ورعايتهـا، وتـبين أيضـاً أنّ شخصـية الطفل الـذي يحظى برعاية الأم وعطفها هـي أكثـر اتزانـاً نفسـياً وعاطفيـاً مـن شخصية الطفل الذي فقد أمّه وحرم من حبها في عمر مبكر[١٧].

ويمكـن القـول إنّ أهـم مصـدرين يسـتمد منهـا الطفـل إشـباعاته النفسـية والعاطفية هما الأم والأب.

في ضـوء مـا تقـدم يمكـن القـول إنّ الإشـباع النفسـي والعـاطفي لـه أهميـة مميـزة في بنـاء شخصـية سـوية ومتزنـة، وذلك لما تنطوي عليه تلك الإشباعات مـن دفـع الفـرد إلى الالتـزام بالضـوابط الاجتماعية وتقوية روابطه الاجتماعية مما يبعده عن الانحراف.

ثالثاً: أهمية مرحلة الطفولة في الأسرة

الطفل هو تركيب أو بناء عضوي بيولوجي واجتماعي يتّصف بكونه شديد الحساسية سريع التأثير بمن حوله كثير التقليد والاقتباس.

وتدلّ كثير من الأبحاث الاجتماعية والنفسية على أن الأشخاص الذين يعانون من الاضطرابات هم الذين تعرضوا في طفولتهم إلى كثير من الصعوبات والمشكلات والصدمات التي تركت آثاراً عميقة في شخصياتهم[١٨].

لذلك تعد مرحلة الطفولة من أهم مراحل حياة الإنسان ومن أكثرها أهمية ؛ لكونها مرحلة تكوينية تتشكل فيها جميع خصائص شخصية الفرد وأبعاد سلوكه ودوافعهِ التي تلازمهُ في حياتهِ المستقبلية[١٩].

وقد أكد ذلك الأخصائي النفسي صالح عبد الكريم بقوله: «من خلال مشاهداتي الإكلينيكية أن الأبناء الأسوياء يقف ورائهم آباء وأمهات أسوياء يجيدون فنون التربية السليمة، وأن الأبناء غير الأسوياء يقف وراءهم آباء وأمهات غير أسوياء لا يجيدون فنون التربية، ولاحظت أن صلاح الآباء ينفع في صلاح الأبناء»[٢٠].

لذلك أصبحت دراسة الطفولة موضع عناية الآباء والمربين وعلماء النفس ورجال الطب وغيرهم وأصبحت العناية بنمو الطفل نمواً صحيحاً سالماً والعمل على رعاية هذا النمو وحفظهِ من كل ما يعوق سيرهُ الطبيعي أو يقف حجر عثرة في طريق وصولهِ إلى أقصى طاقاتهِ وعطاءاتهِ مؤشراً حضارياً للأمة التي تسعى إلى خلق المواطن الصالح القادر على تحمل أعباء الحياة وبناء مجتمع قوي يمتلك كل عناصر البناء والقدرة على الإسهام في بناء الحضارة الإنسانية وأخذ مكانته بين المجتمعات المتقدمة[٢١].

لذا أصبح من الضروري إعداد الطفل للتعامل مع التحديات التي يفرضها عليه القرن الحالي، الذي يتصف بكونهِ عصر المعلومات المتدفقة والمعرفة المتزايدة ومجتمع العلم والتكنولوجيا المتطورة والتفكير العلمي والفكر الخلاق وتمكيناً للطفل من أثبات وجوده والمحافظة على كيانهِ وهويتهِ القومية في عالمنا المعاصر[٢٢].

إنّ النهوض بواقع الطفل يحتم علينا تكثيف الجهود تجاه توعية الأسرة العربية والتشديد على القيم الإيجابية التي تعتنقها، وتخليصها من القيم التي تؤثر في تطورها، وتحصينها من أيّ قيم خارجية مستوردة تستنزف قدراتها وإمكانياتها، التي تتنافى مع قيمنا الإيجابية وطموحنا نحو التقدم[٢٣]، وهذا يتطلب التعرف على أبرز التحديات التي تواجه الأسرة وثقافة الطفل في عالمها ومجتمعها، مما يؤدي إلى التحرك نحو التجديد والتطوير وتحديد الأولويات التي ينبغي أن تقود إلى هذا المسعى، والسبل التي يمكن أن تحقق هذا التغير المنشود لإعداد أبنائنا لمواجهة قرن قادم تؤذن بوادرهُ بتغيرات عميقة واسعة ومتلاحقة تشمل الجوانب العلمية والتكنولوجية والثقافية من حياة مجتمعنا[٢٤].

فحياة الطفولة وكيفية تربيتها والتعامل معها يعد غاية كل مجتمع، فالتغيرات السريعة التي تشهدها المجتمعات المعاصرة يجعل العناية بثقافة الطفل هدفاً استراتيجيا وتنموياً، والعناية بالطفولة بصورة عامة وبثقافة الطفولة بصورة خاصة لا يعني فقط إحياء الماضي واستشراف المستقبل، بل لابد أيضاً من أن ينبع من الحاضر ويتعامل معهُ ومن ثم تظهر أهمية وضع تصور متكامل لخطة قومية تربوية وتنموية للوصول إلى أهداف تربوية مشتركة من شأنها أن ترتقي بواقع الطفل وتخطّط لمستقبله وتحي تراثهِ.

إلا أنّ هناك بعض المعوّقات التي تؤثر في إستراتيجية ومنهجية التعامل مع الأطفال وثقافتهم ويدخل في ذلك إشكالية علاقة الراشد بالطفل (إشكالية المزاوجة بين الأصالة والمعاصرة)، وإشكالية التركيز في الماضي أو المستقبل وتهميش الحاضر، وهذهِ الإشكاليات تؤثر في أسلوب التربية، وفي موقف المجتمع من الأطفال[٢٥].

وفي خلاصة هذا المبحث يجب على الأسرة أن تأخذ دورها الفاعل في تربية الطفل وتأديبه من أجل إرفاد المجتمع بأفراد صالحين يتمتعون بشخصية سليمة خالية من كل العقد والاضطرابات النفسية، قادرين على تحمل مسؤوليتهم في الحياة والتفاعل الايجابي فيها.

المبحث الثاني: تربية الطفل في فكر الإمام علي عليه السلام

يتضمن هذا المبحث أحاديث الإمام علي عليه السلام في تربية الطفل، ومن الجدير بالذكر أنّ التربية في فكر الإمام عليه السلام تبدأ من مرحلة اختيار الزوجة بوصفها مقدمة لتربية أبناء صالحين مروراً بمراحل النمو الأخرى، وهذا ما سنبينه بعرض هذه الأحاديث وقراءتها في ضوء الأسس والمبادئ النفسية والاجتماعية الحديثة:

١. اختيار الزوجة

يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: **«إياكم وتزويج الحمقاء فانّ صحبتها بلاء وولدها ضياع»**[٢٦].

يبدأ بناء الأسرة الصالحة في فكر الإمام علي عليه السلام من اختيار الزوجة الصالحة لما لها من أثر عميق وكبير في حياة الأسرة وتماسك بنيانها؛ لأنّ الزوجة الصالحة هي مقدمة لتربية أبناء صالحين وهذا الأمر واضح في كلامه عليه السلام: «ولد الحمقاء ضياع».

فالإمام عليه السلام يخشى تزوّج الحمقاء لانتقال هذهِ الصفة إلى الطفل،

ولعدم قدرتها على تربية الطفل تربية سويّة، وقد أثبت ذلك علماء النفس والاجتماع والأخلاق بأن المرأة الكريمة المهذبة هي المسؤولة على تهيئة الجو النفسي والأخلاقي لنشأة الطفل نشأة سليمة متوازنة، وهي التي تبني شخصيته واتجاهاته وعاداته وأخلاقه، وهي التي تسمو به نحو عالم الخير والكمال وصنع المستقبل الزاهر[٢٧].

فمن أراد أن يتخذ لنفسه زوجة عليه أن يعرف سجاياها أصلاً وفصلاً وحسباً ونسباً؛ لكي يحضى بإمراة نجيبة وعفيفة يقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «حسن الأخلاق برهان كرم الأعراق»[٢٨].

وهذا الحديث يثبت إمكانية اكتشاف الطهارة العائلية للفرد من السجايا الفاضلة عنده. وعن الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «تزوجوا في الحجر الصالح فإنّ العرق دسّاس»[٢٩].

وقد أورد صلى الله عليه وآله كلمة العرق في حديثه قاصداً الجين أو الذرات التي تكمن في الخلايا.

وهي ما أشار إليها علماء الحياة حين قالوا بتأثيرها في العادات والصفات التي يمكن أن يتمتع بها المولود وتكون على شكل موجودات غير منظورة بالعين المجردة تهجع في خلايا حاملة الصفات المنتقلة من جيل لآخر، أي أنها تحمل الصفات الجيدة وغير الجيدة من الأبوين إلى أبنائهما[٣٠].

ويتضح هذا الأمر جلياً في اختيار الإمام علي عليه السلام لفاطمة الكلابية (أم البنين) بعد وفاة ابنة عمه الصديقة الزهراء عليها السلام)، إذ قال عليه السلام لأخيه عقيل - وكان عارفاً بالأنساب -: «أخطب لي امرأة ولدتها الفحولة من العرب لأرزق منها ولداً يكون عوناً لولدي الحسين يوم عاشوراء...».

فإن الإمام ينظر إلى شجاعة الأسرة التي يريد أن يخطب منها زوجته لتنجب له ولداً شجاعاً.

٢. الرضاعة

يقول الإمام عليه السلام: «ما من لبن يرضع به الصبي أعظم بركة عليه من لبن أمه»[٣١]. وفي حديث آخر قال الإمام علي عليه السلام: «انظروا من يرضع أولادكم فان الولد يشب عليه»[٣٢].

تذهب العلوم الطبية الصحيحة أنّ حليب الأم هو أفضل غذاء طبيعي للطفل وضمان وقايته من الأمراض[٣٣]؛ فضلاً عن تأثيره الايجابي في الوضع النفسي والعاطفي للطفل، وهو أهم المراحل في البناء العاطفي للطفل حيثُ تحتضن الأم طفلها وتَضمّه إلى صدرها، فيشعر بالحنان المتواصل والدفء العاطفي.

إذ أنّ إرضاع الطفل من ثدي أمه يحقق هدفين، هما الرضاعة الغذائية والرضاعة الانفعالية لما يرتبط بعملية الرضاعة من إحساس الطفل بالدفء والحنان، أنّ اللبن هو أكمل غذاء جسمي والحب هو أشهى غذاء نفسي، والذي يلاحظ استجابات الطفل للرضاعة من تعبيرات وجهه يتبين مدى أهمية هذه العملية لديه فإن الطفل حين يرضع من ثدي أمه لا يملأ معدته فقط ولكنه يبدو سعيداً مسروراً هادئاً مطمئناً.

وإذا تأخر عنه الثدي أو نزع من فمه نجده مضطرباً ويصبح في ثورة احتجاج ونحن نعرف أنّ الفم وعملية المص مصدر لذة كبرى للطفل فهنا مصدر الغذاء المشبع ومصدر الإحساس بوجود الأم والشعور بحنانها والإحساس بالأمن ايضاً، وبهذا تكون الرضاعة ليست مجرد إشباع حاجة فسيولوجية وإنما هي موقف نفسي اجتماعي شامل يشمل الرضيع والأم وهو أول فرصة للتفاعل الاجتماعي[٣٤].

لقد بلغ اهتمام الإمام بحياة الطفل أن دعا إلى توفير الغذاء الجيد والمتوازن للطفل

سابقاً في ذلك العلم الحديث الذي يقول: (إنّ للغذاء تأثيراً في الجسم والروح على حد سواء، حيث أنّه مؤثر في إيجاد الخصائص الجسمية كالنمو والجمال ...).

كذلك في خلق الصفات النفسية والاخلاقية، كالرذائل والفضائل أيضاً[٣٥].

٣. تسمية المولود

يقول الإمام عليه السلام: «أول ما يبرّ الرجل ولده، أن يسميه باسم حسن، فليحسن أحدكم اسم ولده»[٣٦].

وفي حديث آخر قال عليه السلام: «وحقُّ الولد على الوالد أن يحسِّن اسمه، ويحسِّن أدبه، ويعلمّه القرآن»[٣٧].

ترى الشريعة الإسلامية أن من بين حقوق الطفل على والديه حسن اختيار الاسم الذي يدعى به بين الناس الذي يميزه من غيره من الأشخاص، بحيث يكون اسماً ذا معنى محمود أو صفة طيبة يرتاح لها القلب وتطمئن لها النفس.

أو اسماً يبعث على الأمل والتفاؤل أو اسماً يدل على الشجاعة والنشاط والهمة[٣٨].

أما إذا كان الاسم قبيحاً يصبح سبباً للشعور بالحقارة ويحمل صاحبه على الشعور بالضجر والانطواء ومحل لسخرية الأطفال واستهزائهم به، ولا ريب أنّ الذين ينمازون بأسماء جميلة أو ينتمون إلى عشيرة ذات اسم جميل يفتخرون بذلك ويسعدون ويذكرونه بكل ارتياح وسرور وطلاقة دونما الشعور بالحقارة والأذى، وأما الذين على العكس من ذلك نراهم يأبون عن ذكر أسمائهم وأسماء عشيرتهم القبيحة وإن اضطروا إلى الذكر شعروا بالخجل والضياع والألم[٣٩].

٤. تأديب الطفل

وقال عليه السلام: «علمّوا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم»[٤٠].

وفي حديث آخر يقول عليه السلام: «لا ميراث كالأدب»[٤١].

عنه عليه السلام يقول: «ما نَحَل والد ولداً نحلاً أفضل من حسن الأدب»[٤٢].

يؤكّد الإمام عليه السلام على تأديب الطفل إذ أن من أهم الواجبات الملقاة على عاتق الآباء هو القيام بتأديب الأطفال ومراقبة سلوكهم خوفاً من شذوذهم أو ارتكابهم ما يخالف التقاليد الدينية والاجتماعية، أو يجافي الآداب العامة، أو جنوحهم نحو الشر وارتكاب الجريمة.

فيجب على الآباء الإسراع في تأديبهم وتربيتهم[٤٣].

فالولد أمانة عند أبويه وقلبه الطاهر يقبل كل ما يلقى إليه من خير أو شر، قال رسول الله محمد صلى الله عليه وآله: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه وينصرانه»[٤٤].

وفي ذلك يقول الإمام علي عليه السلام لولده الحسن: «إنما قلب الحدث كالأرض الخالية، ما ألقي فيها من شيء قبلته فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لبك»[٤٥].

وهنا بيان واضح من الإمام عليه السلام على أن قلب الطفل صفحة بيضاء، لا يوجد فيها فكرة صحيحة أو خاطئة، وقد أشار فرويد إلى هذه الحقيقة وأكد على أهمية السنوات الخمس الأولى في تكوين شخصية الإنسان على وفق ما يتلقاه الطفل من الأسرة.

لذا يجب على الأبوين - وهما يستطيعان بتوفيق الله لهما - العمل على حسن تربية الطفل عن طريق القدوة الحسنة أولاً، ثم تلقينه الآداب الفاضلة، والعمل على غرس الخصال الكريمة في نفسه وتطبيعه على الصفات الحميدة، وتقوية صلته بالله تعالى عن طريق حفظ القرآن الكريم وممارسة العبادات والتحلي

بالأخلاق الفاضلة، وتعويده آداب الحديث، وآداب السؤال بحيث يكون مهذباً في سؤاله لطيفاً في حديثه يحسن الوصول إلى ما يريد برقة وأدب، ويتعوّد القدرة على الاعتذار للآخرين إن صدر منه خطأ[٤٦].

وقد جسّد الإمام علي عليه السلام مضامين الفكر الإسلامي في التربية، وكيف لا وهو ربيب الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله فكانت أقواله وأفعاله مستوحاة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

فكان بحق حكيماً عالماً ومربياً فاضلاً لا يسبقه سابق ولا يلحقه لاحق بعد رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وهذه وصيته لولده الحسن عليه السلام من روائع خلقه الرفيع التي تعد الحجر الأساس في توثيق الروابط الاجتماعية وبناء المجتمع بناءً سليماً قوامه الحب والتسامح والعدل ونبذ الظلم واحترام الآخرين؛ إذ يقول عليه السلام: «واجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك وأحب لغيرك ما تحب لنفسك، وأكره له ما تكره لها، لا تظلم كما لا تحب أن تظلم، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك، واستقبح لنفسك ما تستقبحه من غيرك، وارضَ من الناس ما ترضى لهم منك، ولا تقل ما لا تعلم، بل لا تقل كلما علمت مما لا تحب أن...»[٤٧].

٥. الحب والحنان

يقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «من قَبَّل وَلَدَهُ كانَت لهُ حَسَنة، ومَن فَرَّحَهُ فَرَّحَهُ الله يومَ القِيامَة»[٤٨].

من الميول الفطرية للإنسان، التي تظهر في مدة الطفولة الحاجة إلى الحب والعطف والحنان؛ لأنّ الاستجابة لهذا الميل الطبيعي وإشباع هذه الحاجة جزء من المنهاج الفطري. فإذا نال الطفل حظاً وافراً من العطف والحنان في أيام طفولته

كان ذا روح مطمئنة ونفس وديعة وكان سلوكه طبيعياً طيلة أدوار حياته.

أما الأطفال المحرومون من الحب العائلي وعطف الوالدين فإنهم يملكون أرواحاً ملؤها اليأس والتشاؤم ويكونون على شفا جرف من الانحراف[٤٩].

فيجب أن يحظى الطفل من ساعة ولادته بدفء الأم وحنانها، ورعاية الأب والعناية به ليعيش في جو ملؤه المحبة والتقدير، وفي محيط يسوده الاطمئنان والراحة النفسية وطفولة سعيدة[٥٠].

ليكون في أمان من العقد النفسية، وتتفتح في قلبه أزهار الخير والفضائل فينشأ إنساناً سوياً فاضلاً يحب الخير للجميع كما يحبه لنفسه[٥١].

لذلك نجد الإمام عليه السلام يقول: «من قَبّلَ ولده كانت له حسنة»، ومن المعروف أنّ الحسنات لا تأتي جزافاً من دون عمل خير يستحق ذلك، وهذه القُبلَة من الوالدين للطفل من أصدق مصاديق عمل الخير؛ لما لها من انعكاسات ايجابية تُشْعر الطفل بالراحة ودفء العاطفة وأنّه شخص مرغوب فيه له مكانته في الأسرة، وفي هذا الصّدد يقول صالح عبد الكريم: (لاحظت من خلال الممارسات الإكلينيكية في العيادة النفسية أنّ العامل المشترك بين أغلب المشكلات النفسية والسلوكية لدى الأطفال والمراهقين هو غياب الحب الحقيقي بينهم وبين الوالدين، كما لاحظت أن الأطفال السعداء الأصحاء نفسياً هم المحبوبون الذين يصلحهم حب الوالدين ويشعرون به وهم من تربوا على الحب وولدوا في محيط أسري يتسم بالحب وتأكدت أنّ الحب أفضل أسلوب لتربية الأبناء، وأفضل علاج لكل المشكلات النفسية والسلوكية للأطفال والمراهقين والشباب والراشدين والمسنين، وتأكد لي أنه إذا كان غذاء الجسد هو الطعام والشراب وإذا كان

غذاء العقل هو القراءة، وإذا كان غذاء الروح هو الإيمان فغذاء النفس ودواؤها هو الحب الحقيقي)[٥٢].

وقد اكتشف علماء النفس أنّ هنالك اضطراباً يصيب الأطفال المحرومين من الحب وأطلقوا عليه **(القزم العاطفي)**، حيث وجدوا هنالك بعض الأطفال نموهم الجسمي بطيء ويتسمون بضآلة الجسم مقارنة بالعمر الزمني لهم واكتشفوا أنّ السبب الذي يكمن خلف ذلك الاضطراب هو نقص الحب وعدم النشأة في جو أسري يتسم بالحب)[٥٣].

ومن هذا يتضح تأكيد الرسول محمد وآل بيته صلوات الله وسلامه عليهم على حب الأطفال وتقبيلهم، يُروى أنّ رجلاً جاء إلى الرسول محمد صلى الله عليه وآله فقال: ما قَبّلتُ صَبيّا قط فلمّا ولّى قال صلى الله عليه وآله: «هذا رجل عندنا إنّه من أهل النار»[٥٤].

ومن جانب آخر يؤكد الإمام عليه السلام على إدخال السعادة إلى نفسية الطفل كي لا يشعر بالحرمان ويصف ذلك بقوله عليه السلام: «ومن فَرّحَه فَرّحَه الله يوم القيامة».

فالطفل من منظور الإمام علي عليه السلام كتلة من المشاعر والأحاسيس يجب صيانتها وإحاطتها ببيئة صالحة لتزدهر وتنمو شخصيته وتصل إلى إشراقاتها التكاملية، حيث يقول عليه السلام واصفاً الطفل بأنه: «ذو نية سليمة ونفس صافية»[٥٥].

لذا يجب على الآباء تحمّل مسؤوليتهم تجاه أبنائهم، وأن يشبعوا حاجاتهم النفسية والعاطفية، وأن يعملوا على إسعادهم؛ لينالوا بذلك سعادة الدنيا وآجر الآخرة.

٦. لعب الطفل

يقول الامام عليه السلام: «يرخى الصبي سبعاً...»[٥٦].

وفي حديث آخر قال عليه السلام: «من كان له ولد صبا»[٥٧].

اللعب حاجة فطرية يحتاج إليها الفرد في مراحل حياته ولا سيما في مرحلة الطفولة المبكرة، فهو نشاط تلقائي لا يمكن تعلّمه ولا يقل أهمية عن الأكل والشرب والتنفس، بل إنّ الطفل أحياناً يفضل اللعب على الأكل، فهو يعيش مع لعبته يحكي لها، ويشكي لها، يضربها، يُقبّلها، يحضنها، يرميها، ويركبها.

ولا شك أنّ هذا اللعب له أهمية كبرى بالنسبة إلى الطفل حيث يساعده على النمو الجسمي والعقلي والحركي والاجتماعي واللغوي والأخلاقي، والطفل الذي لا يلعب هو طفل غير طبيعي[٥٨].

وباللعب (يتعلم الطفل المعايير الاجتماعية، وضبط الانفعالات والنظام والتعاون.. ويشبع حاجاته مثل حب التملك.. ويشعر الطفل بالمتعة ويعيش طفولته)[٥٩].

ويؤكد علماء النفس والتربية حرية الأطفال في اللعب، ومن قولهم: (إذا حاول الأطفال رسم برنامج خاص لهم في أعمالهم فلا تمنعوهم من ذلك؛ لأنّ مواصلة تطبيق خطّة مرسومة دون عوائق في الطريق... عامل فعّال في تكّون الشخصية عندهم)[٦٠].

وهذا لا يعني أن يترك الحبل على الغارب بحيث يفعل الطفل ما يشاء، بل يجب أن يكون اللعب بأدوات مباحة، وأن يكون مأمون الخطر والضرر، ولا يستهلك جلّ وقت الطفل، وأن يكون بإشراف الوالدين وتحت مراقبتهما؛ ليتم التوجيه والتصويب للخطأ إن وقع[٦١].

فالإمام عليه السلام أشار إلى مسألة اللعب منذ أمد بعيد بوصفه وسيلة فعالة لبناء شخصية الطفل، والإمام عليه السلام لم يؤكّد على أهمية لعب الطفل

فحسب، بل أشار إلى أهمية اللعب مع الطفل فعن الأصبغ بن نباتة قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «من كان له ولد صبا».

وكان رسول الله محمد صلى الله عليه وآله يشارك الحسن والحسين في فعلهما، ومشاركته لا تعني التدخل في شؤونهما، وإنّما يشارك متصرفاً كأنّه أحدهما فكان صلى الله عليه وآله يبرك للحسن والحسين ويخالف بين أيديهما وأرجلهما، ويقول: «نعم الجمل جملكما»[٦٢].

يقول موريس في كتابه (دروس للوالدين): (يجب أن تسلكوا مع أولادكم كأصدقاء، أن تعملوا معهم، أن تشاركوهم في اللعب، أن تقرأوا لهم القصص أن تتحدثوا معهم بعبارات الود والصدقة، وبصورة خاصة فإن الفرد يجب أن يعرف كيف يجعل نفسه بمستوى الأطفال ويتكلم بلغة يفهمونها)[٦٣].

٧. تعليم الطفل

يقول الإمام علي عليه السلام: «حق الولد على الوالد أنْ يحسن اسمه ويحسن أدبه ويعلّمه القرآن»[٦٤].

وفي حديث آخر قال عليه السلام: «علّموا صبيانكم مِن عِلمِنا ما ينفعهم الله به، لا تغلب عليهم المرجئة برأيها»[٦٥].

اهتم الإسلام بالتعليم اهتماماً كبيراً، بل جعل التعليم من الحقوق الواجبة على الآباء تجاه أبنائهم، ولاشك أنّ الحقَّ سبحانه يسأل الإنسان يوم القيامة عنه. فقد أشار الإمام عليه السلام إلى تعلّم القرآن؛ لأنّه يُعد دستوراً إلهياً شاملاً لكلِّ جوانب العلم في مجالاته المختلفة العلمية والإنسانية، والروحية والعبادية، فضلاً عن تعلّم القراءة والكتابة الصحيحة على وفق الضوابط اللغوية والتشجيع على الحفظ والتفسير الصحيح لبعض الآيات والسور التي يحتاجها الطفل في هذه

المرحلة، وخصوصاً ما يتعلّق بالجانب العقائدي والأخلاقي، والجانب الفقهي المتعلّق بالأحكام الشرعية المختلفة من العبادات والمعاملات[٦٦].

وقد أوجب الله سبحانه وتعالى فضلاً كبيراً للوالدين لتعليمهم القرآن أبنائهم على الرغم من كونه حقاً عليهم.

فقد ورد عن رسول الله محمد صلى الله عليه وآله أنّه قال: «... ومن علّمه القرآن دُعي بالأبوين فكسيا حلّتين تضيء من نورهما وجوه أهل الجنة»[٦٧].

والجانب الآخر الذي يؤكّده الإمام عليه السلام هو تعلّم العلوم النافعة لتكون لدى الطفل حصانة فكرية أمام التيارات المنحرفة في قوله عليه السلام: «عَلِّموا صبيانكم من علمنا ما ينفعهم الله به، لا تغلب عليهم المرجئة برأيها».

والحقّ أنّ الطفل بعد ولادته لا يعرف سوى بعض المعلومات الغريزية والفطرية، فهو يجهل جهلاً كاملاً لتلك الظواهر المختلفة لهذا العالم الواسع.

ولا يعلم شيئاً عن قضايا العلة والمعلول ولا يمكنه أنْ يستثمر ما هو موجود في الحياة اليومية ويستفيد منه، لذا فهو بحاجة إلى الوعي حتى يدرك ماذا عليه أن يفعله في هذا العالم وما هي المواقف التي لا بدّ من أن يتّخذها.

لذا فالأب هو المسؤول عن توعية طفله وتنشئته ثقافياً، فالطفل يعتقد أن أباه يعلم كل شيء، ويمكنه الإجابة على جميع الأسئلة، ويعي جميع المعادلات، وأنه يعلم بجميع الحوادث أينما وقعت، وهو الذي يجب أن يتحدّث عن الماضي ويخبر عن المستقبل ويدرك تفاصيل الحياة ودقائقها.

وأخيراً فإنه هو الذي يفتح بوابة العلم والمعلومات أمام طفله[٦٨].

٨. عقاب الطفل

يقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «إنّ العاقل يَتّعظ بالأدب والبهائم لا تتّعظ إلا بالضرب»[٦٩].

إن فلسفة العقاب هي أن يشعر الفرد بالعذاب والألم نتيجة لقيامه بسلوك غير مرغوب فيه، ليفكر بالتخلص والابتعاد عن تلك السلوكيات والأعمال التي تسبب له الألم والضيق، وهذا يعني أن العقاب لا يقتصر على الضرب فقط، بل إنه يشمل أموراً أخرى كثيرة لها المعنى نفسه من دون أن تترك آثاره، ومن أهمها: التوبيخ والإشارة والكناية والتهديد بحرمانه من بعض الامتيازات التي يهواها كالسينما وأفلام الرسوم المتحركة والقصة وقطع المصروف اليومي والمقاطعة[٧٠].

وقد أشار إلى هذا النوع من العقاب عالم النفس الأمريكي (سكنر) وأسماه بـ(**العقاب السلبي**)، ويقصد به إزالة حدث سار مرغوب فيه نتيجة قيام الطفل بسلوك غير مرغوب فيه بهدف تقليل احتمالية تكرار مثل هذا السلوك لاحقاً[٧١].

ومن الجدير بالذكر أنّ الإمام علي عليه السلام أشار إلى هذا النوع من العقاب منذ (١٤٠٠) ونيف عام، يقول الإمام عليه السلام: «أزجر المسيء بثواب المحسن»[٧٢].

إذ لا شك أن إثابة المحسن وترك المسيء هو نوع من العقاب له؛ لأنك في واقع الحال قد عاقبته بحرمانك إياه من حالة محببة أو بإزالتك مثير محبب بالنسبة إليه، وهو الثواب أو التعزيز الذي أعطيته لفرد قام بسلوك مرغوب فيه جزاء له، ويسمى هذا بالإقصاء الذي يتضمن منع أو إبعاد الفرد عن المعززات أو الأنشطة المعززة له نتيجة لقيامه بسلوك غير مرغوب فيه.

٩. التفريق بين الصبيان في المضاجع:

يقول الإمام عليه السلام: «مروا صبيانكم بالصلاة إذا كانوا أبناء سبع سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع إذا كانوا أبناء عشر سنين»[٧٣].

لقد راعى الإسلام في منهاجه التربوي الانسجام الكامل بين قوانينه التشريعية والتكوينية وحقق بذلك الوسائل الممهدة لجمود الميل الجنسي عند الأطفال في المدة المذكورة، فقد جنّبهم عن كل عمل مثير يؤدي إلى النشاط الجنسي وأوجب على الآباء والأمهات إيجاد الجو المناسب لبقاء هذا النشاط مجمداً حتى يحين موعد نضجه[٧٤].

فيجب على الوالدين وقاية الأطفال من الإثارة الجنسية، والتفريق بينهم في حالة المنام، بأن توضع فاصلة بينهم فلا ينامون تحت غطاء واحد بحيث يحتك جسم أحدهم بالآخر فضلاً عن تجنبهم التقبيل وغيره، ومن الخطأ الفاحش الذي يقوم به بعض الوالدين هو التحدث عن أمور الجنس أمام الأطفال في بعض المناسبات، فإنّ ذلك يدفع الأطفال إلى زيادة فضولهم.

وفي خلاصة هذا المبحث يمكن القول إنّ الإمام عليه السلام كان رائداً في مجال التربية الأسرية، وكانت أقواله وأفعاله أسساً ومبادئ يستنار بها في المجال التربوي.

الخاتمة

يتّضح مما تقدّم في البحث أنّ للتربية دوراً بارزاً في حياة الأبناء وبناء شخصياتهم لدرجة أنّ الكثير من مظاهر التوافق أو عدم التوافق التي تظهر في سلوك الأبناء وتحقيق النجاح أو الفشل يمكن إرجاعها إلى نوع العلاقات الأسرية التي تسود بين أفراد الأسرة وإلى أساليب المعاملة التي يعاملها به الوالدان، فنمو شخصيات الأبناء يحتاج إلى إمكانات اقتصادية واجتماعية أسرية تهيئ البيئة الصالحة.

وأنّ أهل البيت عليهم السلام ولا سيما الإمام علي عليه السلام قد وضع منهجاً متكاملاً لبناء الأسرة بالشكل الصحيح ابتداءً من اختيار الزوجة الصالحة وحتى مرحلة المراهقة.

وفي ضوء ما تقدم استنتج الباحث الآتي

١. إنّ المنهج الذي وضعه آل البيت عليهم السلام ولا سيما الإمام علي عليه السلام كان منهجاً متكاملاً في تربية الطفل من النواحي (الجسمية، والوجدانية، والاجتماعية، والخلقية، والتعليمية).

٢. اختيار الزوجة له أثر في تكوين الطفل وتربيته.

٣. الاسم الحَسَن للولد له أثر على نفسيته وتفاعله الاجتماعي.

٤. الحب والعطف على الأولاد له أثر بالغ في تربية الطفل وتأديبه.

٥. اللعب بالنسبة إلى الطفل مهم جداً لتحقيق التوافق العضلي، وإشباع حاجة الطفل بالاكتشاف والمعرفة.

٦. العقاب المعنوي العاطفي أجدى من العقاب الجسدي لما للأخير من أثار سلبية على الطفل.

وفي ضوء الاستنتاجات يوصي الباحث بالآتي

١. يجب أن يكون اختيار الزوجة على أساس النسب الطاهر وليس على أساس الجمال والمال فقط.

٢. يجب أن يختار الوالدان الاسم الجميل والحَسَن لطفلهم.

٣. يجب على الوالدين إشعار الطفل بالحب والحنان، وأنّه شخص مرغوب فيه بالأسرة.

٤. يجب احترام شخصية الطفل، وتجنب العقاب البدني إلا عند الضرورة على نحو التأديب بما لا يحدث الضرر.

٥. التفريق بين الأطفال في المنام، لإبعادهم عن الاحتكاك الجسمي، وإثارة الشهوة الجنسية لديهم.

٦ أن يتعامل الوالدان مع الولد في مرحلة المراهقة بحكمة ودراية من دون المساس بشخصيته.

---

(١) محمد سعيد فرج، البناء الاجتماعي والشخصية: ٢٤٠.

(٢) بشير خلف، ثقافة الطفل ومنجزات العصر، ٢٠٠٨/١٠/١ متوفر على الموقع الإلكتروني www.diwanalarab.com.

(٣) سناء الخولي، التغير الاجتماعي والتحديث: ٢٢.

(٤) عباس مكي وزهير حطب، السلطة الأبوية والشباب: ٧ - ٨.

(٥) المصدر نفسه، ص٨.

(٦) محمد عاطف غيث: تطبيقات في علم الاجتماع: ١٦٢.

(٧) المصدر نفسه، ص١٠٤.

(٨) محمود حسن، الأسرة ومشكلاتها، بيروت: ٦٩.

(٩) المصدر نفسه: ص٥٦ -٥٧.

(١٠) السيد رمضان، الجريمة والانحراف من المنظور الاجتماعي: ١٤١ -١٤٢.

(١١) محمود حسن، الأسرة ومشكلاتها: ٦٨ -٧١.

(١٢) الروم/ ٢١.

(١٣) سناء الخولي، المدخل إلى علم الاجتماع: ٢٣٠.

(١٤) أحمد زكي صالح، علم النفس التربوي: ٨٠٣.

(١٥) إحسان محمد الحسن وبهيجة أحمد شهاب، خدمة الجماعة: ١٦٧.

(١٦) المصدر نفسه، ص١٧٢.

(١٧) قيس النوري: الأسرة مشروعاً تنموياً: ٢٧.

(١٨) سالمة داوود الفخري وآخرون، سيكولوجية الطفولة والمراهقة: ٦.

(١٩) صباح حنا هرمز، سيكولوجية لغة الأطفال: ٣٨.

(٢٠) صالح عبد الكريم، فن التربية الأبناء، : ٢٧.

(٢١) هناء حسين الفلفلي، خصائص شخصية الطفل العراقي: ٦٥.

(٢٢) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الخطة القومية الشاملة لثقافة الطفل العربي: ٧.

(٢٣) أحمد عبد الحليم، حقوق الطفل العربي: ٧٩.

(٢٤) يوسف عبد المعطي، ماذا أعددنا لتربية أبنائنا في القرن الحادي والعشرين؟ ٥٤.

(٢٥) هند خالد خليفة، حول تطوير ثقافة الطفل في المجتمع السعودي، www.hewarat.com.

(٢٦) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ١٤/ ٥٧.

(٢٧) السيد صالح السيد عبد الرزاق الموسوي الخرسان، التربية وإشراقاتها التكاملية: ١١٠.

(٢٨) محمد الريشهري، ميزان الحكمة: ٨٠٣/١.

(٢٩) المصدر نفسه: ١١٨٤/٢.

(٣٠) مظاهري، تربية الطفل في الإسلام، : ٣٨ -٣٩.

(٣١) محمد بن يعقوب الكليني، الكافي: ٤١/٦.

(٣٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ١٨٩/١٥.

(٣٣) علي القائمي، الأسرة ومتطلبات الأطفال: ٦٨.

(٣٤) طلعت همام، سين وجيم عن علم النفس التطوري: ١٠٩ -١١٠.

(٣٥) علي القائمي، الأسرة ومتطلبات الأطفال: ٦٨.

(٣٦) الكليني، الكافي، : ٦/ ١٩.

(٣٧) محمد الريشهري، ميزان الحكمة: ٣/ ٢٥٢٣.

(٣٨) هدى محمود الناشف، الأسرة وتربية الطفل: ٤١.

(٣٩) السيد صالح السيد عبد الرزاق الموسوي الخرسان، التربية وإشراقاتها التكاملية: ٣٠٧.

(٤٠) محمد الريشهري، ميزان الحكمة: ٥٧/١.

(٤١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار: ٩٥/١.

(٤٢) حسين النوري، مستدرك الوسائل: ١٥/ ١٦٦.

(٤٣) السيد صالح السيد عبد الرزاق الموسوي الخرسان، التربية وإشراقاتها التكاملية: ٣٢٣.

(٤٤) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار: ٢٨٢/٣.

(٤٥) محمد الريشهري، ميزان الحكمة: ٥٧/١.

(٤٦) هدى محمود الناشف، الأسرة وتربية الطفل: ١٠٢.

(٤٧) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار: ٧٤/ ٢٠٤.

(٤٨) المصدر نفسه: ١٠١/ ١٠٠.

(٤٩) محمد تقي الفلسفي، الطفل بين البيئة والوراثة: ١١٦/٢.

(٥٠) نجم الدين علي مردان، الطفولة في الإسلام حاجاتها النفسية والاجتماعية والتربوية: ١١٦.

(٥١) السيد صالح السيد عبد الرزاق الموسوي الخرسان، تربية الطفل وإشراقاتها التكاملية: ٣٩٨.

(٥٢) صالح عبد الكريم، فن تربية الأبناء كيف نربي أبناءنا تربية نفسية سليمة؟ ١٢٨.

(٥٣) المصدر نفسه: ١٢٩.

(٥٤) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار: ١٠٠/١٠١.

(٥٥) المصدر نفسه: ٧٤ / ٢٠٢.

(٥٦) المصدر نفسه: ١٠١/ ٩٧.

(٥٧) محمد بن يعقوب الكليني، الكافي: ٦ /٥١.

(٥٨) صالح عبد الكريم، فن تربية الأطفال: ١٤٠.

(٥٩) كاميليا عبد الفتاح، العلاج النفسي الجماعي للأطفال: ١٦٢.

(٦٠) محمد تقي فلسفي، الطفل بين البيئة والوراثة: ٦٠/٢.

(٦١) سوسن حسين، تربية الطفل: ٨٤.

(٦٢) حسين النوري، مستدرك الوسائل: ١٥/ ١٧٣.

(٦٣) محمد تقي فلسفي، الطفل بين البيئة والوراثة: ٩١/٢.

(٦٤) محمد الريشهري، ميزان الحكمة: ٤/ ٣٦٨٠.

(٦٥) المصدر نفسه: ٤/ ٣٦٨١.

(٦٦) تربية الطفل في الإسلام، المصدر موجود في المكتبة الشاملة الألكترونية: ١٠٢.

(٦٧) محمد الريشهري، ميزان الحكمة: ٤/ ٣٦٧٠.

(٦٨) علي القائمي، دور الأب في التربية: ٨٨.

(٦٩) محمد الريشهري، ميزان الحكمة: ١ / ٥٨.

(٧٠) علي القائمي، الأسرة ومتطلبات الأطفال: ٢٦٧.

(٧١) عماد الزغول، نظريات التعلم: ٨٦.

(٧٢) الشيخ كافي الدين أبو الحسن علي بن محمد الليثي، عيون الحكم والمواعظ: ص ٧٦.

(٧٣) حسين النوري، مستدرك الوسائل: ١٤/ ٢٨٩.

(٧٤) محمد تقي فلسفي، الطفل بين البيئة والوراثة: ٢/ ٢٥٥.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

- الحسن، إحسان محمد، وبهيجة أحمد شهاب، خدمة الجماعة، الموصل، مطابع التعليم العالي، ١٩٩٠.

- حسن، محمود. الأسرة ومشكلاتها، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة، ١٩٨١.

- حسين، سوسن. تربية الطفل، لادي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٢.

- حطب، زهير، وعباس مكي، السلطة الأبوية والشباب، بيروت، شركة تكنوبوس الحديثة، ١٩٧٨.

- الخرسان، السيد صالح السيد عبد الرزاق الموسوي. تربية الطفل وإشراقاتها التكاملية، ط١، شركة الأعلمي للمطبوعات، لبنان، ٢٠١٢م.

- خلف، بشير. ثقافة الطفل ومنجزات العصر، ٢٠٠٨/١٠/١ متوفر على الموقع الإلكتروني www.diwanalarab.com.

- خليفة، هند خالد. حول تطوير ثقافة الطفل في المجتمع السعودي، الرياض، ٢٠٠٥/١٢/٦ www.hewarat.com.

- الخولي، سناء. التغير الاجتماعي والتحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨.

- رمضان، السيد. الجريمة والانحراف من المنظور الاجتماعي، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، ١٩٨٥.

- الريشهري، محمد. ميزان الحكمة التحقيق: دار الحديث الناشر: دار الحديث المطبعة: دار الحديث الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

- الزغول، عماد. نظريات التعلم، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ٢٠٠٣م.

- همام، طلعت. سين وجيم عن علم النفس التطوري، ط١، مؤسسة الرسالة دار عمار، عمان: الأردن، ١٩٨٤م.

- صالح، أحمد زكي. علم النفس التربوي، ط١٣، القاهرة، دار الشباب، ١٩٨٨.

- العاملي، العلامة الشيخ محمد بن الحسن الحر. وسائل الشيعة تصحيح وتحقيق وتذييل المحقق الحاج الشيخ محمد السرازي، دار احياء التراث العربي بيروت لبنان.

- عبد الحليم، أحمد، حقوق الطفل العربي، مجلة المستقبل العربي، العدد (٤٩)، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ١٩٨٣م.

- عبد الفتاح، كاميليا. العلاج النفسي الجماعي للاطفال، - مكتبة النهضة ١٩٧٥م.

- عبد الكريم، صالح. فن تربية الأبناء كيف نربي أبناءنا تربية نفسية سليمة؟ دار الراية للنشر والتوزيع، مصر، ٢٠١١م.

- عبد المعطي، يوسف. ماذا أعددنا لتربية أبنائنا في القرن الحادي والعشرين؟ المجلة التربوية، المجلد ١٣، العدد ٥١، جامعة الكويت - مجلس النشر العلمي، الكويت، ١٩٩٩م.

- غيث، محمد عاطف، تطبيقات في علم الاجتماع، الإسكندرية، مطابع رويال، ١٩٧٠م.

- الفخري، سالمة داود وآخرون. سيكولوجية الطفولة والمراهقة، طبع بغداد، ١٩٨٢.

- فرج، محمد سعيد. البناء الاجتماعي والشخصية، منشأة المعارف، مصر، ١٩٨٩م.

- فلسفي، محمد تقي. الطفل بين الوراثة والتربية، مطبوعات الأندلس، بيروت، ، ط١، ٢٠٠٩م.

- الفلفلي، هناء حسين. خصائص شخصية الطفل العراقي، مجلة أحاديث في التربية والاجتماع، العدد ١٣، مسلسلة التراث القومي، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٩م.

- القائمي، علي. الأسرة ومتطلبات الأطفال، دار النبلاء، بيروت، ١٩٩٦م.

- القائمي، علي. دور الأب في التربية، دار النبلاء، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٨م.

- الكليني، محمد بن يعقوب بن اسحاق، الكافي، صححه وقابله على اكبر الغفاري، دار الكتب الاسلامية، تهران، ١٣٦٧هـ.

- الليثي، الشيخ كافي الدين أبو الحسن علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق حسين الحسني البيرجندي، ط١، دار الحديث، إيران، قم، ١٣٧٦ش.

- مظاهري. تربية الطفل في الإسلام، ط٣، دار البلاغة للنشر، لبنان، ٢٠١٠م.

- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الخطة القومية الشاملة لثقافة الطفل العربي، تونس، ١٩٩٣م.

- الناشف، هدى محمود. الأسرة وتربية الطفل، ط١، دار السيرة للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٧م.

- النوري، حسين. مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

- النوري، قيس. الأسرة مشروعاً تنموياً، بغداد، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٤م.

- هرمز، صباح حنا، سايكولوجية لغة الأطفال، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٩م.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

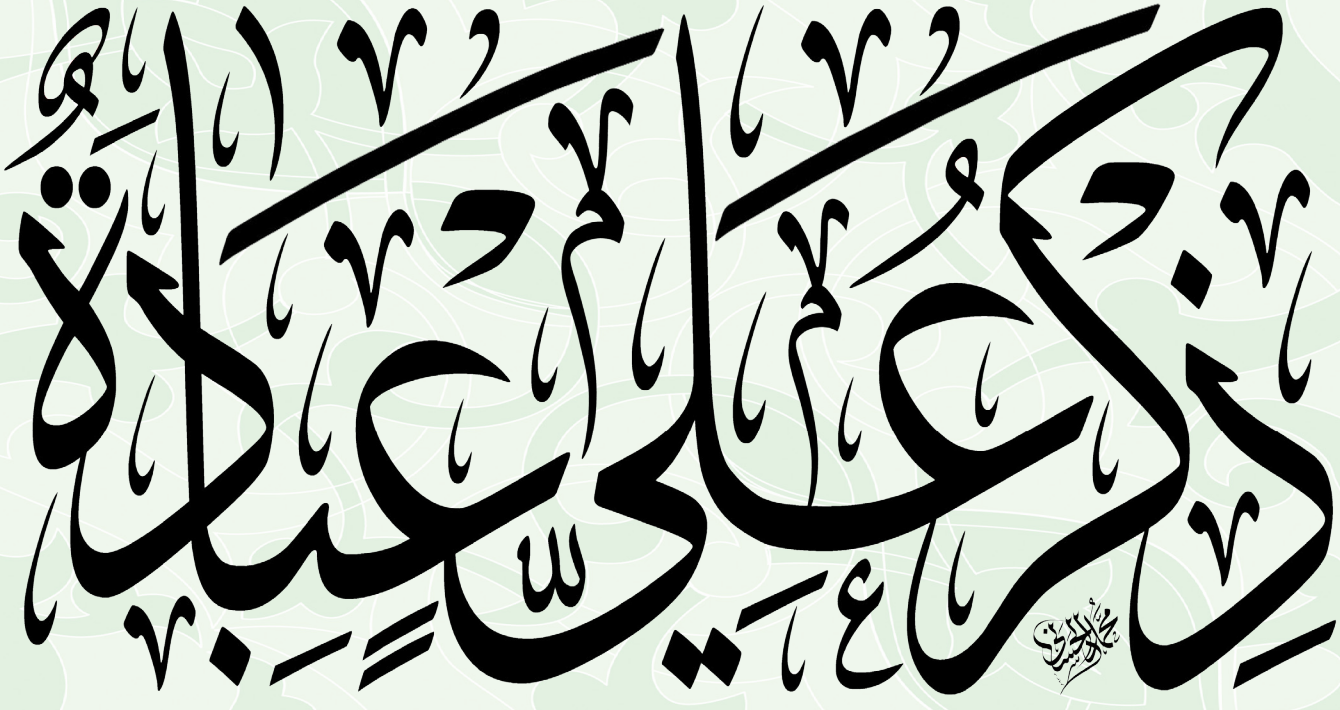

المصدر: مناقب علي بن ابي طالب عليه السلام لإبن المغازلي: ص ١٧٢

Upbringing Of The Child In The Thought Of Imam Ali (A.S)

By: Dr.Aqeel Rashid

The research aims to know the child's upbringing in thought of Imam Ali (pbuh) through a review of some of the words in this field, read in the light of modern educational principles, and after studying the researcher concluded, that Imam Ali (peace be upon him) has developed an integrated approach for right sound education begins to choose a righteous wife up to the needs of children (physical, emotional, social, moral, and educational). In addition to the psychological theories and modern educational related to this matter was rooted deeply rooted in Islamic thought represented by Imam Ali (peace be upon him).

Function of the Prophethood Study in Road of Eloquence

By: Dr.Intesar Adnan

This study deals with the research on the functions of prophethood in the book Nahj Al-Balagha, using what came to the exegetes and commentators and scholars approach the language and speech in Imam Ali (pbuh) statement, came under two sections to ensure the first statement the concept of prophecy, and necessity, while another episode played by the monitoring functions of the prophets in the words of commander of the believers(pbuh), this research has led to a set of results was highlighted by the numerous and varied functions of prophecy in road of eloquence including performance of the divine nature and excitement of result of minds and preaching and warning.

Eloquent Methods in the Sermons of Companions of Imam Ali (PbUH) in the Battle of Siffin

Dr.abdul hadi abdul rahman

The Companions of Imam Ali (pbuh) play an important role in the defense of its true path, they have provided the spirit and reported to say rationality in the battle of siffin; therefore, optional signed the speeches of these distinguished for study and the detection of its eloquence aspect, aesthetic and what his campaign from a broad range of meanings, divided the Search: preface and two researches, the first devoted to the study of methods of predicates that came in their sermons and their significance, these predicates methods varied, it was predicates ,noun sentences and other verbal sentences, and rhetorical ability in each text, and studied in the second research stylistic methods, including the command method and the method of the questions, and each provided rhetorical features in the texts studied, comes for purpose other than the original purposes for which found it above all these method different purposes then ended the research with the conclusion, clarified the result of research

importance in the parent, which is merciful father and unanimous blessing from the educated you should be and you will on coming life, priming period, with good faith and clear soul».

Philosophy of history lies in the thought of Imam mature human experience and through his preaching, demonstrated by his historical references contained in the intellectual heritage of ancient origins, as giants, and pharaohs, and owners owe and explained to it said in his will to public people: «to you in previous centuries for a lesson! where are the giants, the sons of giants! where the pharaohs, the sons of pharaohs! where the owners of maddaen Persian who killed prophets and extinguished upright messengers, and return the anniversary of other toughest! where who marched with armies, and defeated the thousands, and camped the soldiers and built al maddaen».

Concept of a Science of History and Its Importance in the Thought of Imam Ali (A.S)

By: Assist.Prof.Dr.Mohammed Hussein

This research attempts came under the title (the concept of a science of history and its importance in the thought of Imam Ali Ibn Abi Talib), The first Imam Ali paid great attention to all the attached great society, trying to build human rights and upgrading the level at all the levels, so it was among its concerns, devoted its attention to all the history as a tool for education and development of human mental abilities by making use of its experience over the ages, and is reflected in his will to his son Imam Hasan «which I built and that I was not lived the ages who were before me, I have considered there work and thought about telling them and walked in so I came back as one of their, but I like as concluded from their have popularized with the first to the last defined disturb so turbid and usefulness of harm it learned from you all is his lighten and elected you beautiful dismissed you unknown and I saw your

Firstly, singled in (Quranic councils) and included two demands of interpretative stances by Imam peace be upon him and the second, what was telling about him in reading. In the other side the second research was singled out in (literary and linguistic councils) opened up to several details such as:unification literature, and literature answers brief Almsketh for Imam peace be upon him and Imam in the poetry, and strange talk for Imam. Research has attempted to uncover the scientific nature which characterized Al Sayed El-Murtada to accept other views his ancestors from various sources, even those who disagree with him in belief and public opinion, turns their views and reviewed without defamation or restriction, accept that it is in a quiet, scientific, often displays the new opinion of its own in the language or the jurisprudence or rhetoric.

Imam Ali (PBUH) in the Councils of Al-Sayed El-Murtada

By: Assist.Prof.Dr.Abbas Ali

Specify search entitled (Imam Ali, peace be upon him in the councils of Al-Sayed El-Murtada). The study of the impact of distinctive scientific common name academically (Amalie El-Murtada)Al Sharif El-Murtada aware of Huda Ali Bin Hussein Al Mousawi deceased (436a.h). Walamali collection dictate a common place in the age of the Sharif El-Murtada meant what the dictates of sheikh on his students from lectures or councils, or what is written by his handwriting. The name drawnup by Al Sayed El-Murtada in Alamalih (Gharar Al Fawaed, Durar Al Qalaed) signed in two parts, total implicity from the councils of 80 councils, distributed the Emir of the believers peace be upon him in many of them, thus we classified this beautiful rememberance with two sections are:

Anthropomorphism in Road of Eloqence Homlies

By: Assist.Prof.Dr.Aseel Meteab

This research aims to study anthropomorphism in road of eleqoence homlies , and required nature research to divide the three paragraphs of the first diagnostic study dealt with time expressed in specific terms (such as time and age and a day) and the second statement fulfilled the diagnostic in nature, third paragraph, limited study on diagnosis on morale, and notable results of this research excellence of Imam Ali (peace be upon him) in the use of the diagnostic method of privacy in expression. The uniqueness in the proportion of certain acts involving human security or moral nature or matters.

Commander of Belivers Philosophy in Manipulating Finacial Corruption

By: Prof.Dr.Hussein Ali

There are many topics of Islamic history which have not been highlighted enough , and remained trapped in the books for long periods without being investigated . The topic that we are dealing with is suitable has not gained the attention of researchers in the manner that commensurate with its importance concerning serious adverse phenomenon had an impact on defamation of the Islamic state, which is financial corruption which spread Islamic state institution as a result of the financial and administrative policies in the period that followed the death of the Prophet (SAWS), so when the commander of the Believers Ali Bin Abi Talib (A.S) succession endeavored to eliminate this phenomenon and to develop an integrated approach to this matter, and his approach based on good selection of workers, governors, and staff with managerial expertise, competence and integrity, in addition to other qualifications, and not only this but also develop an integrated supervisory system to oversee the work of these, this system provides daily information on events taking place in the various regions of the state, and on this basis was took steps appropriate deterrent to protect national and protect state funds from overtaking, succeeded his reform a great success and contributed to the control of state administration.

Eloquent Resemblance in Road of Eloquence

By:Prof.Dr.Abdul-Hadi Khudai

Eloquent resemblance has consequence in the creating of technical image in the creative form ,for its ability in embodiment meanings and embossing in a picture closer in deriving style and composition to eloquence ,allowed to admixture between them .

For this resemblance variety forms come , we have allocated this research one of such forms << Eloquent resemblance in road of eloquence >>after we observe noticeable of the subject in the speech of imam in nahj ,and invest this resemblance to achieve the goals of the substantive and practical represented in the purpose identified by the research.

Abstracts

Board Of Editors

Assist.Prof.Dr. Hasan Hameed Fayyadh.College Of Basic Education/Kufa University

Assist.Prof.Dr.Mustafa Kadhim Shgedl/College Of Arts/ Baghdad University

Assist.Prof.Dr.Adnan Marid Jebur /College Of Education For Human Sciences/Kabala University

Assist.Prof.Dr.Saleh Kadhim Ajeel Al Gburi/College Of Arts/ Babylon University

Assist.Prof.Dr.Flayyih Khudair Shnee/College Of Arts/Wasit University

Assist.Prof.Dr.Yousif Kadhim Al-Shammari/College Of Arts/ Babylon University

Assist.Prof.Dr.Mohammed Ayed al-Husseini/College of Education/ Qadisiyah University

Assist.Prof.Dr.Hussein Lafta Hafedh/Kufa Studies Center/ Kufa University

Assist.Prof.Dr.Abd Ali Kadhim Al-Fatlawi/College Of Religious Tourism/Karbala University

Assist.Prof.Dr.Fahed Naeemah Al-Baidhani/College Of Education For Human Sciences/ Karbala University

Proofreaders

Assist.Prof.Dr.Layth Qabel Al-Waeli\ Collage Of Education For Human Sciences/Karbala University

Prof.Dr.Muayad Jasim Mohammed Hussein\ Collage Of Islamic Sciences/Karbala University

Financial Management

Zaman Jaafar Kadhim/Bachelor In Accounting

Electronic Website

Ahmed Abbas Mahdi Abbas
Bachelor In Computer Engineering/Al-Rafidain University Collage

Copy Editors (English)

Ahmed Talib Mohamed
Bachelor in English language/Baghdad University

Design And Production

Mahdi Razzaq saleh

General Supervisor

His Eminence Sheikh: Abdul-Mahdi El-Karbalaii

Official Trustee of the Hussein Holy Shrine Foundation.

Editor-In-Chief

Al Sayed:Nabeel Qaddoori Hasan Al-Hassani

Manager of Nahj AL-Balagha Sciences Foundation

Managing Editor

Dr.Liwaa Abdul-Hasan Atiyah

Directorate General for Educetion /Karbala

Secretary Editor

Ali Jasim Mohammed Ali

B.A.Business Sciences Management/Karbala University

Advisory Board

Prof.Dr. Salah Mahdi Al-Farttoosi, Kufa University - Iraq

Prof.Dr. Mohammed Jawad Al-Tureihi.Baghdad University - Iraq

Prof.Dr. Ali Mahdi Zeton, Lebanese University - Lebanon

Prof.Dr. Abdul Hadi bin ammar Gilovi, Gafsa University - Tunis

Prof.dr. Hasan Mandeel Al-Ogaili. Baghdad University - Iraq

Prof.Dr. Mohammed Hasanain Al-Naqawy, Bahauddin Zakariya University - Pakistan

Prof.Dr. Ayad Abdul Huessein Al-Khafaji, Karbala University- Iraq

Prof.Dr. Hakim Habeeb AL-Graiti, kufa University - Iraq

Prof.Dr. Sami Hammood Alhaj Jassim, Al-mustansiriyah University - Iraq

Prof.Dr. Najah Fahem Al-Obaidi, Karbala University - Iraq

Prof.Dr. Jawad Kadhim Alnasrallah, Basrah University - Iraq

Assist.prof.dr. Ali Abdul Fatah Alhajj Farhood,Babylon University - Iraq

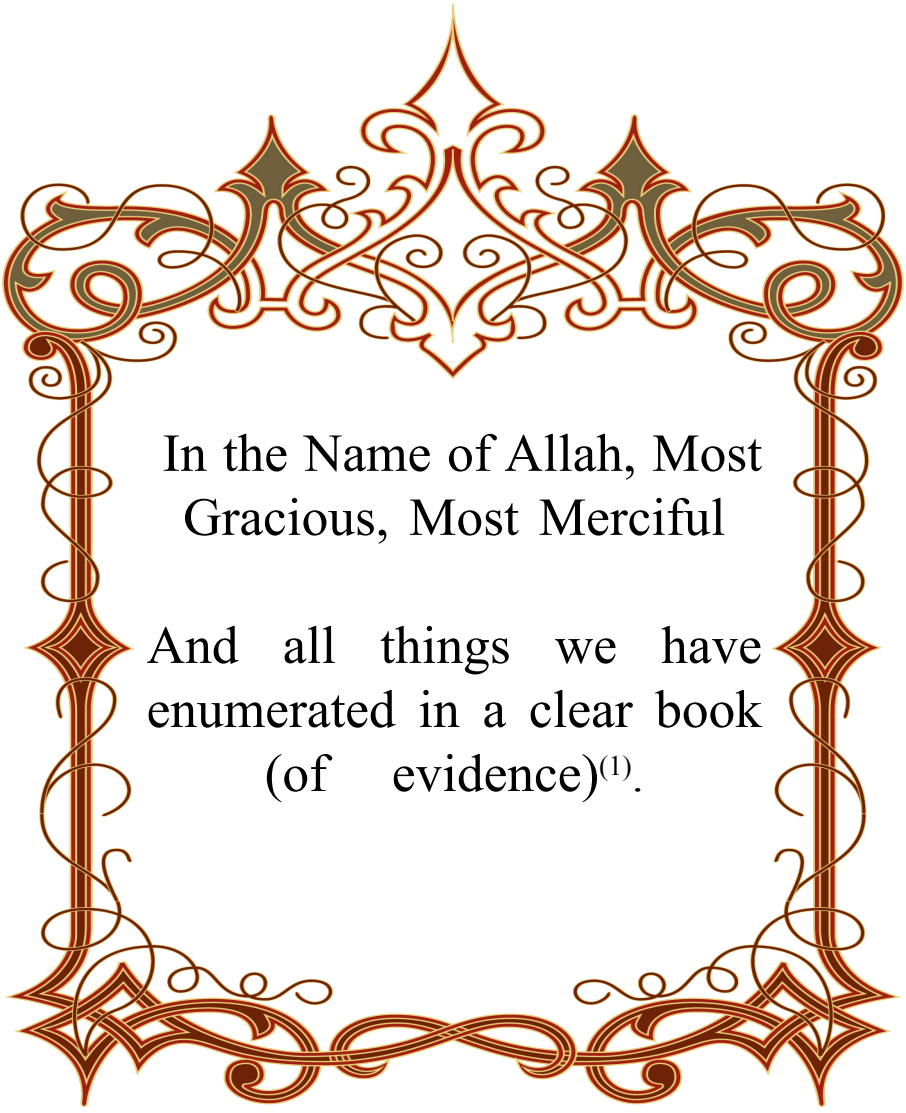

In the Name of Allah, Most Gracious, Most Merciful

And all things we have enumerated in a clear book (of evidence)[1].

1- Abodullah Yussif Ali, The Holy Quran, Text Translation and Comment,(Kuwait: That El-salasil,1989) , Iyat 12,Sura,Yasin.

Al MUBEEN

Quarterly Adjudicated Journal

Concerned with the Sciences of Road of Eloquence (Nahj Al-Balagha) and the Chronicle of Imam Ali (A.S) and his Thought

Issued By

General Secretariat of the Holy Shrine of Al-hussainia

Nahiul Balagha Sciences Foundation

licensed by

Ministry of Higher Education and Scientific Research

Reliable for Scientific Promotion

First Year –First Issue

2016 - 1437